2020
6.1.2020

شارل بودلير

# الفراديس المصطنعة

## في الحشيش والأفيون

ترجمها عن الفرنسية: ناظم بن إبراهيم

المتوسط

شارل بودلير

# الفراديس المصطنعة

## في الحشيش والأفيون

ترجمها عن الفرنسية: ناظم بن إبراهيم

المتوسط

# الفراديس المصطنعة

حقوق نسخ هذه الترجمة © ٢٠١٨ منشورات المتوسط - إيطاليا.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو صوتياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهًة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

Les Paradis artificiels *by* "Charles Baudelaire"
Arabic translation copyright © 2018 by **Almutawassit Books**.

المؤلف: شارل بودلير / المترجم: ناظم بن إبراهيم
عنوان الكتاب: الفراديس المصطنعة
الطبعة الأولى: ٢٠١٨.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

**ISBN: 978-88-85771-78-9**

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

# تقديم

في إحدى مساءات صيف ١٨٤٩، جلس تيوفيل غوتييه في بهو نُزُل لوزون المطلّ على نهر سانت لويس في باريس منتظرًا صديقهُ فيرناند بْواسّار الذي تعوّدَ على لقائه هناك في "نادي الحشّاشين" السّرّيّ صحبة ألكسندر دوماس والطبيب جاك جوزيف مورو. وبينما هو كذلكَ دخلَ بْواسّار مصطحبا معهُ ضيفًا جديدًا على حلقتهم التي لطالما حرصوا على اختيار عناصرها بحذر كبير. وقف غوتييه، وصافح صديقهُ مُسترقًا النظر إلى الرّجل الذي يرافقه: ملامح صارمة، عينان حادّتان، وأنفٌ بارز مثل إصبع اتّهام، ابتسامة هادئة، ويدٌ تمتدّ إليه:

- شارل بيار بودلير.

- غوتييه .. تيوفيل غوتييه.

تبادلا التّحيّة، ودون أن يضيّعا وقتًا كبيرًا في التعارف، التحقا ببهوهم السّرّيّ في النُّزُل.

لم يكُن هذا البهو مجرّد مكان يلتقي فيه الأدباء لاستهلاك موادّ مخدّرة فحسب، بل كان مختبرًا حقيقيًّا لتجربتهم الأدبيّة، وللنقاشات التي قد يُجْرونها حول نصوصهم ومشاريعهم في الكتابة أيضًا. وربّما كان بودلير واعيًا بخطورة اللعبة التي هو بصددها، الأمر الذي سيدفعهُ شيئًا فشيئًا إلى

تطوير المكتسبات التي يمكن أن يحقّقها من هذا المختبر، بِعَدِّه فضاءً ومنطلقًا للملاحظة المباشرة المتعلّقة بما يمكن أن يكون للحشيش وللأفيون من علاقات، قد تربطهما بالكتابة الأدبيّة والإبداعيّة، وهو ما سيقودهُ شيئًا فشيئًا إلى رحلة طويلة، قضّاها وهو يؤلّف هذا الكتاب الذي تبدو طبيعتهُ مُشكلة منذ الوهلة الأولى، فلا نجدُ لهُ وصفة أجناسيّة ملائمة، يمكنُ أن تضعهُ في خانة واضحة من خانات الكتابة، وليس هذا بغريب عن بودلير الذي سيركّز تجربته اللاحقة كلّها على التأسيس لتوتّر اصطلاحيّ، سيطبعُ الحداثة الشِّعْرِيَّة الفرنسيّة والغربيّة والعربيّة (وإن في وقت متأخّر)، وسيجدُ مُجراهُ النظريّ في مفهوم قصيدة النثر، أو القصيدة في النّثر (En Prose) كما نفضّل أن نترجمها.

لا تخفي مجمل المصادر التي اهتمّت بالتأريخ للحركة الأدبية الفرنسية في منتصف القرن التاسع عشر، حرصَ بودلير الدّائم على لعب دور الملاحظ عندما يتعلّق الأمر بالحشيش أو الأفيون، وقد يرتبط هذا الحرص بتعلّات أخلاقيّة أو صحّيّة، حاول التأكيد عليها في أكثر من موضع من هذا الكتاب.

غير أنّ هذا الحرص – وإن كان لا ينفي حقيقة استهلاكه لهذه الموادّ المخدّرة، وتجربته لها – مُتّصل بنزوعه إلى التأكيد على كونه، مثله مثل النُّخب الفرنسيّة التي كوّنت حلقات الحشيش السّرّيّة وقتها، لم يكن مجرّد مستهلك عاديّ، بقدر ما حاول في مجمل تأمّلاته وبحوثه، ربطَ تناول الحشيش ومختلف أنواع المنبّهات والمخدّرات، بالكتابة والخلق الإبداعيّ، بطريقة تقلبُ الفَهْم الذي يمكن أن يحصل في ذهن القارئ عندَ مصافحته عنوان هذا الكتاب، فالهدف الأوّل منه لم يكن الحشيش

أو الأفيون، ولا التشريع لتناولهما، وإنّما تمثُّل العمليّة الابداعيّة، وتتبّعها في ضوئهما، ولم يكُن هذا التّمثّل ممكنًا، لولا المجهود المعرفيّ الذي قام به وهو يتتبّع مواضيع بحثه، سواء تعلّق الأمر بما هو معرفيّ ولسانيّ وتاريخيّ وثقافيّ أو بما هو حسّيٌّ وواقعيّ وذاتيّ وتجريبيّ.

داخل هذا الأفق متعدّد الأبعاد، يحضرُ بودلير في "الفراديس المُصطنعة" بأبعاد مختلفة أيضا، تتداخل فيها أساليب الكتابة بين الموضوعيّة التي تفترضها العلميّة التي طمح إليها وهو يضع الخطوط المنهجيّة الأولى لمشروع بحثه؛ والذّاتيّة التي لم يستطع أن يتخلّص منها الشاعر الذي في داخله رغم محاولاته العديدة في تنويمه وإخماد صوته وتطويع رمزيّته لصالح نبرته السرديّة الهادئة. وإذا أردنا أن نفكّك العناصر التي كوّنت الخطاب البودليريّ في هذا الكتاب بطريقة لا تمسّ من تماسكها ووحدتها الأدبيّة، يمكن أن نجمل الوجوه التي حضر بها في "الفراديس" في المستويات الأربعة التالية:

## ١- بودلير المفكّر والكاتب: لقد أراد الإنسان أن يحلُم، وها هو الحُلم يتحكّم به:

يبدو بودلير هذا واضحًا في بداية الكتاب، وفي أثنائه، لكنّنا يمكن أن نخمّن بالقوّة أنّهُ كان حاضرًا أكثر قبل تأليفه، أيْ في الفرضيّات المعرفيّة والضوابط المنهجيّة التي اعتمدها قبل الشروع في الكتابة التي ستنفلتُ في أكثر من موضع من مشروعها الذهني، لا في مستوى موضوع الكتابة، وإنّما في مستوى شكل مقاربته. وفي هذا الصدّد، إلى جانب المجهود الإيتيمولوجيّ والبحث التاريخيّ اللافتَيْن للانتباه والمتعلِّقَيْن بكلمة "حشيش"، وبهذه المادّة المخدّرة وأنواعها المختلفة واستعمالاتها

المتعدّدة بتعدّد الثقافات والحضارات، تركّز عمل بودلير المفكّر والكاتب على دراسة ظاهرة الحلم، بِعَدِّها المنطقة التّخييليّة التي يشتغل داخلها المخدّر، ويفعل فعلهُ السِّحْريّ مُستفيدًا من البنية الذهنيّة للمُستهلك، وموظّفًا للعناصر المكوّنة لشخصيّته وذاكرته وثقافته.

وفي هذا المستوى، وداخل هذا الطابع العلميّ للكتابة البودليريّة، تناول بودلير الحُلم، واجتهدَ في تحديد بعض أنواعه، بل وربطه في أكثر من موضع بالطفولة، بِعَدِّها الإطار المرجعيّ الذي تتحقّق في سياقه (دون وعي) شخصيّة الكهل اللاحقة ومخاوفه وهواجسه وعُقده. يقول: *"وسنجدُ في الملاحظات المتعلّقة بالطفولة أصل أحلام الكهل الغريبة. لقد فهم كتّاب السيرة جميعهم، بطريقة شبه كاملة، أهميّة الحكايات المرتبطة بطفولة كاتب أو فنّان. لكنّني أجد أنّ هذه الأهمّيّة لم تؤكَّد بما فيه الكفاية مطلقًا. وفي كثير من الأحيان، بينما أتأمّل الأعمال الفنّيّة (...) أحسّ بشيء مّا يغمرني، كما لو كان إحدى الرؤى القادمة من طفولة أصحابها."* (١٨٦٠).

أليس هذا شبيهًا بالجملة الشهيرة لرائد التحليل النفسي (الذي لم يتجاوز عمره ثلاث سنوات عندما كتب بودلير هذه الكلمات) سيغموند فرويد حين يقول: "الطفل أبُ الرجُل" (١٩٠٨)؟ وبغضّ النظر عن إمكان اطّلاع فرويد (الذي سافر إلى فرنسا سنة ١٨٨٩ ليُحسّن تِقْنِيّاته في التنويم مع بعض الأطبّاء الفرنسيّين) على بودلير، واستفادته منه، الأمر الذي لا نجدُ له أثرًا في جلّ المصادر التّاريخيّة التي تناولت الكاتبَيْن، فإنّ هذه الملاحظات التي أبداها بودلير تظلّ جديرة بالتثمين المعرفيّ مثلها مثل عديد الملاحظات الأخرى الممبثوثة في كُتُب مختلفة سابقة لنظريّات التحليل النفسي دون أن تجدَ صيغتها النظريّة والمنطقيّة النهائيّة، الأمر

الذي يمكن أن نفهم في ضوئه، وفي السياق نفسه، انتهاء بودلير إلى القول: *"إنّ الحلم قاموس يجبُ دراستهُ، ولغة يمكن للحكماء الوصول إلى مفاتيحها."*

## ٢- بودلير المترجم: لدى آكل الأفيون أيضا مُترجمٌ معتم بالقرب منه:

ظلّ بودلير بعدّهِ مترجمًا، في كواليس الوعي الجمعي الغربيّ والعربيّ، وحتّى إذا ما استُحضر هذا الأمر في سياق الحديث عنهُ يُستحضر في سياق التذكير باتّساع اطّلاعه وتعدّد منابعه دون التركيز على الدّروس الكبيرة التي تعلّمها من هذا التمرين الذي كان يمكن أن يتحوّل إلى مشروع ضخم، لولا انشغالاته الشِّعْرِيّة والنقديّة الأخرى.

ولا يخفي بودلير في هذا المؤلّف الذي يترجم فيه مقاطع طويلة من كتاب الروائي الإنجليزيّ توماس دي كوينسي "اعترافات آكل أفيون إنجليزيّ" ليعتمدها عيّنة لتناوله لموضوع الكتاب، لا يخفي الجُهد الجبّار الذي بذلهُ ليقدّمَ ترجمة في مستوى بهاء النّصّ الإنجليزيّ الذي كان يقدّمه لأوّل مرّة للقرّاء الفرنسيّينْ آنذاك. وهذا الجهدُ، لم يرتبط بالقلق الذي أبداه تجاه غياب بعض المرادفات الفرنسية الدقيقة لبعض الكلمات الإنجليزيّة فحسب، بل يتجاوز ذلك ليشمل تطوّر حساسيّته الشِّعْرِيّة إزاء المفردات والجمل والكيمياء اللفظيّة الناتجة عن وصف أو سرد أو لوحة أليغوريّة أو رمزيّة، قد يواجهها في أثناء الترجمة يائسًا من إمكان الحفاظ المطلق على شفافيّتها ونقائها، ومحاولًا في أثناء خيانته الجميلة أن يعيد كتابتها بوعي مؤلّفها داخل السياق الثقافيّ الجديد، ليصل به الأمر، في بعض الأحيان، إلى القول: *"للمُترجم في علاقته بعقله، العلاقة نفسها التي تربط طيف بروكن*

*بذاك المسافر (الذي يحاول أن ينظر إلى نفسه في مرآة الطيف). وتمامًا مثلما يضطرب الطّيف بالعواصف والضباب والأمطار؛ يخلطُ المترجمُ المُلغزُ أحيانًا طبيعتهُ الانعكاسيّة بعناصر غريبة. إنّ ما يقوله عامّة، ليس غير ما قلتهُ (...) لكنّ كلماته تضطرب مثل وجهه، ولا تبدو مثل تلك التي فكّرتُ بها."*

## ٣- بودلير الناقد والمعلّق: عليّ أن أذكّر نفسي بهدف هذا العمل:

يحضرُ النَّفَسُ النقديُّ في هذا الكتاب مصاحبًا لمشروع الترجمة الذي يقترحهُ من ناحية، ولمسار البحث الذي اتّبعهُ بودلير في رصد المراحل المختلفة لتأثير الحشيش والأفيون على ذهن مُستعمله، غير أنّهُ لا يقفُ عندَ هذا الحدّ، بل يتجاوز ذلكَ نحو التّوغّل في أعقد القضايا الأسلوبيّة المرتبطة بالأدب الإنجليزيّ ومواضعاته آنذاك، فهو لا يدرس رواية دي كوينسي لأجل الرواية في حدّ ذاتها، وإنّما لتوافقها مع موضوع بحثه، بِعَدِّها شهادة حَيّة لأحد الكتّاب الكبار الذين قضّوا فترة طويلة في استعمال الأفيون، وكان لهم من الجرأة ومن الوعي ما يكفي ليقدّموا تفاصيل تجربتهم الإنسانيّة والإبداعيّة مع هذا المخدّر، ولا نكادُ - ونحنُ نقرأ الكتاب، خاصّة في قسمه الثاني - نفرّقُ بين الباحث وموضوع بحثه، أي بين بودلير ودي كوينسي، إلا في اللحظات التي يختار فيها بودلير أن يُحيّد ذاتيّتهُ، ويقدّم بعض الملاحظات الموضوعيّة لطبيعة المرحلة التي يتناولها ضمن مجمل المراحل التي يكون عليها الوعي البشريّ في استعمالات المخدّر المختلفة، أو لطبيعة الأسلوب الذي يعتمدهُ الموضوع، وهو يتحدّث عن تجربته.

## ٤- بودلير الشاعر والإنسان: قصيدة الحشيش، مسرحُ سيرافين والإنسانُ الإله:

مع شاعر مثل بودلير، كان التّخلّص من الشِّعْر في كتابه مستحيلًا رغم

محاولاته العديدة في التأكيد على رغبته في تقديم كتاب، ينزعُ إلى العلم والنقد أكثر من الأدب والشِّعْر. ولا تظهرُ هذه الاستحالة في بعض الجمل الشِّعْرِيّة المبثوثة هنا وهناك فحسب، وإنّما ترتبطُ بالطابع الاستعاريّ الذي وسم الكتاب في مجمله منذ البداية إلى آخر سطر خطّهُ الشاعر وهو يقارب موضوع بحثه. ولا يمكن لعناوين من قبيل "قصيدة الحشيش" أو "مسرحُ سيرافين (مسرحُ الظلال)" أو "الإنسان الإله"، أو غيرها أن تشي بأيّ طابع علميّ، بل هي، على العكس من ذلك، تحضرُ لتؤكّد أنّ الشِّعْر بِعَدِّه رؤية للعالم ورؤيا (بالمعنى الرامبوي – نسبة إلى آرثر رامبو – اللاحق والمتأثّر كثيرًا ببودلير) يوجّه إنشائيّة النّصّ البودليريّ الذي بين أيدينا وهويّتهُ الأجناسيّة القلقة. بل، يمكننا، ودون مجازفة، أن نعثر في هذا الكتاب على أكثر من قصيدة في النثر انفلتت من وعي كتابتها (في خطاب بودلير أو خطاب المتكلّمين معه)، وأن نجدَ بها العناصر التكوينيّة كلّها التي ستتجلّى بأكثر وضوح في الكتابة الشِّعْرِيّة لدى بودلير لاحقًا:

*"كم مرّة، كان يعيش مجدّدًا في تسليات المدرسة، وفي الغرفة المأتميّة، حيثُ تتمدّد جثّة شقيقته، في ضوء الصّيف وجليد الموت، وفي الطريق المفتوحة على النشوة، من خلال قنطرة السماوات الزرقاء؛ ثُمّ، الكاهن وهو يقف في جبّة بيضاء إلى جانب قبر مفتوح، والنعشُ وهو ينزل داخل الأرض، والغُبارُ الموارى على الغبار؛ وأخيرًا، القدّيسون والرُّسُل وشهداء الزجاج الملوّن، وقد أضاءتهم الشمس، وشكّلوا إطارًا رائعًا لتلك الأسِرّة البيضاء ومهود الأطفال الذين بأصوات الأبواق الشنيعة يعرجون إلى السماء! رأى*

*هذا كلّه مرّة أخرى، وإنّما بطريقة منوّعة ومزيّنة، وبألوان أكثر كثافة أو أكثر تبخّرًا. أعاد رؤية عالم طفولته كلّه، ولكنْ، مع الثراء الذي يضيفه الآن عقل مثقّف وحادّ ومتعوّد على استخراج أكبر ملذّاته من الوحدة والذكريات."*

وعمومًا، إذا أردنا بنيويًّا أن نرصدَ المكوّنات المنهجيّة التي وجّهت الوعي البودليريّ النقديّ في مجمل هذا الكتاب، يمكن القول إنّها قامت على ثلاث عناصر أساسيّة:

- العنصرُ الأوّل غالبًا ما يكون فكرة أو فرضيّة نظريّة سابقة أو لاحقة للمجهود البحثيّ الكبير والقراءات التي قام بها، مثل أصل الحشيش وطبيعته الكيميائيّة وممكناته التأثيريّة، أو الفرق التّخيّليّ الذي قد يُحدِثُهُ مقارنة مع الأفيون.

- أمّا الثاني، فيكون مثالًا تجريبيًّا، ينقلهُ بودلير إلى القارئ من تجربته الحيّة وملاحظاته المباشرة سواء تعلّق الأمر بالتجارب التي عاشها واستمع إليها في محيطه الأدبي والاجتماعيّ، أو بتلك التي اطلّع عليها في كُتُب مختلفة كلاسيكيّة ومعاصرة لهُ، واختار منها التركيز على أحد أهمّ نماذجها (دي كوينسي). وفي هذا المستوى، يخفتُ صوت بودلير لصالح أصوات المتكلّمين معهُ. لكنّهُ سيظلّ خفوتًا مقصودًا، بعَدِّ أنّهم سيتكلّمون على لسانه، وبالتالي سيخضعون إلى اختياراته المعجميّة والفكريّة التي سيحدّدها وعيه الحادّ بموضوع كتابته وملابساته.

- وأمّا الثالث، فيكون تعليقًا إبداعيًّا أو فكريًّا، يكون فيه صوت بودلير

الشاعر والمفكّر واضحًا، وهنا، يمكن للقارئ على امتداد الكتاب أن يجدَ بعض المنابع الأسلوبيّة والتجريبيّة التي ستحدّد بعض ملامح الرؤية الشِّعْريّة البودليريّة اللاحقة، والتي ستجدُ صيغها النهائيّة في كتابه الشِّعْرِيّ الشهير: سأمُ باريس: قصائد صغيرة في النثر.

لقد مثّل الحشيش والأفيون ومختلف الموادّ المخدّرة، موضوع كتابة وبحث علميّ في الحداثة الغربيّة، خاصّة مع تطوّر العلوم الطبيعيّة والإنسانيّة التي قلّصت من وطأة النزعة الأخلاقويّة التي وسمت أغلب الأعمال المقاربة لهذا الموضوع. ولئن حفلت المكتبة الإنسانيّة بكتابات كثيرة تتحدّث عن ملامح مجتمعات الحشيش السّرّيّة أو تربط استعمالات هذا المخدّر بالكتابة الفلسفيّة والإبداعيّة مِثل مؤلّف الكاتب الألماني بنيامين فالتر: عن الحشيش Über Haschisch (١٩٧٢) الذي يشير إلى كتاب بودلير في أكثر من موضع؛ يظلّ "الفراديسُ المُصطنعة" نصًّا تأسيسيًّا، لا غنى عنهُ للراغبين كلهم في مقاربة هذا الموضوع سواء تعلّق الأمر بما هو علميّ، من جهة الملاحظات الوصفيّة الدقيقة التي يقدّمها بودلير؛ أو بما هو إبداعيّ، فيما يرتبطُ بالشكل الذي يكون عليه الوعي الإبداعيّ في ضوء الاستعمالات المختلفة لهذه الموادّ المخدّرة.

بقي أن نشير هنا، إلى أهمّيّة الوقت الذي قضيّناهُ متأمّلين عنوان هذا الكتاب المُشكل (Les paradis artificiels) لنستقرّ في النهاية على ترجمته الحاليّة "الفراديسُ المُصطنعة"، ويعود هذا القلقُ المعجميّ الذي أبديناهُ إزاء العنوان إلى تعدّد المدلولات التي دلّ عليها بودلير في كتابه بمفردة Artificiel الفرنسيّة، فتارة يعني بها المُبتكَر، وتارة يعني بها الوهميّ أو الموهوم، وأخرى يربطها بالاصطناعيّ أو المُصطنع، وقد ارتأينا،

مجتهدين، الحفاظ على النعت "المُصطنعة" في العنوان، وفي أغلب مواضع الكتاب، والتّصرّف في بقيّة المواضع في ترجمة Artificiel داخل ممكنات معجميّة أخرى حسب ما يقتضيه السياق.

إلى جانب ذلك، كان من الضروريّ أيضًا، ونحنُ نترجم هذا الكتاب، أن نعود إلى النسخة الإنجليزيّة من مؤلّف توماس دي كوينسي Confessions of an English Opium Eater، معدّلين في بعض المواضع التي ارتأينا أفضليّة أن نُترجمها مباشرة عن الأصل أحيانًا، ومعتمدين على عبقريّة بودلير في إعادة كتابتها وتحويرها في السياق الفرنسيّ أحيانًا أخرى.

لم يبقَ الآن سوى أن أنسحبَ، وأتركَ المجال للقارئ ولبودلير وهو ينبّهه:

*"يجب على النّاس وعلى الجَهَلَة الذين لديهم فضول التّعرّف على ملذّات استثنائيّة، أن يعرفوا أنّهم لن يجدوا في الحشيش أيّ شيء خارق، أيّ شيء مطلقًا سوى الطبيعة في صيغتها المضاعفة والمفرطة. لقد تجهّزت الآن بما يكفي لرحلة طويلة ومميّزة. دقّ الجرسُ، واتّخذَ الشراعُ وجهتَهُ، بينما لديكَ مقارنة ببقيّة المسافرين امتياز أنّكَ لا تعرف إلى أينَ تذهب."*

**ناظم بن إبراهيم**

# تصدير

لاَبُدَّ مِنَ السُّكرِ دَائِمًا. ذَلِكَ هُوَ كُلُّ شَيء: تِلكَ هِيَ القَضِيَّةُ الوَحِيدَة. فَحَتَّى يَنتَفِي الإِحسَاسُ بِالعِبءِ الرَّهِيبِ لِلزَّمَنِ الذِي يَقصِمُ كَاهِلَكُم وَيُحنِيكُم إِلَى الأَرضِ، لاَبُدَّ لَكُم مِنَ السُّكرِ بِلا هَوَادَة. لَكِنْ، بِمَ؟ بِالخَمرِ، بِالشِّعْرِ أَوِ الفَضِيلَة، كَمَا يَحلُو لَكُم. لَكِن، فَلتَسكَرُوا.

وَإِذَا مَا أَفَقتُم أَحيَانًا، وَقَد خَفُتَ السُّكرُ أَو تَلاَشَى، عَلَى دَرَجَاتِ سُلَّمٍ قَصرٍ، أَو عَلَى عُشبِ قَنَاةٍ أَخضَرَ، فِي الوِحدَةِ الكَئِيبَةِ لِغُرفَتِكُم، فَلتَسأَلُوا الرِّيحَ، وَالمَوجَةَ، وَالنَّجمَ، وَالعُصفُورَ، وَسَاعَةَ الحَائِطِ، وَكُلَّ مَا يَتَلاَشَى، وَكُلَّ مَا يَتَأَلَّمُ، وَكُلَّ مَا يَدُورُ، وَكُلَّ مَا يُغَنِّي، وَكُلَّ مَا يَنطِقُ، اسأَلُوهُم مَا السَّاعَةُ الآن؛ وَلَسوفَ تُجِيبُكُم الرِّيحُ، وَالمَوجَةُ، وَالنَّجمُ، وَالعُصفُورُ، وَسَاعَةُ الحَائِطِ: "إِنَّهَا سَاعَةُ السُّكرِ! فَحَتَّى لاَ نَكُونَ عَبِيدَ الزَّمَنِ الشُّهَدَاءَ، فَلتَسكَرُوا؛ فَلتَسكَرُوا بِلاَ انتِهَاء! بِالخَمرِ، بِالشِّعْرِ أَوِ الفَضِيلَةِ، كَمَا تُحِبُّون."

**شارل بودليـر / سأم باريس (ترجمة: رفعت سلّام)**

# إلى (ج. ج. ف.)(*)

*صديقتي العزيزة،*

تُخبرنا الفطرة السليمة أنّ أشياء الأرض لا توجد إلاّ قليلاً جدًّا، وأنّ الواقعَ الحقيقيّ لا يوجَدُ إلّا في الأحلام. لذلكَ يتطلّب هضمُ السّعادة الطبيعيّة أو حتّى السعادة المُبتكَرة أن تكون لديكَ أوّلًا شجاعة ابتلاعها. وأولئك الّذين قد يستحقّونها هُمْ أنفسهم الّذين تمَنحُ لهم النشوةُ نفسَها. النشوة التي غالبًا ما ترافقها – مثلما يتمثّلها البشرُ – رغبة في التّقيّؤ.

سيبدو من الغريب وغير المقنع بالنسبة إلى بعض

---

*) ورد هذا الإهداء (A J. G. F. ) مرّتَيْن في مجمل أعمال بودلير، الأولى في تصدير هذا الكتاب (١٩٦٠)، والثاني في قصيدة من قصائد "أزهار الشّرّ" (١٩٦١) وردت بعنوان "L'Héautontimoroumémos" وهي كلمة إغريقيّة تعني في دلالتها الإيتيمولوجيّة: الرجل الّذي يُعذّب نفسه. ولئن رجّحَ الناقد البلجيكيّ ميشال بريكس Michel Brix ارتباط هذا الإهداء بالطبيب وعالم النفس الفرنسيّ جول غابريال فرانسوا بيارجي Jules Gabriel François Baillarger الّذي عاصر بودلير (١٨٠٩ - ١٨٩٠) وكانت لهُ عديد البحوث حول الاضطرابات الحاصلة في الجهاز العصبيّ وتأثيراتها النفسيّة، فإن ورودهُ يظلُّ غامضًا في السياقَيْن، ذلك أنّ ما يحيل عليه الإهداء في هذا الكتاب يبيّنُ أنّ المَعنيّة به امرأةٌ لا رجلٌ (صديقتي العزيزة)، ومن ناحية أخرى، يزيدُ ترجيحُ بعض الدارسين لشعر بودلير إمكانية أن تكون هذه المرأة من خياله، بعَدِّها الوجهَ الأنثويّ لـ "الغريب" L'étranger (القصيدة الأولى في "سأم باريس")، من تقليص إمكانيّة الحسم في هويّة صاحب الإهداء أو صاحبته. (المترجم). انظر أيضًا:

- Pierre Brunel : Baudelaire antique et moderne, Presses de l'Université Paris Sorbonne , 2007. P. 98.

العقول الساذجة، أن تُهدى لوحة من اللّذائذ المُبتكَرة إلى امرأة، والحالُ أنّها المصدر الأكثر تعارفًا للمُتَعة الأكثر طبيعيّة. مع ذلكَ، مثلما يَخترقُ العالمُ الطبيعيُّ ما هُو روحيّ مُغذِّيًا إيّاهُ ومساعدًا له على فَهْم هذا المزيج المستعصي الّذي نُسمّيه شخصيّتنا، المرأة هي ذلك الكائن الّذي يرمي بأكبر ظلّ أو أكبر ضوء في أحلامنا. إنّها مُلهِمةٌ حقيقيّةٌ، كما أنّها تعيشُ حياة أخرى غير تلك التي نعيشها؛ مقيمة في خيالاتها الّتي تطاردها وتخصبها.

في الحقيقة، لا يُهمّ كثيرًا أن يكون سبب هذا الإهداء واضحًا. وهل من الضروريّ أصلًا، كي يطمئنّ الكاتب، أن يُفهَمَ كتابهُ بغضّ النّظر عن الشخص الّذي كُتِبَ من أجله؟ أو باختصار، هل من الضروري أن يُكتَبَ كتابٌ ما لشخص بعينه؟ بالنسبة إليّ، لا أستسيغ كثيرا عالَمَ الأحياء الأشبه بذاك النوع من النّساء مرهفات الحسّ اليائسات اللّائي يُرسلْنَ – لنَقُل عبر البريد – أسرارهُنّ إلى أصدقاءَ وَهْميّيْن. لذلك اخترتُ أن لا أكتُب إلّا إلى الموتى. لكنّ هذا لا يعني أنّني أهدي هذا الكتاب الصغير إلى ميّتة، بل هو إلى إنسانة دائمة الحضور والحياة في داخلي رغم مرضها، إنسانةٌ ترفعُ الآن أنظارها كلّها إلى السماء، فضاء التّجلّيات كلّها. لأنّهُ بالإضافة إلى ما يمكن أنْ يُحسّهُ الإنسان حين يتناول مخدّرًا قويًّا، تتمتّعُ الذات البشريّة بذاك الامتياز المتمثّل في القدرة على استخراج لذّة جديدة وخفيّة من الألم، ومن الكارثة، وحتّى من الموت نفسه.

ستجدين في هذه اللوحة مشّاءً كئيبًا ووحيدًا، مرتميًا في طوفان الجموع المتدفّقة، ومُرسِلاً قلبهُ وتفكيره إلى "إليكترا" بعيدة، جفّفت ذات يوم جبينَهُ المتصبِّب عَرَقًا، وأنعشتْ شَفَتَيْهِ المتجلِّدتَيْنِ بالحُمّى، بينما ستخمّنين أنتِ امتنان "أوريست"(*) آخرَ كثيرًا ما سهرتِ على كوابيسه، وما أبعدتِ عنهُ بيد الأمّ الحليمة رهبةَ النوم.

**ش. ب.**

*) في الميثيولوجيا الإغريقيّة، أوريست Oreste و أختهُ إليكترا Electre شخصيّات رئيسة وردت في أكثر من موضع (خاصّة في مسرحيّات سوفوكل ويوريبيديس وأسخيليوس). وممّا يُروى عن إليكترا أنّها أنقذت أوريست عندما كان صغيرًا من خطر قَتْله، وهرّبتْهُ إلى خاله بعد أن قُتِلَ والدُهُ على يد عشيق أمّهما. وعندما بلغ العشرين من عمره، عاد للانتقام من قاتل أبيه، ويذكر أسخيليوس أنّ أوريست رأى وجهَ إليكترا أمام مقبرة أخمانون أين التقيا ليقرّرا طريقة الانتقام. وبعد انتقامه، ظلّ مُطارَدًا من قِبَل أنصار عشيق والدته، ليخوض معركة دامية معهم، ثمّ يلتجئ إلى معبد "دلفي" أينَ تعثر عليه إليكترا مُضرَّجًا بجراحه ومُصابًا بالحُمّى، فتسهرُ عليه، وتُطهِّره من جراحه، إلى أن يتعافى، ويطلب اللجوء إلى أثينا أين سيُحاكمُ، وتتمّ تبرئتُهُ. (المترجم).

# قصيدة الحشيش

# I

# طعمُ اللانهائيّ

أولئكَ الّذين يعرفون كيف يتأمّلون أنفُسهم وكيف يحتفظون بذاكرة انطباعاتهم. أولئكَ الّذين عرفوا، مثل "هوفْمان"(*)، كيف يبتكرون مقياس حرارة روحهم، كانَ لهُمْ في بعض الأحيان، وفي خضّم تأمّل أفكارهم، ما يُمكنُ أن يُكتَبَ من فصول جميلة وأيّام سعيدة ودقائق لذيذة.

ثمّة أيّامٌ يستيقظُ فيها المرءُ بعبقريّة شابّة وقويّة. ولمّا يتخلّصْ جفناهُ من النوم الّذي يملؤهما، يهبُ لهُ العالمُ الخارجيُّ نفسَهُ بوضوح شديد، وملامح صافية، وثراء ألوانٍ رائع. ويفتحُ لهُ العالمُ الرّوحيُّ آفاقَهُ الرحبةَ المليئة بالحقائق الجديدة.

حينها فقط، يشعرُ الموهوبُ هذا النعيم كُلّه – النّادر والعابر للأسف – أنّهُ أكثر دقّة، وأكثر قدرة على الإبداع في الوقت نفسه، ولقول ذلك في كلمة واحدة: أكثر نُبلاً.

---

*) إرنست ثيودور هوفمان (١٧٧٦ – ١٨٢٢): كاتب بروسيّ. اشتغل طيلة سنوات في مجال المحاماة، ثمّ اهتمَّ بالتأليف الموسيقيّ والكتابة الأدبيّة. يُعدُّ من أعلام الرومنسيّة الألمانيّة. تأثّر به عديد الشعراء والكتّاب الفرنسيّين مثل تيوفيل غوتيي وبالزاك وألفريد دي موسي. يعدّهُ بودلير محلّلا نفسيًّا خطيرًا في كتاباته، وذلك لدقّة أسلوبه في الوصف، وبراعته في السخرية التي يمتزجُ فيها النسبيّ مع المطلق، والواقعيّ مع الخياليّ في قصص بدت لبودلير مثلَ "رُؤى سُكْر" كان هوفمان على حدّ عبارته يتأمّل من خلالها نفسَه والآخرين. (المترجم). انظرْ أيضًا:

- Robert Laffont et Valentino Bompiani, Le nouveau dictionnaire des auteurs, coll. "Bouquins ", 1993, p. 1471.

لكنّ ما يُميّزُ هذه الحالة الاستثنائيّة الّتي يكون عليها الفكر والحواسّ – والّتي يمكن أن أُسمّيها دون مبالغة حالة سماويّة، إذا ما قارنتُها بالظلام الكثيف المخيّم على حياتنا اليوميّة المشتركة – أنّها لا تنشأ عن أيّ سبب واضحٍ أو قابل للتحديد بسهولة. هل هي نتيجة حِمية صحّيّة وحكيمة؟ هذا هو التفسير الأوّل الّذي يقدّمهُ العقل. لكنّنا مُجبَرون في الوقت نفسه على الاعتراف بأنّ هذه الحالة العجيبة والأشبه بالمعجزة، غالبًا ما تحدثُ كما لو كانت ناتجة عن قوّة خارقة غير مَرئيّة وخارجة عن نطاق الإنسان بعد فترة، يكون فيها هذا الأخيرُ قد استنزف قواهُ الجسديّة كلّها، فهل نقول، إذنْ، إنّها نتيجة الصّلوات الدؤوبة والكدح الرّوحيّ المستمرّ؟

من المؤكّد أنّ التّصاعد المتواصل للرغبة وكدحُ القوى الروحيّة نحوَ السّماء، هو الطّريقة الأمثل لبلوغ هذه السّعادة المشرقة أيّما إشراق، والرّائعة أيّما روعة، لكنْ، وفق أيّ قانون عبثيّ يحدثُ ذلك إثرَ انغماسٍ طارئ في بعض الخيالات الّتي يتبعها إحساس بالذّنب أو إثر استنزافٍ سفسطائيّ للعقل الّذي يمثّل في استعماله الصّادق والحكيم ما تمثّله المفاصل للجسد الفَتِيّ؟

لذلك، أفضّل عَدّ هذه الحالة غير الطبيعيّة التي تكون عليها الرّوح بمثابة النعمة الحقيقيّة، والمرآة السِّحْرِيَّة الّتي يرى فيها المرءُ نفسَهُ في أفضل حالاته، أيْ كما عليه أن يكون، وكما يمكنهُ أن يكون أيضًا. إنّها نوع من الانفعال الملائكيّ، وإعادة للأشياء إلى مكانها بكثير من الامتنان.

تعتبرُ إحدى المدارس الروحانيّة الّتي لها أعلامها في إنجلترا وأمريكا أنّ الظّواهر الخارقة مثل ظهور الأشباح والعائدين من الموت وغيرهما، هي من تمظهرات الإرادة الإلهيّة الحريصة على إيقاظ ذاكرة الحقائق الماورائيّة

في الإنسان. وفعليًّا، لا توجد لهذه الحالة الساحرة والفريدة، حيثُ تتوازن القوى جميعها، وحيثُ الخيالُ الواسع الّذي لا يتبعهُ رغم تدفّقه الرّائع أيُّ حسٍّ أخلاقيّ ، وحيثُ تتخلّصُ حساسيّةٌ مرهفةٌ من العذاب الّذي تتسبّبُ به أعصابٌ مريضة دائمًا ما لعبت دور الوَصيّ المستمرّ على الجريمة أو اليأس؛ لا توجدُ لهذه الحالة العجيبة، أيّ أعراض مُسبَّقة. إنّها غير متوقّعة أيضًا، مثل ظهور شبح. إنّها نوعٌ من الخوف، ولكنّهُ خوف متردّدٌ، يتوجّبُ علينا، إذا كان لدينا ما يكفي من الحكمة، أن نستلهمَ منهُ اليقين في حياة أفضل، والأمل في الوصول إليها من خلال الاختبار اليوميّ لإرادتنا.

لقد مثّلت هذه الدّقّةُ في التفكير وهذه الحيويّة الّتي تكون عليها الحواسُّ والعقل أولى الفضائل بالنسبة إلى الإنسان في الأوقات كلّها؛ وذلك ما جعلهُ، دون التفكير في غير اللّذّة الفوريّة والمباشرة، ودون الحاجة إلى القلق حيال القوانين التي تُنظّمُ حياتهُ، يبحثُ في العلوم الفيزيائيّة والصّيدليّة، وفي أقوى المشروبات الكحوليّة، وأجمل العطور، في المناخات كلّها والأوقات جميعها، عن وسائل للهروب، ليتمكّن في ساعات قليلة من تشييد بيته الطّين، أو كما يقول مؤلّف لعازر(*) : "من بلوغ الجنّة بضربة واحدة". ولكنْ، هيهات! ذلك أنّ الرذائل البشريّة، المليئة – في توسّعها المستمرّ – بالرّعب أكثر ممّا نفترضُ؛ وإن انطوت على دليل احتوائها على طعم اللانهائيّ، فإنّهُ يظلُّ طعمًا مرتبكًا، وغالبًا ما تكون طريق الوصول إليه خاطئة.

---

*) لعازر Lazare: شخصيّة مسيحيّة مذكورة في إنجيل يوحنّا، ومعروفة بأسطورة قيامها من القبر بعد أنْ أحياها المسيح. غير أنّ إحالة بودلير على "مؤلّف لعازر" هنا تظلّ غامضة لكثرة استخدام هذه الشخصيّة في الأعمال الأدبيّة في القرون الوسطى والقرن التاسع عشر سواء في مستوى العنونة أو في مستوى الإحالات المرجعيّة داخل النّصوص. ولئن وجدنا ممّنْ عاصروا بودلير مَن استخدمَ هذه الشخصيّة في أعماله مثل الكاتب الإيطاليّ أنطونيو فوغازارو Antonio Fogazzaro، فإنّ إمكانيّة إحالته على الكتاب المقدّس في هذا السّياق، تظلّ قائمة أيضًا. (المترجم).

يمكننا أن نقتبس بمعنى مجازي المثل الدّارج الّذي يقول: " الطُّرُقُ كلها تؤدّي إلى روما"، وأن نطبّقه على العالم الأخلاقيّ، فنقول: كلّ شيء يؤدّي إلى الثواب أو إلى العقاب، بِعَدِّهما شكلَيْن أزليَّيْن للحياة.

إنّ العقل البشريّ ممتلئٌ بالأهواء، وإذا ما سمحتُ لنفسي باستخدام عبارة فظّة أخرى، يمكن أن أقول إنّ لديه ما يكفيه من هذه الأهواء لـ "يعيد بيع نفسه" إليها في كلّ مرّة. لكنّ هذا العقل الشّقيّ، الّذي طالما كان فسادهُ الطبيعيُّ في حجم كفاءته المُفاجِئة وشبه المتناقضة تجاهَ الخير والفضائل الأكثر تطلّبًا؛ مليءٌ بالمفارقات الّتي تُمكّنهُ من توظيف تلك الرغبة الطّافحة كلّها في خدمة الألم. إنّهُ لا يعتقدُ مطلقًا أنّهُ يبيعُ نفسَهُ كلّها. وينسى في خضمّ افتتانه ونشوته أنّهُ يلعبُ مع ما هُو أدقّ وأقوى منه، مثلما ينسى أنّ هذا "الوعي البائس" لا يتوانى عن امتلاك الرأس كلّها حتّى عندما لا نقدّمُ إليه سوى شعرة واحدة منها. أراد، إذنْ، هذا الإله المحسُوس ابن هذه الطبيعة المحسوسة (وأقصد بذلك الإنسان)، أن يخلق الجنّة من خلال الصيدلة والخمور، كما لو كان معتوهًا، يستبدلُ بأثاث صلب وحدائق حقيقيّة ديكورات مرسومة على القماش، ومثبّتة داخل إطارات خشبيّة. وداخل فساد معنى اللّانهائيّ هذا، يكمن، حسب رأيي، سبب كلّ إفراط في استعمال هذه الموادّ، بداية من الكاتب الّذي يثملُ في عزلته بكثافة، بعد أن وجد نفسهُ مُجبرًا على أن يبحث في الأفيون عمّا يُسكِّنُ ألمًا جسديًّا، ليكتشفَ إلى جانب ذلك مصدرًا جديدًا لمتعة مَرَضيّة، ستتحوّل شيئًا فشيئًا إلى دوائه الوحيد، كما لو كانت شمس حياته الروحيّة؛ وصولًا إلى الإدمان الأكثر إثارة للاشمئزاز في الضواحي أين يتمايلُ المخمور بطريقة سخيفة وسط القمامة في الطريق، وقد امتلأ رأسهُ باللّهب والشموخ.

إنّ من بين المخدّرات الأكثر قابليّة للاستعمال ما أُسمّيه "المثاليُّ المُبتكر"، ولن أتحدّث هنا عن المشروبات الكحوليّة المركّزة الّتي تدفع سريعًا نحو التّوتّر الجسديّ، وتُرهقُ بسهولة المقدرة النفسيّة، أو العطور الّتي وإن يجعلُ الإفراط في استهلاكها من خيال الإنسان أكثر روعة، فإنّها تُنهك قواه الجسديّة تدريجيًّا. إنّ أكثر الموادّ حيويّة وملاءمة وقابليّة للاستعمال هي: الحشيش والأفيون. وسيكون هذا العمل مخصّصًا لدراسة الآثار الغامضة والمتعة المرضيّة الّتي يمكن أن تُحدثها هذه المخدّرات، إلى جانب العواقب الحتميّة المرتبطة باستعمالها المطوّل، وصولًا إلى العبث الكامن في اقتفاء أثر هذا المثاليّ الموهوم.

لقد تمّ الاشتغالُ طبّيًّا وشعريًّا على الأفيون بطريقة رائعة، تجعلني لا أتجرّأ على إضافة أيّ شيء بهذا الصدد. لذلك، سأُركّزُ على تناول أمر آخر، يتعلّقُ بتناول كتاب فريد، لم يُترجَمْ كاملًا في فرنسا، ألّفهُ رحّالةٌ ذو خيال واسع وشفّاف، انسحب الآن من الحياة إلى الصّمت، وتجرّأ فيه ببراءة مأسويّة على حكاية قصّة المتع والعذابات الّتي وجدها في ما مضى في الأفيون، ويُعدّ الجزء الّذي يتحدّث فيه عن المجهود الجبّار الّذي كان عليه بذلهُ، كي يتخلّص من العذاب الّذي ألحقه تهوُّرُهُ بنفسه، الجزءَ الأكثر دراميّة من كتابه.

لن أتحدّث اليوم إلّا عن الحشيش، وسأتحدّثُ لاحقًا عن معطيات كثيرة وتفاصيل دقيقة مقتطفة من ملاحظات وأسرار رجال متّقدي الذّكاء، وهبوا أنفسهُم طويلًا إليه. وسأحاول فقط أن أصهر هذه المعطيات المختلفة داخل نوع من الدراسة المنسجمة، مختارًا روحًا سهلة الشرح والتعريف، بِعَدِّها نموذجًا جيّدًا لكثير من التجارب المندرجة ضمن هذا النوع.

# II

# ما هو الحشيش؟

إنّ قصص ماركو بولو(*) الّتي أخطأنا بالسخرية منها هي وقصص بعض الرّحّالة الآخرين القدامى، قد حُقِّقَتْ من قِبَل العلماء، وصارت تستحقُّ تصديقنا واهتمامنا. لن أروي بعدهُ كيف قام "شيخُ الجبل" بسجن بعض أصغر مريديه داخل حديقة مليئة بالثّمار بعد أن أسكرهُم بالحشيش (الكلمة التي جاءت منها: حشّاشين(**))، قصد إعطائهم فكرة عن الجنّة الّتي تمثّلُ، إذا جاز التعبير، الثواب الّذي سيحظون به مقابل طاعتهم المطلقة والسلبيّة والجهولة لهُ(***). ويمكن للقارئ، فيما يتعلّقُ بجماعات الحشّاشين السِّرّيّة،

*) يشيرُ بودلير هنا إلى "كتاب العجائب" Livre des merveilles الّذي ألّفهُ الكاتب والرحّالة الإيطاليّ ماركو بولو Marco Polo (١٢٥٤ - ١٣٢٤)، والّذي عُرف بغلبة الطّابع العجائبيّ على سرديّته، بعَدِّه كتاب الرحلات الأقدم في الثقافة الأوروبيّة. عُثر عليه مخطوطًا في إيطاليا، ونُشر في لغته الأصلية لأوّل مرّة سنة ١٤٧٧. ولئن لم يُترجَم كاملاً إلى اللغة الفرنسيّة في عصر بودلير، فقد نُشر لاحقًا في ترجمات مختلفة، لعلّ أهمّها:

- Marco Polo : le livre des merveilles du monde, traduit par : Jean-François Kosta-Théfaine. Librio 2005.

**) يتناولُ بودلير في هذا السياق الأصل الإيتيمولوجيّ لكلمة "حشّاشين"، واستعمل في هذا الموضع بديلَيْن لهذه الكلمة، واحدة تحتفظُ بالترجمة الحرفيّة Haschischins والثانية كما وصلت إلى الفرنسيّة: Assassins. وقد ارتأينا في هذا المستوى الحفاظ على بديل واحد لهما، طالما لا يوجد اختلاف جوهريّ في المعنى. ورُغمَ أنّ كلمة Assassin الفرنسيّة تعني القاتل أيضًا، لكنّ هذا المعنى لا يخلو هو الآخر من نوع من الارتباط بالحشيش، وبحركة الحّشاشين الإسماعيليّة الّتي ظهرت في بلاد الفُرْس بين القرنَيْن الخامس والسابع للهجرة، واستوطنت داخل ما يُسمّى بـ "قلعة الموت". والّتي سنُفصّل القول فيها لاحقًا (انظر الهامش عدد ٢١). (المترجم).

***) تنتمي قصّة "شيخ الجبل" (حسن الصّبّاح قائد الحركة الإسماعيليّة) إلى ما رواهُ ماركو

أن يطّلع على كتاب م. دي هالنمر M. de Halnmer ورسالة م. سيلفستر دي ساسي M. Sylvestre de Sacy الموجودة في المجلّد السادس عشر من رسائل الأكاديمية الفرنسية للتوثيق والآداب، وأن يطّلع، فيما يتعلّق بالأصل الإيتيمولوجيّ لكلمة حشّاشين، على رسالتها المودَعة في الكتابة العامّة للأكاديميّة بعدد ٣٥٩ لسنة ١٨٠٩.

يروي هيرودوت أنّ السّكيثيّين(*) كانوا يجمعون بذور القُنّب، ويرمون عليها أحجارًا مشتعلة. وقد كان ذلك بالنسبة إليهم بمثابة حمّام بُخار أكثر عبقًا من أيّ حمّام يونانيّ، وكانت متعتهم بذلك كبيرة، إلى درجة يصرخون فيها من النشوة.

في الواقع، لقد جاءنا الحشيش من الشّرق، وقد كانت الخصائص المميّزة للقنّب معروفة جيّدًا في مصر القديمة، وكان استعمالهُ منتشرًا

---

بولو من حكايات عن هذه الحركة، وباتت معروفة بـ "أسطورة الفردوس" الّتي يصف فيها قلعة الإسماعيليّين وما يحدث داخلها مُوردًا الآتي: "كانت فيها حديقة كبيرة مَلأى بأشجار الفاكهة، وفيها قصور وجداول، تفيض بالخمر واللبن والعسل والماء، وبنات جميلات يغنّينَ ويرقصنَ ويعزفنَ الموسيقى، حتّى يُوهِمَ "شيخ الجبل" أتباعه أنّ تلك الحديقة هي الجنّة. وقد كان ممنوعًا على أيّ فرد أن يدخلها، وكان دخولها مقصورًا فقط على مَنْ تقرّر أنهم سينضمّون لجماعة الحشّاشين. كان شيخ الجبل يُدخلهم القلعة في مجموعات، ثمّ يناولهم الحشيش، ثمّ يتركهم نيامًا، ثمّ بعد ذلك، كان يأمر بأن يُحمَلُوا ويُوضَعُوا في الحديقة، وعندما يستيقظون، يعتقدون بأنهم قد ذهبوا إلى الجنّة، وبعدما يُشبِعُون شهواتهم، يتمّ تخديرهم مرّة أخرى، ثمّ يُخرَجون من الحدائق، ويتمّ إرسالهم إلى "شيخ الجبل"، فيركعون أمامه، ثمّ يسألهم من أين أتوا؟ فيردّون: "من الجنّة"، وبعد ذلك يرسلهم الشيخ، ليغتالوا الأشخاص المطلوبين؛ ويَعدُهم أنهم إذا نجحوا في مهمّاتهم، فإنه سوف يُعيدهم إلى الجنّة مرّة أخرى، وإذا قُتلوا في أثناء تأدية مهمّاتهم، فسوف تأتي إليهم ملائكة، تأخذهم إلى الجنّة!". (المترجم). انظرْ أيضًا:

Frampton, John (1929). The Most Noble and Famous Travels of Marco Polo.

*) السّكيثيّون: مجموعة من القبائل الهندوأوروبيّة استقرّوا بغربي نهر الفولجا شمال البحر الأسود، حيث كانوا على صلة بالمستعمرات الإغريقية، وتمكّنوا من تأسيس إمبراطورية قوية، استمرّت لقرون عديدة قبل أن يخضعوا للسارماتيّين بين القرنَين الرابع قبل الميلاد حتّى القرن الثاني الميلادي. (المترجم).

كثيرًا، وتحت تسميات مختلفة، خاصّة في الهند والجزائر واليمن السعيد. مع ذلك، لدينا بالقرب منّا وأمام أعيننا أمثلة كثيرة، تستحقّ الاهتمام للثّمالة الناجمة عن الغازات الّتي تُصدرها بعض النباتات، دون الحديث عن الأطفال الّذين غالبًا ما يصابون بنوع من الدّوار بعد لعبهم وتجوالهم بالقرب من بعض أكوام الفصّة المتعفّنة، كما نعرفُ آثارًا مشابهة تحدثُ للعمّال نساءً ورجالًا في مواسم حصاد القنّب، كما لو أنّ الحصاد يوقظُ في داخلهم نوعًا من الانزعاج الّذي يُربكُ عقولهم. ويصبحُ رأسُ الحصّاد كثير الاضطرابات، وفي بعض الأوقات مليئًا بالأحلام، وفي لحظات معيّنة، تفتر قوى العمّال إلى درجة يرفضون فيها العمل.

لقد سمعنا أيضًا مَنْ يتحدّث عن نوبات السير في أثناء النوم المنتشرة كثيرًا لدى الفلّاحين الرّوس، والتي يُنسَبُ سببها إلى استعمال زيت القُنّب في أثناء إعداد الطّعام. وإلى جانب هذا، مَنْ لا يعرفُ حالة الهيجان الّتي تنتابُ الدّجاج عندما يأكلُ بذورًا من القنّب، أو الجموح المتّقد لأحصنة الفلّاحين في الأعراس وحفلات كبار الإقطاعيّين، بعد أن تُجهَّزَ للسّباق بوجبة من بذور القُنّب الّتي تُرَشُّ أحيانًا بالنبيذ؟

مع ذلك، لا يمكن للقنّب الفرنسيّ أن يتحوّل إلى حشيش، أو على الأقلّ، وحسب بعض التجارب المتكرّرة، لا يمكن أن يكون تأثيرهُ مساويًا لتأثير الحشيش. إنّ الحشيش، أو القنّب الهنديّ ("الكانابي إنديكا") هو نبتةٌ تنتمي إلى عائلة النباتات القراصيّة ومشابهة لها، غير أنّها لا تصلُ إلى الارتفاع نفسه الّذي تصل إليه نبتة القنّب المنتشرة في مناخاتنا. وللحشيش خصائص مُسكِرَة استثنائيّة، لفتت منذ سنوات في فرنسا انتباه كثير من العلماء والزّوّار من مختلف أنحاء العالم، وقد حظي بتقدير كبير باختلاف مصادره؛ ورغم أنّ حشيش البنغال هو الأكثر استعمالًا من قِبَل الهواة، فإنّ

ما يصلنا من مصر والقسطنطينيّة وبلاد الفُرس والجزائر، يتميّز بالخصائص نفسها، وإن بدرجة أقلّ بعض الشيء.

للحشيش (الّذي يعني العشب[*] بامتياز، كما لو كان العرب قد أرادوا تعريفه في كلمة واحدة: الحشيش، بِعَدِّه مصدر الملذّات غير الملموسة كلّها) مُسمّيات كثيرة حسب مكوّناته، والطريقة الّتي تمّ إعداده بها، وحسب البلاد الّتي تُنتجهُ، ففي الهند يُسمّى: "بانجي"؛ وفي إفريقيا: "تریاكي"؛ وفي الجزائر واليمن السعيد: معجون الحشيش (أو "المعسّل")، وما إلى ذلك من التسميات. وبالنسبة إلى جنيه، ليس للحشيش القيمة نفسها كاملَ العام، ذلكَ أنّهُ يكتسبُ طاقتَهُ الأكبر في الأوقات الّتي يكون فيها مُزهِرًا، وبذلك تمُثِّلُ بتلاته المزهرة الجزء الوحيد المستعمل في مختلف طُرُق إعداده الّتي لدينا بعض الكلمات الّتي سنقولها عنها.

إنّ المُستخرجَ الدُّهنّي للحشيش، كما يعدّهُ العرب، يكون من خلال غلي بتلات النبتة النضرة مع الزّبدة في قليل من الماء. ونتحصّلُ بعض تبخّر الماء والتّخلّص من الرطوبة على مادّة لزجة أشبه بمَرهَم أصفر مائل إلى الاخضرار غالبًا ما تكون له رائحة الحشيش السَّيِّئة الممتزجة برائحة الزبدة العفنة، ويمكن تقسيمُهُ على هذه الشاكلة إلى كريّات صغيرة، تزن من ٢ إلى ٤ غرامات، لكنْ، بحُكم رائحته المثيرة للاشمئزاز والمتصاعدة مع الوقت، التجأ العربُ إلى تحويل هذا المُستخرَج الدهنيّ إلى معجون، من خلال خلطه بموادّ أخرى، تُلطِّف من رائحته. ولعلّ أهمّ معجون استعملَهُ العرب "الدّوَامِسْك"، وهو خليط من المُستخرج الدّهنيّ والسُّكّر وأنواع

*) يواصل بودلير في هذا السياق الحديث عن أصل كلمة Haschisch التي انتقلت حرفيًّا من العربيّة إلى الفرنسيّة، ولتفسير معناها للقارئ الفرنسيّ استعملَ كلمة L'herbe التي يمكن أن تُترجَم: العشب أو الحشيش أيضًا، لذلك اخترنا المرادف الأوّل تجنّبًا للتكرار، والمرادف الثاني حفاظًا على السياق والأصل العربي للكلمة. (المترجم).

مختلفة من التوابل مثل الفانيليا والقرفة والفستق واللّوز والمسك. وفي بعض الأحيان، يُضاف إلى الخليط شيء من الذُّرَّاح(*) لهدف لا علاقة له بالنتائج الاعتياديّة للحشيش. وبهذا الشكل، يتمّ تخليص الحشيش من رائحته السَّيِّئة، ويُصبح قابلاً للاستعمال بجرعات من ١٥ و٢٠ و٣٠ غرام سواء بالخُبز أو في كأس من القهوة.

لقد كانت التّجارب الّتي قام بها كلّ من م.م. سميث وغاستينال وديكورتيف، بهدف اكتشاف المبدإ الأساسيّ الّذي يعملُ وفقهُ الحشيش، ورغم مجهوداتهم، ظلّت تركيبته الخيميائيّة غير معروفة. لكنّ ذلك لم يمنعهم من إسناد خصائصه الأساسيّة إلى مادّة صمغيّة تمثّل ١٠ بالمائة من كلّ جرعة جيّدة. وللوصول إلى هذا الصّمغ، تُطحَنُ النبتة، بعد أن تُجفَّف، في شكل مسحوق، ويُغسَلُ هذا المسحوق مرّات عديدة بالكحول الّتي يتمّ ترشيحها لاحقًا لفصلها عنه حالما يتماسكُ، ثمّ تُغسَلُ المادّة المستخرَجة بالماء الّذي يُنظِّفها من الموادّ الصمغيّة الدخيلة، وبذلك يحافظ صمغُ الحشيش على نقائه. وتكون هذه المادّة طريّة وذات لون أخضر مائل إلى السواد، وتمتلك بدرجة عالية الرّائحة المميّزة للحشيش، وتكفي ٥ أو ١٠ أو ١٥ صنتيغرام منها لإحداث تأثيرات مثيرة للدهشة.

غير أنّ "الحُشَيْشينة" الّتي يمكن أن تكون في شكل قطع من الشكولاطة أو حبّات زنجبيل صغيرة، لها – مثلها مثل الـ"دَوامِسْك" والمستخرج الدهنيّ – تأثيرات قويّة ومختلفة باختلاف طبيعة المستهلكين وقدراتهم العصبيّة. وقد يختلف تأثيرها من استعمال إلى آخر لدى المستهلك نفسه، فتدفعهُ أحيانًا إلى الإحساس ببهجة عارمة، لا تُقاوَمُ، أو براحة كبيرة وامتلاء

*) الذُّرَّاح: حشرة ذات أرجل طويلة، ولون أخضر ذهبي أو ضارب إلى الزرقة ، تُجفَّف وتُسحَق وتُستعمل في الطِّبِّ لاحتواء أجسامها على مادّة الكانثريدين. (المترجم).

بالحياة؛ وتدفعهُ أحيانًا أخرى إلى نوم ثقيل مليء بالهلوسات والأحلام. مع ذلك، ثمّة كثير من الظواهر الّتي تتكرّرُ بانتظام لدى الأشخاص الّذين لديهم أمزجة متشابهة أو الّذين حظوا بتعليم مماثل، بل ثمّة داخل هذا التّنوّع وحدة، تُمكّنني دون جهد كبير من كتابة هذه الدّراسة الّتي تحدّثتُ عنها، والّتي أتابعُ فيها تاريخَ السُّكْر وأشكاله المرتبطة بالحشيش.

ثمّة في القسطنطينية والجزائر وحتّى في فرنسا، مَنْ يدخّنون الحشيش بعد خلطه مع التبغ، لكنّ الآثار النّاجمة عن ذلك لا تحدثُ إلا بطريقة معتدلة جدًّا، أو بعبارة أخرى، بطريقة بطيئة جدًّا.

لقد سمعتُ أنّ بعضهم استخرج مؤخّرًا من الحشيش ، عن طريق التقطير، زيتًا أساسيًّا، يبدو أنّ لهُ من الأهمّيّة والتأثير أكثر من طُرُق الإعداد المعروفة كلّها إلى الآن، لكنّه لم يُدرَس بما يكفي لأتمكّن من الحديث عن نتائجه بيقين. ألم يبقَ من الضروريّ الآن أن أُضيف أنّ الشّاي والقهوة والمشروبات الكحوليّة المركّزة، هي موادّ مساعدة قويّة، تُسرّعُ بشكل أو بآخر حدوث هذه الثُّمالة الغامضة؟

# III

# مسرحُ سيرافين(*)

ما الّذي نشعرُ به؟ ما الّذي نراهُ؟ أشياء رائعة، أليس كذلك؟ مشاهدٌ غير عاديّة؟ هل هي جميلة إلى هذا الحدّ؟ وفظيعة إلى هذا الحدّ؟ وخطرة إلى هذا الحدّ؟ - هذه هي الأسئلة الاعتياديّة الّتي يطرحها الجَهَلَة على المجرّبين بفضول مختلط بالخوف. فضولٌ معرفيّ طفوليّ أشبه بذاك الّذي يمتلكه أولئكَ الّذين لا يغادرون مطلقًا ركن مدفأتهم، ويجدون أنفسهم فجأة أمام رجل عائد من بلاد بعيدة وغير معروفة. يتخيّلون نشوة الحشيش، كما لو كانت بلادًا رائعة، ومسرحًا واسعًا من الخُدع البصريّة والسِّحْر، حيثُ كلّ شيء خارق، وغير مُتوقَّع. وليس ذلك سوى رأيٍ مُسبَّقٍ، وسوءِ فَهْم كُلِّيٍّ. وبِعَدِّ أنّ كلمة "حشيش" تنطوي، بالنسبة إلى أغلب القرّاء والمتسائلين على فكرة ذاك العالم الغريب والمضطرب، وعلى ذاك الانتظار المتواصل

---

*) كلمة ذات أصول عبريّة (Seraphim)، تعني في معناها الأوّلي: أحرقَ أو احترقَ، وهي اسم جمع، يمكن ترجمتهُ حرفيًّا بـ: "المحترقون"، ولئن اختلف المؤرّخون وعلماء اللاّهوت حول تأويلها عندما انتقلت من العبريّة إلى اللاتينيّة في أثناء ترجمة الكتاب المقدّس، فإنّ المعنى الّذي استقرّت عليه في المخيال الشعبي المسيحيّ مرتبط أساسًا بالتسمية التي تُطلَقُ على مخلوقات ملائكيّة ذات ثلاثة أزواج من الأجنحة، تحوّمُ حول عرش الله (Les Séraphins).

وأمّا مسرحُ سيرافين، فهو مسرحٌ قديم، كان تحت إمرة لويس الرابع عشر في فرساي، وكانت تُقدّمُ فيه مجموعة من عروض "مسرح الظّلال" الصينيّ المرتبطة بالأساطير والميثيولوجيا اليونانيّة. وفي هذا السّياق يربطُ بودلير استعاريًّا بين الظّلال (العنصر الأساسيّ الّذي تقوم عليه هذه العروض) من ناحية، والآثار الخياليّة النّاجمة عن استهلاك الحشيش من ناحية أخرى. (المترجم).

للأحلام العجيبة (الّتي من المستحسن أن نُسمّيها "هذيانات"، رغم أنّها متواترة أقلّ بكثير ممّا نفترض)؛ فإنّي سأبيّن مباشرة الفرق الكبير الّذي يفصلُ الآثار المرتبطة بالحشيش، عن الظواهر المتعلّقة بالنوم. ثمّة في النوم، هذه الرحلة المُغامِرة الّتي نقوم بها كلّ ليلة، شيء ما مُعجزٌ، يحدثُ على نحو إيجابيّ، لكنّ غموضه يتقلّصُ أمام دقّة مواعيده وتكرّره المستمرّ.

تنقسمُ أحلامُ الإنسان إلى نوعَيْن. النوع الأوّلُ منها وثيق الارتباط بحياته اليوميّة وهواجسه ورغباته وأوهامه، وغالبًا ما تختلطُ فيه الأحلام بشكل ما غريب بالأشياء الّتي يتعرّضُ إليها المرء في أثناء اليوم، والّتي تترسّخ دون أن يشعُر في نسيج ذاكرته الواسع. هذا هو الحُلم الطبيعيّ. إنّهُ الإنسانُ كما هُو. لكنّ المشكل في ذاك النوع الآخر من الحُلم! ذاك الحُلم العبثيّ وغير المتوقّع، والّذي لا تكون له أيّ علاقة لا بطبيعة الحالم ولا بحياته ولا رغباته. ومن المؤكّد أنّ هذا النوعُ، الّذي أسمّيه حُلمًا هيروغليفيًّا، يمثّلُ الجانب غير الطبيعيّ من الحياة، وما كان القدامى ليعدّوه إلاهيًّا (أو نوعًا من الإشارة الرّبّانيّة) لولا عبثيّته الّتي أشرنا إليها، فعندما لا يتمّ التّوصّل إلى تفسيره حسب الأسباب الطبيعيّة، يُسندون إليه سببًا خارجًا عن الإنسان. وإلى اليوم، ودون الحديث عن العرّافين، ثمّة مدرسة فلسفيّة ترى في الحُلم نوعًا من اللّوم أو النّصيحة، وإجمالًا، لوحة رمزيّة وأخلاقيّة راسخة في وعي النّائم. إنّ الحُلم قاموس يجبُ دراستهُ، ولغة يمكن للحكماء الوصول إلى مفاتيحها.

في نشوة الحشيش، لا شيء يُشبهُ ذلك. لن نخرُج من الحُلم الطبيعيّ. صحيحٌ أنّ النشوة، في الوقت كلّه الّذي تدومه، لن تكون بفضل الكثافة التي تكون عليها الألوان والسرعة الّتي تتشكّل وفقها التّصوّرات، سوى حُلم كبير، لكنّها تحافظُ دائمًا على النبرة الخاصّة للفرد. لقد أراد الإنسان

أن يحلم، وها هو الحُلم يتحكّم به، لكنّهُ يظلّ دائمًا ابن أبيه. قد يبرعُ المستهلكُ الكسول في إقحام المفارقِ في حياته وفكره بطريقة اصطناعيّة، لكنّهُ في النهاية ورغم الاهتياج المفاجِئ الطارئ على حواسّه، ليس سوى الرّجل نفسه مضاعفًا، والعدد نفسه قوّةَ ضارب كبير جدًّا. إنّهُ مغلوب على أمره، ولكنْ، مغلوب ببؤسه الّذي وصل إليه بنفسه، أي، بالجانب المهيمن في داخله؛ لقد أراد أن يصبحَ ملاكًا، فصار بهيمة(*)، لحظة فارقة جدًّا، إذا أمكن أن نعدّ "ما هو فارق"، حساسيّةً مفرطة غير قابلة للتعديل أو للاستغلال.

يجب إذنْ على النّاس وعلى الجَهَلَة الّذين لديهم فضول التّعرّف على ملذّات استثنائيّة، أن يعرفوا أنّهم لن يجدوا في الحشيش أيّ شيء خارق، أيّ شيء مطلقًا سوى الطبيعة في صيغتها المضاعفة والمفرطة. ولن يؤدّي الدّماغ والخلايا الّتي تُنتجُ النّشوة إلّا إلى الظواهر الاعتياديّة والفرديّة، وإذا صحّ أنّها ستكون ظواهرَ مكثّفة في العدد وفي الطاقة الذهنيّة الناتجة عنها، فإنّها ستبقى وفيّة لمصدرها. ولن يستطيع الإنسان تجاوُز حدود طبيعته الماديّة والمعنويّة، ولن يكون الحشيش حسب الانطباعات والأفكار المألوفة للإنسان سوى مرآة كبيرة، يرى فيها نفسه، ولكنّها مرآة نقيّة وصافية أيمّا صفاء.

ها هو الدّواء أمام عينَيْكَ: قليلٌ من المعجون الأخضر، في حجم جوزة، تفوح منها رائحة مميّزة وحادّة، إلى درجة تثير الاشمئزاز والإحساس بالغثيان، الأمر الّذي يحدثُ حتّى مع الروائح الجميلة والرائعة حين تكون في أقصى قوّتها، أو بعبارة أخرى، في أبعد مراحل تركيزها. واسمحوا لي أن ألاحظَ بطريقة عابرة أنّ هذا الأمر يُمكنُ أن يكون معكوسًا، فتصبحُ العطور الأكثر

---

*) اقتباسٌ وتحوير لجملة Qui veut faire l'ange fait la bête المأثورة عن الفيلسوف الفرنسيّ بليز باسكال Blaise Pascal. (المترجم).

استفزازًا والأكثر إثارة للاشمئزاز في حالتها المركّزة مصدرَ سعادة حقيقيّة، إذا ما استُعمِلت بأقلّ كمّيّات ممكنة، وأقلّ تركيز ممكن. هذه هي السعادة! أن نُشبع احتياجاتنا كلّها بملعقة صغيرة واحدة! يمكنكم ابتلاع السعادة بثمالتها وجنونها وطفوليّتها كلها دون خوف إذنْ! لن يُهلككم ذلك! ولن يلحق بخلايا أجسادكم أيّ ضرر. ربّما تقلّلُ بعض الهواجس المتكرّرة من قوّة إرادتكم في وقت

لاحق، وربّما تصيرون رجالًا أقلَّ ممّا أنتم عليه الآن، لكنّ العواقب الحقيقيّة مازالت بعيدة جدًّا، والكارثة الطبيعيّة القادمة صعبة التحديد. ما الّذي تخاطر به إذنْ؟ شيء من الوهن العصبيّ في اليوم الموالي. لكنْ، ألستَ تجازف كلّ يوم بأكبر المخاطر، من أجل مقابل أقلّ بكثير ممّا تقدّمه؟ ثمّ، لقد قلتَ ذلك بنفسكَ. لقد ذوّبتَ جرعتكَ من المُستخرَج الدّهنيّ في كأس من القهوة، كي تعطيها أكثر قوّة وأكثر فاعليّة؛ لقد اهتممتَ بأمر معدتكَ، وتركتَها فارغة مُؤجِّلًا الوجبة الّتي كنتَ تتناولها إلى التاسعة أو العاشرة ليلًا، لإعطاء السّمّ حُرّيّة عمل كاملة؛ وفي ظرف ساعة على الأكثر ستتناول حساءً خفيفًا. لقد تجهّزتَ الآن بما يكفي لرحلة طويلة ومميّزة. دقّ الجرسُ، واتّخذ الشراعُ وجهته، بينما لديكَ مقارنة ببقيّة المسافرين امتيازُ أنّكَ لا تعرف إلى أينَ تذهبُ. لقد أردتَ ذلك، أردتَ أن تعيشَ الموت!

أفترضُ أنّكَ أخذتَ الاحتياطات اللازمة فيما يتعلّق باختيار الوقت المناسب للقيام بهذه السفرة المُغامِرة، فالسعادة المثاليّة تحتاجُ إلى استعداد مثاليّ. ثمّ، أنتَ تعي جيّدًا أنّ الحشيش يؤدّي لا إلى تضخّم الذّات فقط، بل إلى تضخّم الأشياء، وتضخّم المكان من حولكَ أيضًا؛ لن يكون لديكَ أيّ واجب يقتضي دقّة القيام به في وقت محدّد، ولا أيّ

حزن عائليّ، ولا أيّ ألم متعلّق بالحُبّ. لكنْ، عليكَ أخذ هذا كلّه بعين الاعتبار، فهذا الألم والقلقُ والواجب الّذي يستعير انتباهكَ وإرادتكَ في لحظة معيّنة، قد يقتحمُ نشوتكَ ويدقُّ في رأسكَ مثل ناقوس مُفسِدًا سعادتكَ، ينتهي إلى القلقُ رُعبًا، والألم عذابًا لا ينتهي. في حال أخذتَ هذه الأمور كلّها بعين الاعتبار، سيكون كلّ شيء على أحسن ما يُرام، وإذا كُنتَ في مكان ملائم، أمام مناظر طبيعيّة خلّابة أو داخل بيت مُزيّن بطريقة شِعْرِيّة، وإذا استمعتَ، بالإضافة إلى هذا، إلى شيء من الموسيقى الجميلة، سينحو كلّ شيء نحو الأفضل.

ثمّة في نشوة الحشيش عمومًا ثلاثُ مراحل سهلة التحديد، وليس من الصّعب ملاحظة الأعراض الأولى للمرحلة الأولى لدى المبتدئين. كُنتَ قد سمعتَ بشكل عامّ عن الآثار الرّائعة الناجمة عن الحشيش، وقد تخيّلتَ مُسبَّقًا فكرة معيّنة أو شيئًا أشبه بنشوة مثاليّة، تحلمُ بها، وها أنتَ تتوق إلى معرفة ما إذا كان الواقع في مستوى انتظاراتكَ وتوقّعاتكَ. وهذا وحده كافٍ لجعلكَ في حالة من التّأهّب الدّائم الملائم لطبيعة المخدّر الّذي تتناوله نفسها.

يشكو معظم المبتدئين في البداية من بطء الآثار، فينتظرون ذلكَ بنفاد صبر طفوليّ، بينما لا يعمل الحشيش بالسرعة الّتي يرغبون بها، فلا يتوانون عن السخرية من مقدرته، الأمر الّذي يُضحِكُ أولئك الشيوخ المجرّبين الّذين يعرفون كيف يعمل الحشيش. إنّ الآثار الأوليّة الأشبه بأعراض عاصفة طويلة وغير متوقّعة، تظهرُ وتتضاعفُ داخل هذه السخرية نفسها. ستتملّكُكَ في البداية حيويّة سخيفة لا تُقاوَمُ. وتتضاعَفُ هذه البهجة الطارئة الّتي تكادُ تخجلُ منها حتّى تقضي على لحظات الذّهول

الّتي كنتَ تحاول فيها تمالُكَ نفسكَ بلا جدوى. وتأخذُ الكلمات الأكثر بساطة والأفكار الأكثر تفاهة شكلًا غريبًا وجديدًا، حتّى إنّكَ تندهشُ من عدم انتباهكَ إلى غرابتها هذا الوقت كلّه. تشابهات كثيرة، ومقاربات غير متجانسة، لا يمكن التّنبّؤ بها مطلقًا، لعبٌ بالكلمات لا ينتهي، وصور مضحكة، تتحرّكُ في رأسكَ باستمرار. لقد غزاكَ الشيطانُ، ولم يعُد من الممكن مقاومة هذه النشوة المؤلمة مثل دغدغة مستمرّة. ستضحكُ من وقت إلى آخر من جنونكَ وغبائكَ، وسيضحكُ رفاقكَ، إن وُجدوا، عليكَ وعلى أنفسهم، لكنْ، طالما لم يسخروا منكَ، لن تشعر بأيّ استياء.

هذه البهجة الّتي تضعف أحيانًا، وتتكثّفُ أحيانًا أخرى، هذا الانزعاج الّذي تحسُّهُ في أثناء الفرح، هذا الإحساس بانعدام الأمان، وهذا التّردّد المستمرّ، لن يدوم وقتًا طويلًا. وقريبًا، تُصبحُ العلاقات بين الأفكار غامضة، ويرتخي الخيْطُ النّاظمُ الّذي كان يربط تصوّراتكَ ببعضها البعض، ولن يفهمكَ أحد غير أولئك الّذين يجلسون معكَ. وحتّى في هذا المستوى، لا يوجد أيّ شيء يمكن أن يُثبتَ ذلك. ربمّا يعتقدون أنّهُم يفهمونكَ، وربمّا كان هذا الوَهْم متبادَلًا. ستبدو هذه الحماقات والضحكات العالية الأشبه بانفجارات قويّة، جنونًا حقيقيًّا، أو في أحسن الحالات هرطقة مجنونٍ، بالنسبة إلى أيّ شخص ليس في الحالة نفسها الّتي تكون عليها، مثلما ستُضحككَ حكمة ذاك الّذي لم ينتشِ، وستُضحككَ عقلانيّتهُ وانتظام الأفكار في ذهنه، وسيبدو لكَ كلامه كلّه نوعًا من الخرف. وستُقلّبُ الأدوارُ. وستدفعُكَ برودة دمه إلى السخرية منه إلى أبعد حدّ. أليست وضعيّة مضحكة إلى درجة الغموض، تلكَ الّتي يكون عليها رجل مستمتع بنشوة غير مفهومة، بالنسبة إلى ذاك الّذي لم يُسافر إلى المكان نفسه الّذي سافر إليه الأوّل؟ يُشفقُ المجنون على العاقل، ومنذ تلك اللّحظة، تبدأ فكرة تفوُّقه في التّلويح من بعيد. بعد قليل، ستكبرُ وتكبرُ حتّى تنفجرَ مثل نيزك.

لقد كنتُ مرّة شاهدًا على حادثة من هذا النّوع، وقد دُفعَ بها وقتها إلى أقصاها. ولا يمكن أن يفهمَ حجمها إلّا أولئكَ الّذين يعرفون، من خلال مشاهدة الآخرين على الأقلّ، الآثار الناجمة عن المخدّرات، والفرق الشّاسع الّذي تُحدِثهُ في وعي اثنَيْن، يُفترضُ أن يمتلكَا الدرجة نفسها من الذّكاء. موسيقار شهير، لا يعرف خصائص الحشيش، وربّما لم يسمع عنه من قبل، وجدَ نفسَهُ مصادفة وسط جماعة من الحشّاشين. حاولنا أن نُبيّنَ لهُ الآثار الرّائعة الناجمة عنه، غير أنّهُ أمام خطاباتنا التمجيديّة، كان يبتسمُ باطمئنان وثبات، كما لو كان أحدهم بصدد التقاط صورة لهُ. وجُوبهَ احتقارهُ بسرعة من قِبَل أولئك الّذين قام الحشيش بمفعوله في رؤوسهم، وصارت ضحكاتهم تجرحهُ. الضّحكات المتفجّرة، التورية، والوجوهُ المتحوّلة، هذا الجوّ الخانق كله هيّجهُ ودفعهُ، ربمّا قبل أن يرغب هو نفسه في ذلك، إلى قول إنّ هذه الشحنة الإبداعيّة سيّئة، وإنّها لا بدّ من أن تكون مُرهِقَة بالنسبة إلى مَنْ يصلون إليها. أضاءت السُّخرية الوجوه كلّها مثل برق، وضاعف كلامه من سعادة من حوله. "ربمّا تكون هذه الشحنة جيّدة، بالنسبة إليكم، قال، ولكنْ، ليسَ بالنسبة إليّ" – "يكفي أنّها جيّدة، بالنسبة إلينا" أضاف أحد المرضى بأنانيّة. ودون أن يفهم هل هو مع مجانين حقيقيّيْن أم مع أناس يدَّعون الجنون؟! اعتقد صديقنا أن الخيار الأمثل هو الانسحاب، لكنّ أحدهم أغلق الباب، وخبّأ المفتاح. ونطّ آخرٌ، وركع أمامهُ طالبًا الاعتذار باسم الجماعة كلّها قائلًا بوقاحة، ولكنْ، بدموع في عينَيْه أيضًا، إنّه رغم جفافه الرّوحي الّذي قد يدفع إلى شيء من الشفقة، فإنّ الجميعَ لا يُكنُّون له غير الصّداقة العميقة. استسلم صديقنا للبقاء، بل واستجاب إلى طلب أحدهم في عزف شيء من الموسيقى. غير أن صوتَ الكمان انتشرَ في الغرفة، كما لو كان مخدِّرًا آخر، وأخذَ يصرعُ (وهذه الكلمة ليست قويّة

بما يكفي لتُعبّر عما حدث فعلًا) المرضى واحدًا بعد الآخر. تجشّؤات وتنهّدات عميقة، صرخات مُفاجِئة، وجداول من الدموع الصامتة. توقّفَ الموسيقار مذعورًا، واقترب من أكثر مَنْ عذّبتْهُ السّعادةُ بيننا، وسأله إن كان يتألّمُ كثيرًا، وعمّا عليه أن يفعلهُ، كي يرتاح. وتدخّل أحد المساعدين، رجلٌ عمليّ، واقترحَ شيئًا من عصير الليمون والصودا. لكنّ المريض كان، والنشوة تملؤ عينَيْه، ينظر إليهم بازدراء لا يُوصَف. لقد أرادوا معالجة رجل مريض بكثير من الحياة، رجل مريض بالفرح!

مثلما نرى من خلال هذه الحكاية، لرحابة الصّدر أهمّيّة كبيرة في تحديد الأحاسيس الناجمة عن الحشيش؛ خاصّة رحابة الصدر الهادئة والدّافئة والصّامتة النابعة من ذاك الارتخاء الّذي تكون عليه الأعصاب. وتدعيمًا لهذه المُلاحظة، حدّثني شخصٌ بمغامرة وقعت لهُ وهو في هذه الدرجة من النشوة، وبِعَدِّ أنّهُ احتفظ بذكريات دقيقة جدًّا عن مشاعره، فهمتُ جيّدًا في أيّ إحراج بشع ومعقّد وضعهُ ذاك الفرق الحاصل في الوعي وفي المستوى، والّذي تحدّثتُ عنهُ منذ قليل. لا أتذكّر بالضبط هل كانت تجربتهُ الأولى أو الثانية مع الحشيش. ولا أعرف إن كان قد أخذ جرعة أقوى من المعتاد، أو أنّ الحشيش هو الّذي أنتجَ دون أيّ سبب إضافيّ واضح (الأمر الّذي يحدث في كثير من الأحيان) آثارًا أقوى بكثير من الآثار المعتادة؟ لقد قال إنّهُ في أثناء انتشائه، ذاك الانتشاء الرّائع الّذي يحسُّ معه المرء أنّه ممتلئ بالحياة، وأنّه يمتلك عبقريّة كبيرة، اعترضَ فجأة موضوعًا مرعبًا، وبينما كان منبهرًا بروعة نشوته، تفاجأ بغتة بهذه الفكرة. تساءلَ عمّا سيكون عليه ذكاؤه وخلاياهُ في حال واصلت هذه الحالة الّتي يعدّها حالة فوق طبيعيّة تعمّقها، وفي حال أصبحت أعصابه أكثر حساسيّة يومًا بعد يوم. وبالنظر إلى مَلكة التضخيم الّتي تمتلكها العين الروحيّة للمريض، لا بُدّ من أنّ هذا التساؤل مثّلَ بالنسبة إليه عذابًا لا ينتهي.

"كنتُ، قال، مثل حصان جامح، أركضُ نحوَ هاوية، أريد التّوقّف، ولا أقدرُ على ذلك. في الحقيقة، لقد كان ركضًا مروّعًا، وشرعت أفكاري بخضوعها التّامّ لما أنا فيه، ولما يحيط بي، ولكلّ ما يمكن أن يرتبط بكلمة "صُدفة"، تأخذُ منعطفًا عاطفيًّا بحتًا. لقد فات الأوان! كنتُ أردّد في داخلي بيأس وبلا توقّف. وعندما انتهى هذا الشّعور الّذي بدا لي أنّهُ دام دهرًا بينما لم يكن قد تجاوز ربمّا بضعَ دقائق، واعتقدتُ أنّني سأنعمُ أخيرًا بالسعادة، العزيزة على قلوب الشرقيّين، والّتي تلي مرحلة الاهتياج الّتي حدّثتُكَ عنها، وجدتُ نفسي مُكبَّلًا ببؤسٍ جديد. وتملّكني قلقٌ آخر، أكثر تفاهة وأكثر طفوليّة. تذكّرتُ فجأة أنّني مَدعوّ إلى سهرة عشاء مع بعض الأشخاص الجادّين. ورأيتُ نفسي وسط حشد من العقلاء الهادئين، حيثُ الكلُّ سيّدٌ على نفسه، مُجبرًا على أن أُخفي بحذر حالتي الذهنيّة تحت ضوء المصابيح الكثيرة الّتي تملؤ القاعة. كنتُ واثقًا من أنيّ سأنجحُ في ذلك، لكنّني كنتُ أفكّر أيضًا في المجهود الجبّار الّذي عليّ أن أبذله من أجل ذلك. لا أعرفُ كيف تحرّكتْ في ذاكرتي جملة الإنجيل الّتي تقول: "ويلٌ لمَنْ يتسبّب في الفضيحة!"، وبينما حاولتُ إجبار نفسي على نسيانها، كنتُ أردّدها بلا توقّف في رأسي. كانت مصيبتي (لأنّها مصيبة حقًّا) تكبر شيئًا فشيئًا. وقرّرتُ رغم تعبي أقوم أنْ ببعض المجهود، وأستشير صيدليًّا، ذلكَ أنيّ لم أكن أعرف الأشياء الأخرى الّتي يمكن أن تحدث أيضًا، وأردتُ أن أقوم بواجبي، وأذهب إلى السهرة متحرّرَ الّذهن، ومتخلّصًا من سطوة الحشيش عليّ. لكنْ، بمجرّد أن وصلتُ إلى عتبة الصيدليّة حتّى تملّكتني فجأة فكرة، واستوقفتني بعض دقائق. كنتُ قد لمحتُ وجهي على زجاج إحدى المحلّات، وأنا أعبر الطريق، وكان ذلك كافيًا لإرباكي. ذاكَ الشّحوبُ، تلكَ الشفاهُ الغائرة، وتلكَ العيون الناتئة والكبيرة! "سأُزعجُ هذا الرّجل الطّيّب، قلتُ في نفسي، ومن أجل أيّ حماقة!" وأضف إلى

هذا، ذاك الشعور السخيف الّذي أردتُ تجنّبهُ والمتعلّق بالخوف من وجود أناس آخرين داخل الصيدليّة. لكنّ ثقتي المُفاجِئة في هذا الرّجل المجهول هيمنتْ على مشاعري الأخرى كلّها. وتصوّرتُ أنّهُ سيكون على الدّرجة نفسها من الحساسيّة الّتي كنتُ عليها في هذه اللحظة القاتلة، وعندما تخيّلتُ أنّ أذنهُ وروحهُ، كما هو الحال عندي، ستنزعجان من أقلّ ضجيج، قرّرتُ أن أدخل إليه على أطراف أصابعي. لا يتوجّبُ عليّ، قلتُ في نفسي، أن أُظهِرَ كثيرًا من التّكلّف أمام رجل، سأقترحُ عليه صداقتي. ثمّ حاولتُ إخمادَ صوتي مثلما أخمدتُ صوت خطواتي. هل تعرفُ صوت الحشيش؟ إنّهُ أجشّ وعميق وحلقيّ، ويشبه كثيرًا صوت شيوخ آكلي الأفيون القدامى. كانت النتيجة عكس ما أردتُ الوصول إليه. لقد أردتُ طمأنة الصيدليّ، فأرعبتُهُ. لم يكن يعرف شيئًا عن هذا المرض، ولم يسمع عنهُ من قبل. ومع ذلك، كان ينظر إليّ بفضول ممتزج بكثير من انعدام الثقة.

هل كان يراني مجنونًا، أو رجلاً غير صالح، كما لو كنتُ متسوّلًا؟ لا هذا، ولا ذاك بالتأكيد، لكنّ هذه الأفكار كلّها كانت تخترق رأسي. وجدتُ نفسي مُجبرًا على أن أُفسّر لهُ (ويا لهُ من تعب!) ما هو معجون القنّب؟ وما هي استعمالاتهُ؟ مكرّرًا دون توقّف أنّهُ ليس ثمّة أيّ خطر، وأنّهُ ليس عليه أن يقلق حيال الأمر، وأنّني لا أطلب سوى وسيلة لتخفيف الألم أو مضادّ حيويّ، مُؤكّدًا في كلّ مرّة على صدق حزني تجاه ما أُسبّبه له من انزعاج. في النهاية – وحاول أن تفهمَ كَمَّ الإهانة الّتي تسبَّبتُ بها لنفسي بما قلتُهُ – طلب منّي ببساطة أن أغادرَ المحلّ. هذا هو مقابل صداقتي وثقتي المبالغ بها. في النهاية، ذهبتُ إلى سهرتي، ولم أُزعج أحدًا. ولا يمكن لأحد أن يستوعب كَمّ المجهودات غير الطبيعيّة الّتي بذلتُها كي أشبهَ الجميع في القاعة. لكنّني لن أنسى عذابات هذه النشوة فوق – الشّعريّة المحرَجة بالمظاهر والمُكبّلة بالواجب!"

رغم مَيلي الطبيعيّ إلى التعاطف مع الآلام المترتّبة كلّها عن الخيال، لا يمكنني تمالك نفسي عن الضّحك من هذه القصّة. لم يُصلح الرّجل الّذي حدّثني بها من حاله. وواصل يطالبُ ذاك المعجون اللّعين بالإثارة الّتي يتوجّب أن نجدها في دواخلنا. لكنْ، بما أنّهُ رجلٌ حكيم ومرتَّبٌ ومتحضّر، قلّص من حجم الجرعات التي يتناولها، كي يتمكّن من زيادة عددها. وسيجني لاحقًا الثمار المتعفّنة لهذه العادة.

أعودُ الآنَ إلى التحليل الّذي بدأته عن النشوة. بعدَ هذه المرحلة الأولى من الفرح الطفوليّ، يحدثُ ارتخاءٌ وقتيّ. لكنّ أشياء أخرى ستحدثُ بعد ذلك من خلال الإحساس بحيويّة كبيرة تغمر الأطراف (ويمكن أن تصل لدى بعضهم إلى إحساس شديد بالبرد)، ليلازمها وهن كبير يتملّكُ الجسد، هنا يصبح لديك يدان من الزبدة، وتحسُّ في رأسكَ، بل وفي كيانكَ كله، بدهشة وذهول شديدَيْن. تكبر عيناك، وكأنّهُما تنظران إلى الاتّجاهات كلها، مأخوذتان بنشوة عارمة. يشحبُ وجهكَ. وتنحسر شفتاكَ إلى داخل فمكَ، إلى جانب حركة الشموخ تلك الّتي تُميّزُ طموحَ رجل بصدد التفكير في مشاريع كبيرة مأخوذًا بأفكار كبيرة أو مُجمِّعًا أنفاسه، كي ينعم بقليل من الراحة. ثمّ ينغلقُ الحلقُ، إذا جاز التعبير. ويجفّ فمكَ بعطش خفيف، سيكون من الصعب عليك رَوْيهُ إذا لم تكن اللّذّة المترتّبة عن الكسل أكثر روعة، وإذا لم يكن ذلكَ سيُسبِّبُ لكَ قلقًا جسديًّا. تنهّدات كبيرة وعميقة، تفلتُ من صدركَ، كما لو أنّ جسدكَ القديم غير قادر على استيعاب رغبات ونشاطات روحكَ الجديدة. ومن وقت إلى آخر، تخترقكَ رعشة، وتُجبركَ على القيام بحركة لا إراديّة ما، مثل تلك الاهتزازات اللاإراديّة الّتي تسبق النوم بعد يوم عمل شاقّ أو في ليلة عاصفة.

قبل الذهاب إلى أبعد من هذا، أودّ بخصوص هذا الإحساس بالبرد

الّذي تحدّثتُ عنه أعلاه، أن أروي حكاية أخرى، تبيّنُ إلى أيّ درجة يمكن أن تختلف آثار الحشيش، حتّى وإن كانت جسديّة بحت، من شخص إلى آخر. وهذه المرّة، سنجد أديبًا يتحدّث، وفي بعض المواضع من حكايته، يمكن، على ما أظنّ، أن نجدَ أثرًا لهذا الطّابع الأدبيّ.

"أخذتُ، لقد قال لي هذا، جرعة معقولة من المُستخرَج الدهنيّ، وكان كلّ شيء ينحو إلى الأفضل. لم تدُمْ نوبة الفرح المرضيّة إلا قليلًا، ووجدتُ نفسي في حالة من الارتخاء والذهول الّتي مثّلت بالنّسبة إليّ سعادة كبرى. نذرتُ نفسي سهرة هادئة وخالية من الهموم. لكنْ، للأسف، أجبرتْني الصّدفة على مرافقة أحدهم إلى عرض مسرحيّ. أظهرتُ استعدادًا لذلك، وعزمتُ على إخفاء رغبتي الكبيرة في الاسترخاء وعدم التّحرّك. كانت عربات الحيّ كلّها قد غادرت، وكان عليّ القيام بمسافة طويلة على قَدَمَيّ، مُخترِقًا الضّجيح المزعج للعربات والأحاديث السخيفة للمارّة، وبحر التّفاهات كله ذاك. أحسستُ بنضارة خفيفة تغمر أطراف أصابعي؛ وبعد برهة، تحوّلت تلك النضارة إلى برد قارس، كما لو كانت يداي قد وُضعتا في إناء من الجليد. لكنّ ذلك لم يكن مُؤلِمًا، وكان هذا الشعور الحادّ بمثابة اللّذّة بالنسبة إليّ. ومع ذلك، بدا لي أنّ هذا الإحساس بالبرد يتملّكني شيئًا فشيئًا، بالتساوق مع هذه الرحلة الّتي لا تنتهي. سألتُ مرافقي أكثر من مرّة، إن كان يشعر بالبرد، لكنّه كان يجيب أنّه على عكس ذلك، وأنّ الطقس أكثر من دافئ. عندما جلستُ أخيرًا في المقصورة المخصّصة لي في القاعة، وفكّرتُ في الساعات الثلاث أو الأربع الّتي سأنعم فيها بالراحة في أثناء العرض، اعتقدتُ أنّي وصلتُ إلى الأرض الموعودة. وفسحتُ المجال لتلك المشاعر كلها الّتي حاولتُ بما تبقّى لديّ من الجهد أن أقمعها في الطريق، وسلّمتُ نفسي إلى ذهولي وصمتي

الرهيبَيْن. لم يتوقّف البرد عن التصاعد رغم أنّي رأيتُ أناسًا يرتدون ملابس خفيفة، بل ويمسحون جبهاتهم بقليل من الضجر. وتملّكتْني هذه الفكرة اللّذيذة المتمثّلة في أنّني كنتُ الرجل المبجّل الوحيد الّذي ليده الحقّ في أن يشعر بالبرد في الصيف، وفي قاعة للعروض المسرحية. وتواصل البرد إلى درجة مؤلمة، لكنّني كنتُ مأخوذًا بفضول معرفة الحدّ الّذي يمكن أن يصل إليه. وفي النهاية، وصل إلى حدّ أصبحَ فيه كاملًا وشاملًا، إلى درجة تجمّدتْ معها أفكاري كلّها ، أو بعبارة أخرى، صرتُ قطعة جليد تُفكّر؛ أحسستُ كما لو أنّي كنتُ تمثالًا منقوشًا على صخرة من جليد، وكانت هذه الهلوسة المجنونة بالنسبة إليّ سبب فخر واعتداد بالنفس، لا يمكنني أن أصفه لكَ. وما زاد من متعتي المرضيّة، ثقتي في أنّ لا أحد من الحضور يفهم طبيعة حالتي، ويا لهُ من تفوّق أحسستُ به تجاههم؛ إلى جانب تلك السعادة النابعة من التفكير في أن مرافقي لم يشكّ لحظة واحدة في غرابة الأحاسيس الّتي تملّكتْني. كنتُ أجني ثمار ذاك الشعور بالارتخاء، وكانت لذّتي الاستثنائيّة سرًّا حقيقيًّا.

في ما تبقّى، بمجرّد أن دخلتُ إلى مقصورتي، حتّى أحسستُ بشيء من الظّلام الّذي يغمرُ عينَيّ، والّذي بدا لي أنّ لهُ علاقة ما بفكرة البرد. وربّما أقرضت هاتان الفكرتان بعضهما شيئًا من القوّة. أنتَ تعرف أنّ الحشيش يتطلّبُ دائمًا الكثير من الضوء الرّائع، ومن البهرج البهيّ، وشلّالات الذهب المرقرق. أيّ ضوء سيكون جيّدًا لهُ، ذاك الّذي يسيلُ كما لو كان بساطًا، وذاك الّذي يعلقُ متلألئًا في حوافّ الأشياء، شمعدانات الصالونات، وشموع شهر مريم العذراء، والشفق الورديّ الهائل في الغروب. ويبدو أنّ هذا البريق الخفيف البائس، لا يُلقي بما يكفي من الضوء لإشباع هذا العطش الشّاذّ إلى الوضوح. لقد ظننتُ، كما قلتُ لكَ، أنّي دخلتُ إلى

عالم من الظلال، الّتي كانت بالإضافة إلى ذلك تنحسر شيئًا فشيئًا، بينما كنتُ أحلم بليلة قطبيّة وشتاء أبديّ. وأمّا الرّكحُ (الّذي كان مُعدًّا لعرض كوميديّ)، فكان الشيء الوحيد المضاء جيّدًا، وكان صغيرًا جدًّا وبعيدًا، كما لو كنتُ أنظر إليه من عدسة تيليسكوب ضخم. لن أقول إنّي كنتُ أستمع إلى الممثّلين، فأنتَ تعرف أنّ هذا مستحيل؛ كانت أذناي تلتقطان من وقت إلى آخر شبه جُمل، وكما لو كانت راقصة ماهرة صارت الكلمات الّتي ألتقطها تقفزُ داخل رأسي إلى أحلام بعيدة جدًّا. يمكن أن نفترض ما سينقصُ المسرحيّة من منطقيّة وترابُطٍ حينما تُسمع بهذه الطريقة، فكّر بهذا الأمر مجدّدًا. لقد اكتشفتُ معنى جديدًا للمسرحيّة صنعهُ انتشائي. لم يفاجئني شيء، وكنتُ أشبه بذاك الشاعر الّذي حين شاهد "إستر" لأوّل مرّة، وجد أنّهُ من الطبيعيّ جدًّا أن يعلن "آمان" حبّهُ للملكة. وكانت تلك اللّحظة، مثلما يمكن أن نُخمّن، هي اللحظة الّتي يرتمي فيها هذا الأخير أمام أقدام "إستر" طالبًا أن تغفر لهُ جرائمهُ. وإذا سُمعتَ المسرحيّات كلّها بهذه الطريقة، فستكتسبُ كثيرًا من الجمال، حتّى وإن كانت مسرحيّات راسين نفسه(*).

"بدا لي حجمُ الممثّلين صغيرًا جدًّا، وكانت أطرافهم دقيقة وأنيقة، كما لو كانوا يتحرّكون داخل إحدى لوحات "ميسيونيي"(**). كنتُ أرى بوضوح، لا أدقّ التفاصيل والتعديلات الّتي جرت عليها من خلال التصاميم والخياطة والأزرار وما إلى ذلك فقط، بل وأيضًا الخطّ الرقيق الّذي يفصل

---

*) يتلاعبُ بودلير هنا بأحداث إحدى مسرحيّات الكاتب الفرنسيّ الشهير جان راسين Jean Racine، ساخرًا من غياب عنصر المفاجأة فيها، ومنفتحًا، في الوقت نفسه، على الآثار الناجمة عن الحشيش في تقبّل الأعمال الفنّيّة، وتمثّل الأشياء المحيطة بالمرء عندما يكون منتشيًا. (المترجم).

**) إرنست مسيونيي: رسّام ونحّات فرنسي (١٨١٥ – ١٨٩١)، عُرف بلوحاته التاريخيّة والعسكريّة الّتي من أشهرها لوحة "الحملة الفرنسيّة" التي قام بها نابوليون سنة ١٨١٤. (المترجم).

بين الملابس ومكياج الممثّلين والأبيض والأزرق والأحمر، ووسائل التجميل الأخرى كلها. وكان هؤلاء الأقزام مُغلَّفين بضوء بارد وساحر أشبه بذاك الّذي يضيء لوحة زيتيّة وراء بلّور إحدى المحلّات. عندما تمكّنتُ أخيرًا من الخروج من قبر الظّلال المتجمّدة هذا بعد أن انقشعت الأوهام كلّها الّتي في داخلي، عدتُ إلى صوابي، وأحسستُ بإرهاق كبير، لا يمكن حتّى لعمل قسريّ ومُرهِق أن يُسبّبه."

في هذه المرحلة من الانتشاء بالضبط، تظهرُ حساسيّة جديدة، ودقّة متفوّقة على المستويات جميعها. ويُساهمُ الشَّمُّ والبصرُ والسَّمْعُ واللَّمْسُ في تدعيم هذه الحساسيّة. ترنو العيون إلى اللانهاية. وتستقبل الأذن أصواتًا مضطربة وصعبة التحديد قادمة من بعيد. وهنا يبدأ الهذيان. تأخذُ الأشياء المحيطة بكَ، ببطء وواحدة تلوَ الأخرى، أشكالًا فريدة، تتشوّهُ، ثمّ تتحوّلُ. ثمّ يكون الغموض، وسوء الفهم، وتحوّل الأفكار. تأخذُ الأصواتُ ألوانًا مختلفة، وتحبلُ الألوان بالموسيقى. ولقائل أن يقول، ليس هذا كلّه سوى الطبيعيّ مكثّفًا إلى أعلى درجة، ويمكن لكلّ ذهن شاعريّ، في وضعه السليم والعاديّ أن يصل إلى هذه المقاربات. لكنّني نبّهتُ القارئ منذ البداية إلى عدم وجود أيّ شيء فوق – طبيعيّ في نشوة الحشيش، فقط تأخذ هذه المقاربات حيويّة غير معتادة، وتخترق العقل متملّكة إيّاه ومُكبِّلة له بطابعها السلطويّ. تتحوّل النوتات الموسيقيّة إلى أرقام، وإذا كان ذهنكَ يمتلك موهبة القيام ببعض العمليّات الرياضيّة، سيتحوّل اللّحن والموسيقى المسموعة، مع حفاظها على طابعها الحسّيّ اللّذيذ، إلى معادلة رياضيّة كبيرة، حيثُ الأرقامُ تلدُ الأرقام، وحيثُ تتابعُ أنتَ الطّبقات والنوتات الموسيقيّة بسهولة، لا يمكن تفسيرها، وخفّة مساوية لتلك الّتي يمتازُ بها المؤدّون.

يحدث أحيانًا أن تمّحي شخصيّتكَ لصالح الموضوعيّة الّتي تمثّل أساس كل عمل أدبيّ، بالنسبة إلى شعراء الطبيعة، والّتي تكبر بشكل غير طبيعيّ إلى أن ينسيكَ تأمّلكَ الأشياء من حولكَ، وجودكَ الخاصّ، وتتداخل الأشياء في ذهنكَ. ستُثبِّتُ نظرتكَ على شجرة، تتلاعب الرّيحُ بأوراقها، وفي ثوانٍ قليلة، يصبحُ ما يمكن أن يكون تشبيهًا بليغًا في ذهن شاعر، حقيقة بالنسبة إليكَ. ستضع في الشجرة أهواءكَ ورغبتكَ وحزنكَ، وستصبح تنهّداتها وتهادي أوراقها في داخلكَ، وبعدَ قليل، ستُصبحُ أنتَ الشجرة. الأمر نفسُه سيحدثُ مع ذاك الطّائر الّذي يمثّل بتحليقه في السّماء رغبتكَ اللانهائيّة في الارتفاع عن الأشياء البشريّة، دون أن تنتبه إلى أنّكَ صرتَ الطائر نفسهُ. أفترضُ أنّكَ جالسٌ الآن، وتدخّن متأمّلاً الغيوم الزرقاء الخارجة من غليونكَ. تتملّكُ فكرةُ التّبخّر البطيئة والأزليّة، ذهنكَ. تطبّقُ هذه الفكرة على الأفكار الّتي تُراودكَ، وعلى الأشياء الّتي تفكّر بها. وبطريقة غامضة وفريدة، أو بعمليّة تحوير أدبيّ ذكيّ، ستشعرُ أنّكَ تتبخّرُ أنتَ أيضًا، وستطلبُ من غليونكَ (الّذي ستشعرُ أنّكَ مُفتّتٌ في داخله مثل التبغ) أن يُدخّنكَ.

من حُسن الحظّ، أنّ هذا الخيال الّذي لا ينتهي، لم يدمْ سوى دقيقة واحدة، تعرفُ ذلكَ، لأن مساحة من الوضوح سمحت لكَ، بعد عناء كبير، بتفحّص عقارب السّاعة. لكن تيّارًا آخر من الأفكار يأخذكَ؛ ويلفّكَ دقيقة أخرى داخل عاصفته الحيّة؛ وستستحيل هذه الدّقيقة أبديّة بأكملها. لأنّ التفاصيل المتعلّقة بالزمن والكينونة ترتبكُ أمام كثرة وكثافة الأحاسيس والأفكار. كما لو كنتَ تعيش أكثر من حياة في غضون ساعة واحدة. ألستَ، إذنْ، أشبهَ برواية عجيبة، تتحقّقُ في الحياة عوض أن تُكتَبَ؟ لن يبقى أيّ تناسب بين احتدام اللّذّة وممكنات الجسد، ولهذا السّبب بالذّات يوجّهُ كثير من اللّوم إلى هذه الممارسة الخطرة، حيثُ تنتفي كلّ حُرّيّة.

عندما أتحدّث عن الهذيان، لا يجب أن تُؤخَذ هذه الكلمة على معناها الدّقيق. ثمّة فرقٌ مهمّ بين الهذيان الخالص، كما درسهُ الأطبّاء أكثر من مرّة، والهذيان أو بارتباك الحواسّ المتعلّق بالحالة الذهنيّة الخاضعة إلى تأثير الحشيش. ففي الحالة الأولى، يكون الهذيانُ مفاجئًا وكاملًا وقاتلًا، ثمّ إنّهُ لا يبحثُ عن أيّ ذريعة أو أعذار في الأشياء المحيطة بالمريض. وفي الحلّة الثانية، يكون الهذيان متصاعدًا، وشبه إراديّ، ولا يصبحُ مثاليًّا، بل ولا ينضج إلّا عندما يعملُ الخيال. وفي النهاية، تكون لديه ذريعة ما. تتكلّمُ الأصوات، وتقول أشياء محدّدة، ولكنْ، في الأحوال كلها ثمّة أصوات موجود سلفًا. ترى عينُ الرّجل المنتشية بالحشيش أشكالًا غريبة، ولكنْ، قبل أن تكون غريبة أو مرعبة كانت هذه الأشكال بسيطة وطبيعيّة. إنّ الطّاقة والحيويّة الناطقة المرتبطة بالهذيان المترتّب عن نشوة الحشيش تحجبُ الفرق بين أصلَيْ الحالتَيْن. فللثانية جذورها الآن وهنا، بينما تفتقرُ الأولى إلى ذلك.

كي نفهم أكثر هذه الحيويّة الّتي يكون عليها الخيال، وهذا النّضج الذي تكون عليه الأحلام، وهذه الولادة الشعرية المدينة لعقل مخمور بالحشيش، سأروي حكاية أخرى. وهذه المرة، ليس مَنْ يتحدّثُ شابًّا كسولًا، ولا أديبًا؛ بل امرأة ناضجة بعض الشيء، وفضوليّة، وذات تفكير مثير للانتباه، رغبت في التّعرّف إلى السّمّ، وحدّثت امرأة أخرى بأحد أهمّ رؤاها الّتي أنقلها إليكم حرفيًّا:

"كم هي غريبة وجديدة هذه الأحاسيس الّتي خرجتُ بها من اثنَي عشر ساعة من الجنون (اثنا عشر أم عشرون؟ في الحقيقة، لا أعرف.) لن أرجع إلى ذلك ثانية. كانت الإثارة الروحيّة الّتي شعرتُ بها قويّة جدًّا، وكان التعبُ الناتج عنها كبيرًا أيضًا، وكي أقول كلّ شيء، وجدتُ في هذه الصبيانيّة شيئًا من الإجرام. لقد رضختُ في النهاية إلى الفضول، ثمّ إنّه

كان جنونًا مشتركًا مع أصدقاء قدامى، لم أر أيّ مانع في التقليص من بعض الاحترام الّذي كان بيننا. وقبل كلّ شيء، يجب أن أقول لكِ إنّ هذا الحشيش الملعون مادّة غادرة حقًّا؛ نعتقد أحيانًا أنّنا تخلّصنا من ثمالته، ولكنّه ليس سوى كاذب هادئ. ثمّة لحظات استراحة، ثمّ يبدأ كلّ شيء من جديد. وهكذا، وجدتُ نفسي في إحدى اللحظات الوقتيّة؛ وظننتُ أنّني تخلّصتُ من هذا الخضوع الّذي سببّ لي كثيرًا من النشوة، هذا صحيح، ولكنّها لم تكن نشوة خالية من القلق ومن الخوف. جلستُ على طاولة العشاء، كما لو كنتُ مُنهكَة من رحلة طويلة. فإلى ذلك الحين، كنتُ قد امتنعتُ بحكمة عن الأكل. ولكنْ، قبل حتّى أن أنهض من الطّاولة، طاردني الهذيان، كما لو كان قطًّا يطارد فأرًا، وأخذَ السّمّ يلعب مجدّدًا برأسي المسكين. ورغمّ أنّ بيتي لم يكن يبعد كثيرًا عن قصر أصدقائي، وأنّهُم وضعوا سيّارة على ذمّتي، أحسستُ أنيّ مكبّلة بالحاجة إلى الحُلم، وبتسليم نفسي إلى هذا الجنون الّذي لا يُقاوم، إلى درجة، قبلت معها بفرح اقتراحهم بأن أبقى عندهم إلى اليوم الموالي. أنتِ تعرفين القصر، وتعرفين أنّه قد تمّت تهيئة الجزء الّذي يسكن به المالكون الجدد على الطّريقة العصريّة، وأنّ الجزء الّذي لا يستعملونه بقي على حاله بذاك الأسلوب القديم والزخارف العتيقة. ومصادفة، اختار لي الأصدقاء أصغر غرفة في هذا الجزء من القصر؛ مقصورة قديمة بعض الشيء، وغير مرتّبة، لكنّها لم تكن أقلّ بهاءً من بقيّة الغرف. يجب أن أصفها لكِ بأفضل طريقة ممكنة، كي تفهمي هذه الرؤيا الفريدة الّتي كنتُ ضحيّتها، هذه الرؤيا الّتي شغلتْني ليلة كاملة دون أن أكون قادرة على الانتباه إلى تلك الساعات المنفلتة كلّها.

" كان الخدرُ صغيرًا جدًّا، وضيّقًا جدًّا. وفي الأعلى، يتكوّرُ السقفُ في

شكل قبّة؛ بينما الجدران مُغطّاةٌ بمرايا صغيرة ممتدّة، تفصل بينها لوحات قديمة لمشاهد رُسمتْ بأسلوب فضّ. وفي عُلُوّ السقف، على الجدران الأربعة، رُسمت شخصيّات أسطوريّة مختلفة، كان بعضها ساكنًا، وبعضها الآخر متحرّكًا أو مرفرفًا فوق الجدار. وفوقها بالضبط تلوح بعض الأزهار والطيور المشرقة. وخلف هذه الصور، نافذة متشابكة، رُسمَت بطريقة مخادعة، ثمّ نجد، بطبيعة الحال، زاوية السقف.

كان السقفُ مُذهَّبًا. وكانت الزخرفات كلّها الّتي تربطُ بين الأعمدة والصّور مُذهَّبة أيضًا، وفي الوسط لا ينتهي الذّهبُ إلاّ في مستوى الأشكال الهندسيّة الّتي تُسندُ النافذة. أنتِ ترين أنّ هذا أشبه بقفص مميّز جدًّا، بقفص رائع مخصّص لطائر كبير جدًّا. وجيبٌ عليّ أن أضيف أن الليل كان جميلاً جدًّا وشفّافًا جدًّا، وكان القمر مضيئًا جدًّا، إلى تلك الدّرجة الّتي، حتّى عندما أطفأتُ الشمعة، بقيت معها تلك الزخارف واضحة كلّها، لا لأنّها مضاءة بعيني الروحيّة كما يمكن أن تعتقدي، بل مضاءة بهذه الليلة الجميلة الّتي كان بهاؤها عالقًا بذاك الذّهب المطرّز كلّه، وتلك المرايا كلها، وتلك الألوان المتداخلة كلها.

"كنتُ في البداية منبهرة لرؤية مساحات واسعة تنفتح أمامي، وإلى جانبي، وفي الاتّجاهات كلّها؛ لقد كانت أنهارًا صغيرة ومناظر طبيعيّة رائعة تنعكسُ على مياه هادئة. ويمُكنُكِ هنا أن تُخمِّني التأثير الّذي تُحدثه اللوحات المنعكسة في المرايا على المشهد. عندما رفعتُ ناظريّ إلى الأعلى، رأيتُ شمسًا تغربُ، كما لو كانت قطعة معدن ملتهب في مياه باردة. كان السقفُ المذهَّب يسحرني؛ لكنّ النّافذة المتشابكة دفعتْني إلى التفكير في أنّني كنتُ داخل شيء أشبه بالقفص، أو داخل بيت

مفتوح من الجهات كلها، وأنّهُ لم يكن يفصلني عن تلك العجائب كلّها إلاّ القضبان المتشابكة لهذا السجن الرّائع. ضحكتُ في بداية الأمر من أوهامي؛ لكنّني كلّما تأمّلتُ أكثر، ازداد السِّحْر، وصار أكثر حيويّة وأكثر شفافيّة حتّى استحال أمرًا واقعًا. ومنذ تلك اللحظة، هيمن على ذهني فكرة السّجن هذه، ولكنْ، يجب أن أقول هذا، دون أن تتسبّب لي بكثير من الأذى، ودون أن تحرمني من لذّة الاستمتاع بالمشاهد الممتدّة حولي وفوقي. وعَدَدْتُ أنّي مسجونة لوقت طويل، لآلاف السنين ربمّا، في هذا القفص الباذخ، وسط هذه المناظر الطبيعيّة الساحرة، وداخل هذه الآفاق الرائعة. حلمتُ بالجميلة النائمة تطلب المغفرة، وتُكفِّرُ عن ذنبها. وفوق رأسي، رفرفت طيور مداريّة بهيّة، وعندما وصل إلى أذني صوت تلكَ الأجراس الّتي تُعلَّق في الرّقاب، عبرت الطريق الكبير خيول جامحة، وتداخل عليّ الأمران، لينصهرا في فكرة واحدة؛ أسندتُ إلى الطّيور ذاك الغناء النحاسيّ الغامض، واعتقدتُ أنها كانت تُزقزق بأجراس حديديّة. وكان مؤكّدًا بالنسبة إليّ أنّها كانت تتحدّث عنّي، وتحتفل بسجني. نطّت بالقرب منّي مجموعة من القردة مُرسلة سخريتها الّتي بدت مُشاكسة لهذه السجينة المحكوم عليها باللاحركة. لكنّ آلهة المثيولوجيا القديمة كلّها، كانت تنظر إليّ بابتسامة ساحرة، كما لو كانت تُشجّعني على تحمُّل هذه المحنة بصبر، واشرأبّت العيون كلّها، كما لو كانت تريد التّعلّق بنظرتي. وانتهيتُ إلى أنّي في حال كانت لديّ بعض الأخطاء القديمة، أو الذنوب الّتي أجهلها، وتطلّب الأمر هذا العقاب الوقتي، فإنّي أستطيع التعويل على هذه القوّة الخيّرة المفارقة الّتي، وهي تسجنني، كي أكون حذرًا في المستقبل، تهبني ملذّات أكبر بكثير من تلك الملذّات الكاذبة الّتي تملؤ مرحلة شبابنا. أنتِ ترينَ أنّ الاعتبارات الأخلاقيّة لم تكن غائبة عن حُلمي؛

لكنْ، عليّ أن أعترف أنّ بهجة تأمّل هذه الأشكال وهذه الألوان المشرقة، واعتقادي أنّي مركز هذه الدراما العجيبة، قد بدّدا أفكاري الأخرى كلّها. وبقيتُ على تلك الحال وقتًا طويلًا، وقتًا طويلًا جدًّا ... هل دام ذلك حتّى الصباح؟ لا أعرف. رأيتُ فجأة شمسَ الصباح تُشرق في غرفتي؛ شعرتُ بحَيْرة حقيقيّة، ورغم الجهود كلّها الّتي أمكنني القيام بها للتّذكّر، كان من المستحيل معرفة ما إذا كنتُ قد نمتُ أم أنّني عانيتُ بصبر من أرقٍ لذيذ. منذ قليل، كان اللّيل، والآن صباحٌ! مع أنّي عشتُ طويلًا، أوه! طويلًا جدًّا! ... امّحت فكرة الزمن أو بالأحرى فكرة قياس الزمن، ولم تكن اللّيلة بأكملها قابلة لأن تُقاس بالنسبة إليّ إلاّ بكثافة الأفكار الّتي راودتْني. وكم كانت طويلة من زاوية النظر هذه، وبدا لي، في الوقت نفسه، أنّها لم تدمْ سوى ثوانٍ معدودات، أو أنّها لم تحظَ أصلًا بمكان في الأبديّة.

"لن أحدّثكِ عن التعب الّذي شعرتُ به ... لقد كان هائلًا. يقولون إنّ حساسيّة الشعراء والمبدعين تُشبه ما أحسستُ به، رغم أنّي أتخيّلُ دائمًا أنّ النّاس الّذين وُجدوا لإدهاشنا موهوبون بمزاج هادئ جدًّا، لكنْ، إذا كان الهذيان الشِّعْريّ يُشبهُ ما فعلتْهُ بي تلك الملعقة الصغيرة من المعجون، أظنّ أنّ اللّذّة الجماليّة الّتي يشعر بها الجمهور تتكلّفُ غاليًا على الشعراء، وليس دون نوع من الرّاحة، وشيء من القناعة السخيفة، أن أشعر أخيرًا أنّي عدتُ إلى ذاتي، وإلى كياني المفكّر، أقصد إلى الحياة الواقعيّة."

هذه امرأة عقلانيّة، بكلّ تأكيد، لكنّنا لن نعتمد على حكايتها إلا لنستخرجَ بعض الملاحظات المفيدة الّتي يمكن أن نُكمل من خلالها هذا الوصف التأليفيّ المتعلّق بالأحاسيس الأساسيّة النّاجمة عن الحشيش.

لقد تحدّثتْ عن العشاء بِعَدِّه سعادة جاءت في الوقت المناسب،

في لحظةٍ تمكّنتْ فيها من خلال تحسُّنٍ يبدو نهائيًّا، ولكنّهُ وقتيّ، من العودة إلى الحياة الواقعيّة. وفعلًا، ثمّة، كما قلتُ سلفًا، لحظات استراحة وهدوء خادع، وغالبًا ما يؤدّي الحشيش إلى جوع وحشيّ وعطش متزايد طول الوقت. ووحدهُ العشاء أو الغداء، بدلًا من أن يؤدّي إلى راحة نهائيّة، يخلقُ تأثيرًا مضاعفًا وجديدًا مثل هذه النوبة المذهلة الّتي اشتكت منها هذه السّيّدة، والّتي تبعتها سلسلة من الرّؤى السّاحرة المشوبة بقليل من الخوف، والّتي استسلمت إليها بإيجابيّة ورحابة صدر. ولا يمكنُ للجوع والعطش المستبدَّيْن أن ينتهيا دون شيء من المجهود، ذلك أنّ المرء يشعرُ أنّهُ فوق الأشياء الماديّة، أو يكون بالأحرى مُكبّلًا بانتشائه، إلى درجة يحتاج فيها إلى الكثير من الشجاعة، كي يمدّ يدهُ، ويأخذ زجاجة أو شوكة.

إنّ النوبة النهائيّة الملازمة لعمليّة هضم الطعام، عنيفة جدًّا: من المستحيل مقاومتها، ولا يمكن لوضع مشابه أن يستمرّ طويلًا، إذا لم يتح المجال إلى مرحلة أخرى من النشوة، تحوّلتَ، في الحالة السابقة، إلى رؤى رائعة يتخلّلها شيء من الرّعب، وفيها في الوقت نفسه من المواساة الشيء الكثير. هذه الحالة الجديدة هي ما يُسمّيه الشرقيّون "الكِيْف"(*)، وهنا تنتهي العواصف كلها والصخب كله الّذي في رأسكَ؛ إنّها نعيم هادئ ومحكوم باللاحركة، استسلامٌ مجيدٌ. لم تعُد سيّدًا على نفسكَ منذ وقت طويل، لكنّ ذلك لم يعد يزعجكَ. اختفى الألم، واختفت فكرة الزمن، وحتّى إذا تجرّأ على الرّجوع، فليس ذلك سوى تجلٍّ من تجلّيات النشوة التي تسيطر عليكَ؛ إنّهُما، إذنْ، بالنظر إلى شكلهما المعتاد، ما يمثّله الحزنُ الشاعريّ لأيّ ألم حيّ.

---

*) يوردُ بودلير هذه العبارة المستعارة من الثقافة الشرقيّة والعربيّة كما هي محافظًا على ترجمتها الحرفيّة بـ: Le Kief. (المترجم).

لكنْ، قبل كلّ شيء، لاحظوا في قصّة هذه المرأة (وبهذا الهدف نقلتُها إليكم)، أنّ الهذيان كان ذا طابع لقيط، واستمدّ مشروعيّة وجوده من المشهد الخارجيّ؛ ليسَ العقل سوى مرآة تنعكسُ عليها البيئة المحيطة متحوّلة بشكل مبالغ فيه. ثمّ نلاحظ قدومَ ما أُسمّيه "هذيانًا أخلاقيًّا": يعتقدُ الموضوع أنّهُ قام بخطيئة ما، ولكنّ مزاجهُ الأنثويّ، الّذي من الصّعب تحليله، لم يسمح له بالانتباه إلى الطابع الفريد والمتفائل لهذا الهذيان. فقد كانت النظرة المتفائلة المتّجهة إلى آلهة الأولمب مزيّنة شعريًّا بلون، أضفاه عليها الحشيش أساسًا. لن أقول إنّ هذه المرأة كانت تشعرُ بالندم؛ لكنّ أفكارها المتحوّلة من حين إلى آخر، إلى حزن وأسف، تلوّنت سريعا بالأمل. وستكون لدينا أكثر من فرصة للتّحقّق من هذه الملاحظة.

لقد تحدّثت أيضًا عن التعب في اليوم الموالي؛ وفعلًا، يكون هذا التعبُ كبيرًا، لكنّهُ لا يتّضحُ مباشرة، وعندما ستجدُ نفسكَ مُجبرًا على الإحساس به، لن يخلو ذلك من الدهشة. ذلك أنّكَ في البداية، عندما تكون في حاجة إلى تمثُّل يوم جديد، يُشرقُ في أفق حياتكَ، ستشعرُ بعافية عجيبة؛ وستعتقدُ أنّكَ تنعمُ بخفّة روح رائعة. ولكنْ، بمجرّد أن تحاول الوقوف على قَدَمَيْكَ، حتّى تطاردَكَ ثُمالة متبقّية، وتسحبكَ إلى الوراء، مثلما فعل بكَ الحشيش في الليلة السابقة. لا تقودكَ ساقاك الضّعيفتان إلا بخجل، وتخشى في كلّ لحظة أن تنكسر، كما لو كنتَ شيئًا هشًّا. يتملّكُ كسلٌ كبير (يدّعي بعضهم أنّهُ لا يفتقر أيضًا إلى السِّحْر) روحَكَ، ويتسلّلُ إلى حواسّكَ كما يتسلّلُ الضباب إلى مشهد طبيعيّ. وها أنتَ، لبضع ساعات أخرى، غير قادر على العمل أو الحركة أو استمداد الطّاقة. هذا هو العقاب المترتّب عن إسرافكَ في استنزاف جهازكَ العصبيّ. لقدّ وزّعتَ نفسكَ على رياح السماء الأربعة، وأيُّ ألم تشعرُ به الآن كي تجمعها وتكثّفها مجدّدًا!

# IV
# الإنسان الإله

لقد حان الوقتُ لنترك جانبًا هذه الهرطقات كلّها، وهذه الدُّمى الضخمة كلها المولودة في رحم الدّخان المتصاعد من العقول الطفوليّة. أليس علينا أن نتحدّث عن أمور أكثر خطورة: عن التّغيّرات الطارئة على المشاعر الإنسانيّة، وفي كلمة واحدة، عن أخلاق الحشيش؟

لم أقمْ إلى حدّ الآن إلّا بدراسة مختصرة للنشوة، وقد اقتصرتُ فيها على بيان سماتها الرئيسة، وخاصّة المادّيّة منها. لكنّ ما هو أكثر أهمّيّة بالنسبة إلى الإنسان الروحانيّ، هو معرفة العمل الّذي يقوم به السُّمُّ في الجانب الروحيّ من الإنسان، أيْ، التّضخّم والتّغيّر والمبالغة الّتي تطرأ على مشاعره المعتادة وتصوّراته الأخلاقيّة الّتي يمكن أن تمثّل في جوّ استثنائيّ ظاهرة انكسار حقيقيّ.

لقد استطاع الرّجلُ الّذي سلّم نفسهُ طويلًا إلى الأفيون أو الحشيش أن يجدَ، وهو مُنهَكٌ كما كانَ في أثناء خضوعه المعتاد، الطّاقة اللازمة لتجاوز ذلك. إنّهُ يبدو لي مثل سجين هارب. وإنّي أكنّ له من الإعجاب أكثر ممّا أكنّه لذاك العقلانيّ الّذي لم يفشل مرّة واحدة في حياته، بحذره الدّائم الّذي مكّنهُ من تجنّب الإغواء. يستعمل الإنجليزيّون بشكل متكرّر ألفاظًا كثيرة عن مستهلكي الأفيون، وهي مصطلحات، لا يمكن أن تبدو عاديّة

إلّا لأولئك الأبرياء الّذي لا يعرفون دُنُوّها المرعب: مقيّدون بالسلاسل، مُكبّلون، مستعبدون! وماذا عن القيود الّتي تُكبّل الآخرين؟ قيود الواجب، وقيود الحُب المُحرّم، ليست سوى شالات حريريّة ونسائج عنكبوتيّة، يتزيّنون بها! أيُّ زواج يقوم به الإنسان مع نفسه! "لقد أصبحتُ عبدًا للأفيون، لقد جرّني إلى عوالمه، والأعمال لها الّتي أقوم بها والمشاريع الّتي أفكّر فيها صارت متداخلة مع أحلامي وملوّنة بها" يقول زوج ليجيا؛ لكنْ، في كم من مقطع رائع لإدغار آلان بو، لا يصفُ هذا الشاعر الفذّ والفيلسوف القدير الّذي يجب أن يُذكَر في كلّ حديث عن الأمراض الملغزة المتعلّقة بالروح، الآثار المظلمة العظيمة والمُكبّلة المتعلّقة بالأفيون؟ يتحدّث عشيق بيرنيس الجميلة، "إيجوس" المهتمّ بدراسة الميتافيزيقا، عن التّغيّر الحاصل في قدراته العقليّة، ما دفعه إلى إعطاء قيمة غريبة وغير عاديّة للظواهر الأكثر بساطة: "أن أفكّر ساعات طويلة بلا كلل، أن ينصبّ اهتمامي كلّه على مقطع تافه في هامش أو متن كتاب ما، أن أقضي الجزء الأكبر من يوم صيفيّ داخل ظلّ غريب متمدّدًا على سجّاد أو على الأرض، أن أنسى نفسي ليلة كاملة وأنا أراقب ضوء المصباح أو حطب الموقد، أن أحلم أيّامًا بأكملها برائحة وردة، أن أكرّر بطريقة رتيبة كلمة نابية إلى أن يكفّ الصوت الّذي تُكوِّنه حروفها لكثرة ما تكرّر عن تمثيل أيّ فكرة؛ هكذا كانت بعض اضطرابات مداركي العقليّة الّتي لم أذكر منها سوى تلك الأكثر شيوعًا والأقلّ ضررًا، اضطرابات لا تخلو من الأمثلة بكلّ تأكيد، ولكنّها تتحدّى كلّ تفسير وتحليل". و يعترفُ لنا ذاك العصبيّ أوغست بيدلو الّذي كان يتناول جرعتهُ من الأفيون كلّ صباح قبل خروجه إلى التّجوّل، أنّ الفائدة الرئيسة الّتي يستخرجها من هذا التّسمّم هي أن يُصبحَ للأشياء كلها وحتّى أكثرها تفاهة، أهمّيّة مبالغة: "مع ذلك، قام الأفيون بتأثيره المعتاد المتمثّل

في إعطاء أشياء العالم الخارجيّ أهمّيّة كبيرة وكثافة عالية. في ارتجاف ورقة، في لون بتلة من العشب، في شكل برسيم ما، في طنين نحلة، في وهج قطرة من الندى، في زفرة ريح، في الرّوائح الرحبة الخارجة من الغابة، في هذا كلّه، يتشكّل عالم كامل من الإلهام، وتنتظمُ الأفكار غير المرتّبة والعفوية بشكل حيويّ ورائع." هذَا ما يقولُه سيّد الرّعب وأمير الغموض على لسان إحدى شخصيّاته. تنطبق هاتان الميرتان المتعلّقتان بالأفيون على الحشيش أشدّ الانطباق؛ ففي هذا وذاك، يُصبحُ الذّكاءُ الّذي كان حُرًّا منذ قليل، عبدًا؛ لكنّ كلمة "عفويّ" الّتي يمكنها أن تعرّف جيّدًا قطارًا من الأفكار المقترَحة والمحكومة بالعالم الخارجيّ، وباعتباطيّة أشيائه، هي حقيقة أكثر واقعيّة وأكثر فظاعة عندما يتعلّق الأمر بالحشيش. هنا، ليست العقلانيّة سوى حطام، تجرفه التّيّارات كلها، وهُنا تتصاعدُ سرعة قطار الأفكار إلى ما لا نهاية لهُ، وتُصبحُ أكثر عفويّة. أعتقد أنّني قلتُ بما يكفي من الوضوح، إنّ الحشيش، بتأثيراته الحاليّة، أكثر حدّة من الأفيون، وأكثر عداوة للحياة العاديّة، وفي كلمة واحدة، أكثر إثارة للقلق. لا أعرف ما إذا كانت عشر سنوات من إدمان الحشيش تؤدّي إلى كوارث مساوية لما يمكن أن يؤدّي إليه الأفيون؛ لكنّني أقول اليومَ وغدًا إنّ للحشيش نتائج أكثر خطورة؛ فالأوّلُ مُغوٍ مسالم، والآخرُ شيطانٌ رجيم.

أريد في هذا الجزء الأخير، أن أحدّد وأعرّف الدّمار النفسيّ المترتّب عن هذه التجربة اللذيذة والخطيرة، دمار كبير وخطر عميق، إلى درجة، يبدو لي فيها أولئك الّذين يعودون من المعركة بأضرار طفيفة، كما لو كانوا شجعانًا هاربين من كهف وحش متحوّل، أو أبطالًا أسطوريّينْ ناجين من الجحيم. وإذا أمكن أن نستعمل هذا الشكل من اللغة قصد القيام باستعارة مبالغ بها، سأعترفُ أنّ هذه السموم المثيرة ليست فقط واحدة من أكثر الوسائل

الّتي تمتلكها روحُ الظّلام رعبًا وجدّيّة، لتتملّك وتستعبد الإنسانيّة البائسة، بل هي واحدة من تجسّداتها الأكثر مثاليّة أيضًا.

سأحاول هذه المرّة، كي أقتصر مهمّتي، وأجعل من تحليلي أكثر وضوحًا، عوض أن أقدّم مجموعة من الحكايات المتناثرة، أن أراكم شيئًا من التركيز المكثّف على شخصيّة قصصيّة واحدة. أنا في حاجة إذنْ إلى الاعتماد على رُوحٍ من اختياري. يؤكّدُ دي كوينسي(*)، وهو محقّ، في كتاب "الاعترافات" أنّ الأفيون عوض أن يُنوّم المرء يُثيرهُ، لكنْ، بما أنّهُ لا يُثيرهُ إلا داخل مساره الطبيعيّ، سيكون من العبثيّ بهذه الطريقة أن نُقيّم الآثار العجيبة المترتّبة عن الأفيون من خلال تجربة تاجر أغنام، لأنّ هذا الأخير لن يحلم إلا بالمراعي والأغنام. وفي الوقت نفسه، لا يمكنني أن أصف الأحلام الثقيلة الّتي تراود مُربِّيًا منتشيًا بالحشيش؛ من سيستمتع بقراءتها؟ ومَنْ سيُركّزُ في قراءتها؟ يجب عليّ، للوصول بموضوعي إلى أكثر ما يمكن من المثاليّة، أن أُركّز أيّ شعاعٍ متعلّق به داخل دائرة واحدة، وأن أُكثّف هذه الشعاعات كلّها في نقطة واحدة؛ وستكون الدائرة المأسويّة الّتي سأجمّعها داخلها، كما قلتُ، روحًا من اختياري، شيئًا يُشبه ما يُسمّيه القرن الثامن عشر "الإنسان ذا الحساسيّة العالية"، أو ما تُسمّيه المدرسة الرومنسيّة "الإنسان الّذي لم يُفهَم"، أو مَا تُخرجُه العائلات والطبقة البرجوازيّة عمومًا من دائرة الأصالة.

إنّ مزاجًا نصفَ عصبيّ، نصفَ انفعاليّ، هو المزاجُ الأمثل لتطوّر نشوة مماثلة؛ ولنُضفْ عقلًا مثقّفًا متمرّسًا في دراسة الأشكال والألوان؛ وقلبًا حنونًا، متعبًا من البؤس، ومستعدًّا في الوقت نفسه للتّجدّد؛ ويمكن أن

---

* ) توماس دي كوينسي Thomas de Quincey (١٧٨٥-١٨٥٩): روائي وناقد إنجليزي، اشتهر بجموح خياله وعمق تحليلاته في الأدب وعلم النفس. (المترجم).

نضيف زيادة على ذلك، إذا أردتُم، تمثّلاً لأخطاء قديمة، الأمر الّذي يجب أن يؤدّي إلى طبيعة قابلة للتّأثّر بسهولة؛ وإلاّ على الأقلّ، ندمًا إيجابيًّا مرتبطًا بالماضي، وباستغلاله السَّيِّئ. إنّ طعم الميتافيزيقا أو الاطّلاع على الافتراضات الفلسفيّة المختلفة المتعلّقة بمصير الإنسان لن يكونا بكلّ تأكيد مُكمِّلات بلا فائدة؛ مثلهما مثل ذاك الحبّ للفضيلة، الفضيلة المجرّدة، الرواقيّة أو الصوفيّة، المبثوثة في الكُتُب كلّها الّتي تقتاتُ منها الطفولة الحديثة، بِعَدِّها القمّة الأعلى الّتي يمكن أن تصعدَ إليها روحٌ ما. وإذا أضفنا إلى هذا كلّه حساسيّة كبيرة، أقترحها بِعَدِّها شرطًا نافلاً، أعتقد أنّي جمّعتُ العناصر الأساسيّة والأكثر شيوعًا للإنسان الحديث ذي الحساسيّة العالية، أو لما يمكن أن نُسمّيهُ الشكل البسيط للأصالة. ولنرَ الآن ما ستصبحُ عليه هذه الفرديّة المدفوعة إلى أقصاها عن طريق الحشيش، ولنتابع المسار المتطوّر الّذي سيتّبعه الخيال الإنساني إلى مطافه الأخير والأروع، إلى اعتقاد الفرد في ألوهته الخاصّة.

إذا كانت روحُكَ واحدة من هذه الأرواح، سيجدُ حبّكَ الفطريّ للأشكال والألوان في البداية غذاءً هائلاً في المراحل الأولى من تطوّر نشوتكَ. ستُشحنُ الألوانُ بطاقة غير عاديّة، وتقتحمُ رأسكَ بكثافتها الرّهيبة. ومهما كانت الرّسومات الّتي على السقف شفّافة أو سخيفة أو حتّى سيّئة، ستعكسُ لكَ حياة مروّعة، وسيستحيلُ الورقُ الملوّن الّذي يغطّي جدران المنازل صورًا رائعة. تراقبُكَ الحوريّات بإطلالتها المشرقة وعيونها الكبيرة الأكثر عمقًا والأكثر نقاءً من السّماء والماء. وبمجرّد أن تنظر إليكَ شخصيّات العصور القديمة، بملابسها الكهنوتيّة أو العسكريّة، ستتبادلُ معكَ أسرارًا رهيبة. انحناءات الخطوط لغة واضحةٌ يمكنكَ أن تقرأ من خلالها اهتياج الأرواحِ ورغباتها، لتتواصل هذه الحالة الغريبة والوقتيّة الّتي تكون عليها

الرّوح، حيثُ ينكشفُ عمق الحياة، المشوب بمشاكله العديدة، كاملًا في المشهد طبيعيًّا وواضحًا إلى درجة نراهُ فيها بأعيننا – ويستحيل أوّلُ شيء نراهُ رمزًا متكلّمًا. لقد اهتمّ فورييه(*) وسويدنبورغ(**)، واحدٌ من خلال المقارنة، والآخر عن طريق التواصل الروحيّ، بالنباتات والحيوانات الّتي يمكن أن تعترض الإنسان، وعوض أن يدرّسًا ذلكَ بصوتَيْهما، قاما بالتركيز على الأشكال والألوان. يُهيمنُ عليكَ سِحْرُ الأليغوريَا إلى درجة تجهلها أنتَ نفسكَ؛ ونلاحظ لِمامًا أنّ الأليغوريا، هذا الجنس الروحانيّ الّذي اعتاد الرّسّامون الخُرق احتقارهُ، في حين أنّهُ أحد الأشكال الأوّليّة والأكثر طبيعيّة للشّعر، يسترجع هيمنتهُ الشرعيّة على الذّهن الّذي تضيئهُ النشوة. ينتشرُ الحشيشُ إذنْ على كامل الحياة، كما لو كان دهنًا سِحْرِيًّا، يلوّنُها ببهاءٍ، ويضيء عمقها كلّهُ. مشاهد مقطّعة، وآفاق هاربة منكَ، مشارفُ مُدُن مبيَضّة من الفظاعة المأتميّة الّتي تكون عليها العواصف أو مُضاءة باللّهيب المُحتدمِ للشموس الّتي تغربُ، عمقُ الفضاء، أو أليغوريا عمق الزّمن – الرقصُ، الإيماءات أو الخطابات الّتي يقوم بها الممثّلون، إذا رميتَ بنفسكَ داخل مسرحٍ، – الجملة الأولى الّتي تقرؤها إذا كانت عيناك مُثبّتتان على كتاب، - كلّ شيء في النهاية، الكائنات كلّها بكونيّتها تنكشفُ أمامكَ بهالتها الجديدة وغير المتوهَّمة إلى حدّ الآن. قواعدُ النّحو، القواعدُ الجافّة نفسها، تتحوّل إلى نوع من السِّحْر الخلّاق؛ تنبعثُ الكلمات مجدّدًا

---

*) شارل فورييه Charles Fourier (١٧٧٢ – ١٨٣٧): فيلسوف فرنسيّ. عَدَّه كارل ماركس وفريديريك إنجلز أحد فلاسفة "الاشتراكيّة الطوباويّة". حاول أن يؤسّس استنادًا إلى منجزات إسحاق نيوتن العلميّة نظريّة فلسفيّة في "الانسجام الكونيّ"، وقال بإمكانيّة معرفة الحالات النفسيّة والأهوائيّة للإنسان، من خلال تأمّل النباتات والحيوانات، والمقارنة بينها. (المترجم).

**) إيمانويل سويدنبورغ Emanuel Swedenborg (١٦٨٨ – ١٧٧٢): عالم وتيولوجيّ وفيلسوف سويديّ. أعلن عندما بلغ السادس والخمسين من عمره أنّهُ دخل في مرحلة روحيّة من حياته، وأنّهُ يرى ملائكة في أحلامه، ويتكلّمُ مع والله ويسوع، ويزور الجنّة والنّار من وقت إلى آخر. (المترجم).

مَكسوّة عظمًا ولحمًا، يقيمُ المنعوتُ داخل هيبة ثباته، والنّعتُ لباسٌ شفّافٌ، يكسوه ويلوّنه كما لو كان لمسة فنّيّة، تزيدُ من بريقه، والفعلُ، ذاك الملاكُ الّذي يدفعُ الجملة، ويحرّكُ الأشياء. والموسيقى، هذه اللغة الأخرى الغالية على المتكاسلين، وعلى الأرواح العميقة الّتي تبحثُ عن السكينة داخل ثراء العمل وتنوّعه، تُحدِّثُكَ عن نفسكَ، وتُلقي عليكَ قصيدة حياتكَ: تنتمي إليكَ، فتنصهرُ أنتَ فيها. تتحدّثُ عن شَغَفكَ، لا بطريقة عامّة وغير محدّدة، كما تفعلُ في لياليكَ المضجرة، أو في يوم تذهبُ فيه إلى الأوبرا، وإنّما بطريقة مفصّلة وإيجابيّة، يسِمُ فيها كلّ تغيّر في الإيقاع تغيّرًا طارئًا على روحكَ، وتتحوّل فيها كلّ نوتة موسيقيّة إلى كلمة، وتقتحمُ القصيدة كاملة رأسكَ، كما لو كانت قاموسًا من الكلمات المفعمة بالحياة.

لا يجب الاعتقاد أن هذه الظواهر كلّها يمكن أن تحدثُ داخل ذهن تملؤه الفوضى، وترهقه نبرة الواقع الحادّة، واضطراب الحياة الخارجيّة. إنّ العين الباطنيّة هي الّتي تُحوِّلُ كلّ شيء، وتعطي إلى كلّ شيء الإضافة الجمالية الّتي تنقصهُ، كي يكون جديرًا بأن يُعجِبَ. وفي هذه المرحلة الممتعة والحسّيّة بالأساس، يجبُ جَنيَ ثمار حُبّ تلك المياه الرقراقة، المتدفّقة أو الراكدة، الّتي تتزايدُ بشكل غريب في رؤوس بعض الفنّانين المنتشية. تصبحُ المرايا تعلّة لذاك الحُلم المشابه لعطشٍ روحيّ، يتعاضدُ مع العطش المادّيّ الّذي يجفِّف الحلق، والّذي تحدّثتُ عنهُ سابقًا؛ المياهُ المنسابة، الألعابُ المائيّة، الشلّالات المتناغمة، زرقة البحر الشّديدة، كلّها تتحرّكُ، تغنّي، وتنامُ ببهاء لا يُوصَف. يستقرُّ الماءُ، ويتشكّل على هيئة ساحرة حقيقيّة، ورغم أنّي لا أعتقد كثيرًا في الأفكار المجنونة والمروّعة الناجمة عن الحشيش، لن أؤكّدَ أنّ تأمّل فجوة شفّافة يمكن أن يحدث

دون خطر، بالنسبة إلى عقل شغوف بالفضاء والكريستال، وأنّ حكاية أوندينه(*) القديمة يمكن أن تتحوّل، بالنسبة إلى شخص متحمّسٍ، إلى حقيقة مأسويّة.

أعتقدُ أنيّ تحدّثتُ بما فيه الكفاية عن النُّمُوّ المُلغِز الحاصل في الزمن وفي الفضاء، هاتان الفكرتان المرتبطتان دائمًا، ولكنْ، اللّتان يواجههما العقل هذه المرّة دون حزن وبلا خوف، لينظر من نافذة السنوات الطويلة إلى الأشياء بشيء من الفرح الحزين، وينغمس بجسارة في آفاقها اللامتناهية. وأفترضُ أنّنا فهمنا جيّدًا أنّ هذا النُّمُوّ الشّاذّ والمستبدّ ينطبق أيضًا على المشاعر كلّها، وعلى الأفكار كلّها: وكما أظنّ أنّني قدّمتُ أنموذجًا جميلاً بما يكفي عن العطف، أعتقد أنيّ قمتُ بذلك فيما يتعلّق بفكرة الجمال، وفيما يرتبط بالحُبّ أيضًا. يجب أن تأخذَ فكرة الجمال حيّزًا كبيرًا من مزاجٍ روحيّ كالّذي افترضتهُ. والانسجام، وتمايل الخطوط، والتناسقُ في الحركات، ستبدو أشياء ضروريّة بالنسبة إلى الحالم، بل واجبة لا فقط على تلكّ الذوات المتخيّلة، بل عليه هو نفسه، الحالمُ الّذي يجدُ نفسهُ في هذه المرحلة من النشوة موهوبًا بقدرة مذهلة، تُؤهّل تمثُّله لذاك الإيقاع السرمديّ والكونيّ. وإذا كان متعصّبُنا هذا، يفتقر في داخله إلى الجمال، لا تعتقدوا أنّه سيتألّم طويلاً من هذا الاعتراف الّذي يقيّدهُ، ولا أنّهُ يرى نفسهُ نوتة ناشزة في ذلك العالم المتناغم، وذلك الجمال الّذي ارتجلهُ خياله. إنّ سفسطة الحشيش كثيرة، ومثيرة للإعجاب، وتنحو عمومًا إلى التفاؤل، وإنّ أحد المبادئ الأكثر فعاليّة، هو ذاك الّذي يُحوّل الرغبة إلى حقيقة واقعيّة. ولئن ينطبق ذلك، في كثير من الأحيان، على الحياة

---

*) رواية رومنسيّة ألمانيّة، ألّفها فريدرك لا موت فوكيه Friedrich de La Motte-Fouqué. نُشرت أوّل مرّة سنة ١٨١١، وتروي حكاية أوندينه حورية البحر التي تزوّجت من الفارس هيلدر براند، كي تتحوّل إلى آدمية. (المترجم).

العاديّة، فإنّهُ يحدثُ هنا بكَمٍّ كبير من الحماس والشفافيّة! وفعلاً، كيف يمكن لكيان وُهبَ فهمَ التناغُم، كما لو كان قِسًّا للجمال، أن يقوم بنشاز أو أن يشوّهَ نظريّتهُ الخاصّة؟ الجمالُ الروحيّ وقوّته، الفضيلة وإغواءاتها، البلاغةُ ومنجزاتها، هذه الأفكار كلّها ستظهرُ لاحقًا كمجموعة من المصلحين لقُبح ظاهر، ثمّ كمجموعة من المُواسين، وأخيرًا كمجموعة من المتملّقين المثاليّيْن بسلطة خياليّة.

أمّا بالنّسبة إلى الحُبّ، فقد سمعتُ الكثير من النّاس الّذين يحرّكهم فضول مراهقين، يحاولون استفسار أولئك الّذين على دراية باستخدام الحشيش. ماذا يمكن أن تكون عليه نشوة الحُبّ، القويّة في حالتها الطبيعيّة مُسبَّقًا، عندما تكون مُضمَّنة داخل النشوة الأخرى، مثل شمس داخل شمس؟ هذا هو السؤال الّذي سيُطرحُ داخل كثير من العقول الّتي سأسمّي أصحابها بمتسكّعي العالم المثقّف. وللإجابة عن المسكوت عنه وغير الصّادق، على ذلك الجزء الّذي لا يتجرّأ أن يحدُث من السؤال، سأحيلُ القارئ إلى بْلين(*) الذي تحدّث في إحدى كتاباته عن خصائص القُنّب بطريقة تبدّد الكثيرة من الأوهام الشائكة حول هذا الموضوع. ونحنُ نعرفُ، علاوة على ذلك، أنّ الارتخاء والوهن هما النتيجة الأكثر طبيعيّة للاستنزاف الّذي يقوم به النّاس لأعصابهم، وللاستعمال المفرط للموادّ المخصّصة لإثارتها. لكنْ، بما أنّهُ لا توجد هنا قوّة تأثيريّة، وإنّما عاطفة أو استعداد نفسيّ، سأطلبُ ببساطة من القارئ أن يأخذ بعين الاعتبار أنّ خيال رجُل متوتّر وثملٍ بالحشيش، هو خيال مندفعٌ بسرعة مذهلة، وأقلّ قابليّة للتحديد من سرعة الريح في أثناء إعصار، وأنّ حواسّهُ مرهفة إلى نقطة يصعب تحديدها أيضًا. وعلى هذا الأساس، نستطيع الاعتقاد في

---

*) بْلين Pline: عالم وفيلسوف رومانيٌّ قديم، عاش في القرن الأوّل ميلادي. ترك موسوعة تُعدّ من أوّل الموسوعات في العلوم الطبيعيّة. وتناول فيما تناول نبتة القُنّب وخصائصها. (المترجم).

أنّ أخفّ المداعبات، بل وأكثرها براءة مثل المصافحة، يمكن أن يكون لها قيمة مضاعفة مائة مرّة، بالنظر إلى الحالة الّتي تكون عليها الروح والحواسّ، ويمكن أن تقودها، وبسرعة كبيرة، إلى ذاك الغياب عن الوعيّ الّذي يعدّهُ بعض المبتذلين قمّة السعادة. لكنْ، أن يُوقِظ الحشيشُ، في الخيال الّذي غالبًا ما تتملّكه الأشياء المرتبطة بالحُبّ، ذكريات دافئة، يصبح معها حتّى للألم وللبؤس بريق جديدٌ، فهذا ممّا لا شكّ فيه. وما ليس أقلّ منه قابليّة للتأكيد، أنّ جرعة قويّة من الحسّيّة تمتزجُ مع هذا الاهتياج الّذي يكون عليه العقل؛ ومع ذلك، ليس من غير المفيد أن نلاحظ، الأمر الّذي يكفي لإثبات لاأخلاقيّة الحشيش من هذه الزاوية، أنّ طائفة من الإسماعيليّيْن (ومن الإسماعيليّين يتحدّرُ الحشّاشون(*)) يصلون بعشقهم إلى تجاوُز حبّهم لـ "لينغام"(**)، نحو التأليه المطلق والكُلّي للنّصف الأنثويّ من

*) طائفة الحشّاشين: طائفة دينيّة وسياسيّة إسماعيليّة، برزت بقيادة حسن الصّبّاح (٤٢٠هـ/١٠٢٧م - ٥١٨هـ/١١٢٤م) بين القرنَيْن الخامس والسابع للهجرة، انفصلت عن الفاطميّيْن، لتدعو إلى إمامة نزار المصطفى لدين الله. اتّبع الحشّاشون استراتيجيّة عسكريّة قائمة على الاغتيالات السياسيّة الّتي تقوم بها مجموعة من الانتحاريّيْن. وسمّوا أيضًا بالطائفة الباطنيّة والملاحدة من قِبَل خصومهم السياسيّيْن بعد أن وطّدوا نفوذهم داخل القلاع الحصينة في قمم جبال بلاد الفُرْس والشّام. ولئن ارتبطت تسميتهم في الظاهر باستعمالهم للحشيش، بعَدِّه محفّزًا في أثناء الحروب والمعارك، فإنّ النّصوص المرجعيّة والدّراسات الحديثة الّتي تناولت هذه الحركة تُنَسّبُ هذه الفكرة وتقدّمُ آراء مختلفة حول الأصل اللّسانيّ لهذه الكلمة، فمنهُم من عَدَّ أنّها ترجمة حرفيّة للكلمة الفرنسيّة Assassins (أي القَتَلَة والانتحاريّون) الّتي كان يطلقها الصليبيّون الفرنسيّون على الجماعات الإسماعيليّة الّتي كانت تفتك بملوكهم وقادة جيوشهم، فُلقّبوا بهذه التسمية (أسّاسان) الّتي ستدخل لاحقًا إلى المعاجم الفرنسيّة، وتكتسبُ هذا المعنى؛ ومنهم مَنْ ينسبُها إلى كلمة "حساسان" في إحالة على "حسن الصّبّاح" شيخ الجبل وزعيم "قلعة الموت" الّذي أسّس الجناح العسكريّ لهذه الحركة. لكنّ الثّابت من هذا كلّه، أنّ إحالة بودلير على هذه الحركة، وربطها باستعمال الحشيش لا يتعلّق فقط بمحاولة التأصيل التاريخي الّتي قام بها لموضوع دراسته، ولكنّه مرتبط أيضًا بما صاغهُ الوعي الجمعَيّ الأوروبيّ حول هذه الحركة، بغضّ النظر عن حقيقته التاريخيّة، ويتأكّدُ ذلك من خلال انطلاقه من قصص ماركو بولو الّذي يذكر هذه الحركة في نصوصه، ويربطها بالحشيش. (المترجم).

**) لينغام Lingam: كلمة سانسكريتيّة الأصل تحيل على حجر مقدّس هندوسيّ، يرمزُ إلى الآلهة شيفا Shiva، في شكل قضيب منتصب (دلالة على الذكوريّة)، يحيط بقاعدته فرج (دلالة

الرّمز. لن يكون من غير الطبيعيّ، كلٌّ حسب تمثّله للتاريخ، رؤية بدعة فاحشة، أو دينًا متوحّشًا، يتشكّل في أذهن، تستسلم بجُبن إلى رحمة مخدّرات جهنّميّة، وتبتسمُ أمام تخريب ملكاتها الخاصّة.

بما أنّنا رأينا في نشوة الحشيش تمظهرًا لعطفٍ فريد، يمكن أن ينطبقَ حتّى على الغرباء، أو نوعًا من السّخاء النابع من الشفقة أكثر منه من الحبّ (وهنا تحديدًا تتكوّن أوّل بذرة من تلك الرّوح الشيطانيّة الّتي ستتطوّر بطريقة غير عاديّة)، والّذي يصل إلى الخوف من إيذاء أيّ شيء؛ يمكننا أن نخمّنَ ما يمكن أن تصبح عليه هذه المشاعر المركّزة الموجّهة إلى شخص عزيز لعب أو يلعبُ دورًا مهمًّا في حياة المريض المعنويّة. فتظهرُ العبادة والعشقُ والصّلاة والأحلام السعيدة، وتندفعُ بطاقة طموحة وبتألّق لعبة ناريّة، وكما لو كانت غبارًا أو موادًّا تلوّنُ النّار، تكون باهرةً، ثمّ تختفي في الظلام. لا وجود لأيّ تركيبة وجدانيّة لا يمكن أن يتمثّلها الحُبّ المرن الّذي يكنّهُ عبدٌ للحشيش. ويمكن للاستمتاع بالرغبة في حماية الآخرين، أو للشعور بأبوّة متّقدة ومخلصة أن يختلطا بإحساس بالذّنب، سيعرف الحشيش دائمًا كيف يتغاضاهُ، وكيف يبرّئهُ. ويذهبُ أبعد من ذلك. أفترض أخطاءً مرتكبة، وتركت في الرّوح آثارًا مريرة؛ إنّ زوجًا أو عاشقًا لا يتأمّل (في وضعه الطبيعي) ماضيًا مضطربًا بالعواصف إلّا بحزن؛ ويمكن لهذه المرارات إذنْ أن تتحوّل

---

على الأنثويّة). ولئن لم نجد (فيما قرأنا) ما يُثبت علاقة الإسماعيليّين بهذا الحجر، فإنّ في الثقافة الاسلاميّة ما يُبرّر الاستعارة الّتي استخدمها بودلير، إذ يُعدّ الحجرُ الأسود الّذي هو في شكل فرج أيضًا من الأحجار المقدّسة المرتبطة تاريخيًّا بالخصوبة. ويذكر جواد عليّ أنّ كلمة "حجّ" نفسها تنحدر من كلمة "حكّ" ومنها "الاحتكاك"، وكانت هنالك طقوس وثنيّة ما قبل إسلاميّة، تفركُ فيها المرأة أعضاءها التناسليّة على الحجر الأسود أملًا في الزيادة من خصوبتها. لكنّ العلاقة بين ذلك واستعمال الحشيش يظلّ أمرا نسبيًّا من ناحية التدقيق التاريخيّ. (المترجم). انظرْ أيضًا:

- Joseph Campbell, Le héros aux mille et un visages, Paris, J'ai lu, 2013, p. 634

- Jawad Ali, L'histoire des arabes avant l'Islam, partie 5,page 223.

إلى حلاوة؛ إنّ الحاجة إلى الغفران تجعلُ من الخيال أكثر مهارة وأكثر توسّلًا، والنّدمُ نفسه، سيمكنه في هذه الدراما الشيطانيّة الّتي لا تتمظهر إلا من خلال مونولوج طويل أن يعمل بِعَدِّه مثيرًا إيجابيًّا، وأن يغذّي بقوّةِ الحماسة الّتي يكون عليها القلب. نعم، النّدم! هل أخطأتُ عندما قلتُ إنّ الحشيش يبدو، بالنسبة إلى عقل فلسفيّ بحقّ، أداة شيطانيّة مثاليّة؟ النّدم، عنصرُ المتعة الفريد، سيغرقُ قريبًا في التّأمّل اللّذيذ للندم، في نوع من التحليل الممتع؛ ويكون هذا التحليل سريعًا إلى درجة لا يستطيع فيها الإنسان، هذا الشيطان الطبيعيّ، كي نتحدّث مثل السويدنبورغيّين(*)، أن يتمثّل كم هو لا إراديٌّ، وكم اقتربَ شيئًا فشيئًا من الكمال الشيطانيّ. إنّهُ يعشقُ ندمه، ويفتخر بذاته، بينما يفقد حُرّيّته.

هذا هو إذنْ الرّجلُ الّذي افترضتهُ، والعقل الّذي اخترته، والّذي يصلُ إلى تلك الدرجة من الفرح والصّفاء الّتي تدفعه إلى التّولّه بذاته. تمّحي التناقضات كلّها، وتصبحُ الإشكاليّات الفلسفيّة كلّها واضحة، أو تبدو كذلك. ويستحيل كلّ شيء أداة للمتعة. يلهمه امتلاء حياته الراهنة كبرياءً متضخّمًا. يكلّمهُ صوتٌ بداخله (للأسف! إنّهُ صوته هو) ويقول: "لديكَ الآن الحقّ في عَدِّ نفسكَ متفوّقًا على النّاس جميعهم؛ لا أحد يستطيع فهمَ كلّ ما تفكّر فيه وكلّ ما تشعر به؛ بل إنّهم لن يستطيعوا تقدير العطف الّذي يلهمونكهُ. أنتَ ملكٌ يتجاهله المارّة، يعيشُ في عزلة قناعته: لكنْ، ما الّذي يهمّكَ؟ ألا تمتلكُ هذا الاحتقار الّذي يكنّهُ الأسياد للعبيد، والّذي يجعلكَ في حالة جيّدة؟"

مع ذلك، يمكننا أن نفترض ذكرى مريرة قد تمرُّ وتفسد هذه السعادة.

---

*) نسبة إلى سويدنبورغ.

إنّ حدثًا خارجيًّا طارئًا يمكن أن يعيد إحياء ماضٍ، سيكون من غير المريح التفكير فيه. كم من الحماقات أو الأعمال الخسيسة الّتي تملؤ الماضي، والّتي ليست جديرة بتقدير هذا الملك، والّتي تشوّهُ الكرامة المثاليّة؟ ثقوا أنّ رجل الحشيش سيواجه بشجاعة هذه الأشباح الّتي تُوبّخهُ، بل وسيكون قادرًا على أن يستخرج من هذه الذكريات البشعة عناصر جديدة من البهجة والكبرياء. وسيتطوّر تفكيره على هذا النحو: شعورٌ أوّلٌ بآلام الماضي، سيحلّل بغرابة ذاك الحدث أو الشعور الّذي أربكت الذّكرى مجدهُ الحاليّ، والدّوافعَ الّتي جعلتهُ يتفاعل بعد ذلك، والأشياء الّتي تحيط به، وإذا لم يجد في هذه الأشياء مبرّرات كافية، أو مغفرة، أو على الأقلّ، ما يخفّف من خطاياه، لا تتخيّلوا أنّهُ سيشعر بالهزيمة! إنّي أرى طريقة تفكيره، كما لو كانت آليّة تحت زجاج شفّاف: "إنّ هذا العمل السخيف والجبان أو الخسيس يتناقض تمامًا مع طبيعتي الحقيقية، طبيعتي الحاليّة، وإنّ القوّة الّتي أدينه بها، والاهتمام الجنائيّ الّذي أحلّله به، وأحكم من خلاله عليه، يثبّتان قدراتي العالية والإلهيّة في تحقيق الفضيلة. وكم يمكننا أن نجد في العالم من أناس مؤهّلين للحكم على أنفسهم مثلي، وصارمين في إدانة أنفسهم مثلي؟" ولا يدين نفسهُ فقط، بل يفتخر بذاته. وتنغمسُ تلك الذكرى المروّعة الّتي استوعبها تأمّلُ فضيلة مثاليّة ورأفة مثاليّة وعبقريّة مثاليّة، بوضوح داخل العربدة الروحيّة الّتي تتملّكه. لقد رأينا أنّه، وهو يزيّف بطريقة مدنّسة قداسة التوبة عادًّا نفسهُ المعترفَ وقسّ التوبة على حدّ السواء، قدّمَ إلى نفسه مغفرة سهلة، أو أنّهُ، وهذا أكثر سوءًا، استخرج من إدانته علفًا جديدًا لكبريائه. والآن، من تأمّل أحلامه ومشاريع فضيلته، ينتهي به الأمر إلى الاعتقاد في أهليّته العمليّة في تحقيق الفضيلة؛ لقد بدت لهُ طاقة الحبّ الّتي عانق من خلالها شبح الفضيلة هذا، دليلًا كافيًا

ونهائيًّا على الطّاقة القويّة الكافية لإكمال إنجازه المثاليّ. إنّه يخلطُ تمامًا بين الحُلم والفعل، ويحتدمُ خياله أكثر فأكثر أمام المشهد الساحر لطبيعته، وقد أصلح من حالها، وأصبحت مثاليّة، لتحلّ صورته الساحرة عن نفسه محلّ حقيقته الذاتيّة، الفقيرة في إرادتها، والغنيّة في غرورها، لينتهي برسم ألوهته داخل هذه المفاهيم الواضحة والبسيطة الّتي تنطوي بالنسبة إليه على عالم كامل من اللّذائذ المروّعة: "أنا أشرف النّاس، وأكثرهم عفّة!".

ألا يذكّركم هذا بجون جاك الّذي، هو الآخر، بعد أن اعترف بخطاياه إلى الكون، وليس دون شعوره بلذّة معيّنة، تجرّأ على أن يُصدر صيحة الانتصار نفسها (أو على الأقلّ مع فرق صغير) بالصدق نفسه، وبالقناعة نفسها؟ إنّ حماس إعجابه بالفضيلة، والحنان العصبيّ الّذي يملأ عينَيْه بالدموع عندَ رؤية عمل جميل أو أمام التفكير في الأعمال الجميلة كلّها الّتي أراد تحقيقها، يكفيان لإعطائه فكرة مبالغة عن قيمته الأخلاقيّة. لكنّ جون جاك كان منتشيًا دون حشيش.

هل أواصل تحليل هذا الهيام المتولّه؟ هل أفسّر كيف سيصير رجلي قريبًا، تحت وطأة السّمّ، مركزًا للكون؟ كيف سيصبحُ التجسيد الحيّ والصارخ للمثل الّذي يقول إنّ العشق يسحبُ كلّ شيء نحوه؟ إنّهُ يعتقد في فضيلته وعبقريّته؛ ألا يمكن أن نخمّن النهاية؟ كل الأشياء المحيطة هي بمثابة المقترحات الّتي تحرّك في داخله عالمًا كاملًا من الأفكار الّتي صارت كلّها أكثر وضوحًا وأكثر حيويّة وأكثر دقّة من أيّ وقت مضى، ومَكسوّة بلون سِحْريّ. "هذه المُدُن الرائعة، يقول لنفسه، حيثُ تستقرُّ المباني الجميلة، كما لو كانت داخل لوحة، - هذه السفن الجميلة المتمايلة فوق مياه الميناء بتكاسل وحنين، والّتي تبدو وكأنّها تترجمُ أفكارنا: متى سنسافر إلى السعادة؟ - هذه المتاحف المليئة بالأشكال الجميلة والألوان المسكِرة، -

هذه المكتبات أين تتكدّس الأعمال العلميّة وأحلام المُلهِمَةِ الأولى؟ - هذه الآلات المجتمعة الّتي تتكلّم بصوت واحد، - هذه النّساء الساحرات، الأكثر بهاءً عن طريق علم التزيّن واقتصاد النّظرة، - هذه الأشياء كلّها خُلقت من أجلي، من أجلي، من أجلي! ومن أجلي، عملت البشريّة واستشهدت وضحّت، - لتقدّم علفًا وماءً إلى شهيّتي الّتي لا يمكن إشباعها للعاطفة والمعرفة والجمال!" أقفزُ وأختصر. لن يستغرب أحد من أن تنبثق من رأس الحالم فكرة نهائيّة وقصوى: "لقد أصبحتُ إلهًا!"، وأن تندفع من صدره صرخة برّيّة متّقدة بطاقة رهيبة وقوّة إسقاط عجيبة، إلى درجة يمكن معها القول إنّه إذا كان لهذه الإرادة وهذا الإيمان اللّذَيْن يمتلكهما رجلٌ ثملٌ تأثير عمليّ ناجع، لاهتزّت لصرخته ملائكة السماء كلّها: "أنا إلهٌ!". لكنْ، قريبًا، سيتحوّل إعصار الكبرياء هذا إلى مزاج سعيد وهادئ وصامت ومستريح، وتتبدّى كونيّة الأشياء ملوّنة، كما لو كانت مضاءة بضوء فجر كبريتيّ. وإذا ما انزلقت مصادفة إلى روح هذا السعيد البائس ذكرى غامضة: ألا يوجدُ إله آخر؟ صدِّقوا أنّهُ سيسأل نفسهُ هكذا، وأنّهُ سيناقشُ مشيئتهُ، ويواجهها بلا خوف. مَنْ هو الفيلسوف الفرنسيّ الّذي قال ليسخر من المذاهب الألمانيّة الحديثة: "أنا إلهٌ لم يتعشَّ جيّدًا"؟ إنّ سخرية مثل هذه لن تؤثّر في عقل اقتلعهُ الحشيش؛ سيجيب بكلّ هدوء: "ربّما لم أتعشَّ جيّدًا، لكنّني إلهٌ!".

# V
# عبـرة

لكنْ، في الغد! في الغد الرّهيب! تعلّمكَ الأعضاء الفاترة والمتعبة، والأعصاب المرتخية، والرغبة القويّة في البكاء، واستحالة الانكباب على عمل متواصل كلها، تعلّمُكَ بقسوة أنّكَ لعبتَ لعبة ممنوعة. الطّبيعة المقرفة، المنهَكَة من إشراقة البارحة، تُشبهُ فضلات حفلة حزينة. ومن الملكات الأكثر قيمة جميعهنّ، تتضرّر الإرادة قبل أيّ شيء. يُقالُ، وهذا صحيح تقريبًا، إنّ هذه المادّة لا تتسبّب في أيّ سوء جسديّ، أو أيّ سوء خطير، على الأقلّ. لكنْ، هل من الممكن أن نؤكّد أنّ رجلًا غير قادر على الحركة، منذورًا فقط للأحلام، يستطيع أن يتصرّف بشكل جيّد، حتّى عندما ستكون أعضاؤه في حالة جيّدة؟ ولكنّنا نعرف الطبيعة الإنسانيّة بما يكفي لنعرفَ أن رجلًا يستطيع، من خلال ملعقة معجون صغيرة، أنْ يحصل على الفور على ملذّات السماء والأرض جميعها، لن يحقّق واحدًا بالألف من هذه الملذّات عن طريق العمل. هل نتخيّلُ دولة يكون مواطنوها كلهم سُكارى بالحشيش؟ يا لهم من مواطنين! ويا لهم من محاربين! ويا لهم من مشرّعين! حتّى في الشرق، أين ينتشر استعمال الحشيش على نطاق واسع؟! ثمّة حكومات فهمت ضرورة منعه. وفي الحقيقة، ما يُمنعُ منه المرء حقًّا، ويجازى عليه بالانحطاط والموت الفكري، هو تعكير الشروط الأساسيّة لوجوده، وإخلال توازن ملكاته مع الأوساط الّتي يُفترضُ أن تنتعش

داخلها، وفي كلمة واحدة، إرباك مصيره واستبداله موتًا من نوع جديد. لنتذكّر "ميلموث"، هذا الأنموذجُ الرّائع الّذي كمنت معاناته الرّهيبة في عدم التناسب بين مَلَكَاته العجيبة الّتي اكتسبها إثر ميثاق مع الشيطان والمكان الّذي كُتب عليه أن يعيش داخله، بِعَدِّه مخلوقا إلهيًا. ولا أحد ممّنْ أراد إغواءهم وافق على شراء امتيازاته الرهيبة في ظلّ الشروط نفسها. من السّهل فهم العلاقة القائمة بين إبداعات الشعراء الشيطانيّة، والمخلوقات الحيّة الّتي سلّمت نفسها إلى المثيرات. لقد أراد الإنسان أن يكون إلهًا، وبعد قليل، ها هو ذا، بحكم قانون أخلاقيّ لا يمكن السيطرة عليه، يسقطُ إلى أدنى من طبيعته الحقيقيّة. إنّها روحٌ تبيع نفسها بالتفصيل.

يرى بلزاك دون أيّ شكّ أنّه لا يوجد بالنسبة إلى الإنسان شيءٌ أكبر عارًا وأكثر إيلامًا من التنازل عن إرادته. لقد رأيتهُ مرّة في لقاء خُصّص لمناقشة آثار الحشيش المذهلة. كان ينصتُ ويسأل بانتباه وحيويّة مرحة. فخمّن مَنْ يعرفونه أنّه يهتمُّ بالأمر. لكنّ فكرة التفكير في ذلك رغم أنفه صدمتْه كثيرًا. قدّموا إليه "الدَوامِسْك"، تفحَّصَهُ، وتشمَّمَهُ، ثمّ أرجعه دون أن يلمسه. خانتْهُ ملامح وجهه، وبدا عليها الصراع بين فضوله شبه الطفوليّ ورفضه للتنازل واضحًا بطريقة مثيرة للانتباه. وانتصر حبُّه للحفاظ على كرامته. في الحقيقة، من الصعب تخيّل ذاك الّذي هندس هذه الإرادة، هذا التوأم الروّحي الّذي يتحدّث عنه لويس لامبرت، والّذي يسمحُ بتضييع قطعة من هذه المادّة الثمينة.

رغم الخدمات الثّمينة الّتي قدّمها الـ "ليثير" و"الكلوروفورم"(*)، يبدو لي من وجهة نظر الفلسفة الروحانيّة، أنّ الوهن الأخلاقيّ ينطبق على

(*) L'éther et le chloroforme: موادّ كيميائيّة سائلة وسريعة الاشتعال، تُستعمل للتذويب والتطهير والتخدير.

الاختراعات الحديثة كلها الّتي تنحو إلى التقليص من الحُرّيّة الإنسانيّة، ومن الآلام الضروريّة. ولم يكن دون شيء من الإعجاب أن استمعتُ مرّة إلى مفارقة وقعت أمام ضابط، حدّثني عن عمليّة جراحيّة قاسية، أُجرِيَتْ على جنرال فرنسيّ في الأغواط (الجزائر)، ومات فيها هذا الأخير رغم مناولته الكلوروفورم. كان هذا الجنرال رجلًا شجاعًا، بل وأكثر من ذلك، كان واحدًا من أولئك الّذين ينطبق عليهم بسهولة لفظ: شهم. "لم يكن الكلوروفورم، قال لي، ما يحتاجهُ، بل أنظار الجنود كلّهم، وموسيقى الأفواج العسكريّة. ربمّا كان سينجو هكذا!". لم يكن الجرّاحُ موافقًا لرأي هذا الضابط؛ لكنْ، لا بُدّ من أنّ القدّيس الّذي عمّده قد أُعجب بهذه المشاعر.

إنّهُ لمن الضروريّ حقًّا، بعد هذه الاعتبارات كلّها، أن نؤكّد على الطابع اللاأخلاقيّ للحشيش. إذا ما قارنتهُ بانتحار، انتحار بطيء بسلاح دمويّ على الدوام ومشحوذ على الدوام، لن يعارضني أيّ عقل مفكّر على ذلك. وإذا شبّهتهُ بالشعوذة أو السِّحْر الّذي يريد، من خلال فعله في المادّة، وعن طريق متاهات، لا شيء يُثبت زيفها ولا نجاعتها، أن يتمكّن من سيطرة ممنوعة على الإنسان أو مسموح بها فقط لمَنْ يعدّ نفسه كُفؤا، لن تلومني أيّ روح فلسفيّة على هذه المقارنة. إذا كانت الكنيسة تدين السِّحْر والشعوذة، فلأن هذه الأخيرة تعارض المشيئة الإلهيّة، وتلغي عامل الزمن، وتريد جعل قِيَم النقاء والأخلاق بلا جدوى؛ في حين أنّ الكنيسة لا تعدّ من الثروات شرعيّة وحقيقيّة إلا تلك الّتي اكتُسبت بنيّة طيّبة وكدح مستمرّ. إنّنا نُسمّي اللّاعب الّذي يجد بسرعة طريقة لعب مضمونة غشّاشًا؛ فماذا نسمّي الرّجل الّذي يريد، بقليل من المال، أن يشتري السعادة والعبقريّة؟ إنّ نجاعة الوسيلة المستعملة نفسها هي الّتي تُشكّل لا أخلاقيّة الأمر، مثل نجاعة السِّحْر المفترضة الّتي تفرض عليه وصمة جهنّميّة. هل أضيف أنّ

الحشيش، مثله مثل الملذّات الانزوائيّة جميعها، يجعل من الفرد عديم الفائدة بالنسبة إلى الناس والمجتمع الّذي لا لزوم له بالنسبة إلى الفرد، ويدفعهُ إلى الإعجاب بنفسه دون انقطاع، ويجرّه يومًا بعد يوم إلى تلك الهاوية المضيئة الّتي يعشقُ فيها وجه نرسيس الّذي صار يحمله؟

ماذا إذا كان بإمكان الإنسان، على حساب كرامته وصدقه وحُرّيّة إرادته، أن يستخرج من الحشيش بعض الفوائد الروحيّة العظيمة، عن طريق جعله أداة للتفكير، ووسيلة خصبة؟ لقد سمعتُ هذا السؤال يُطرَحُ كثيرًا، وقد أجبتُ عنه. أوّلًا، وكما أوضحتُ بإسهاب، لا يكشف الحشيش للفرد إلا الفرد نفسه. صحيحٌ أنّه يجعل هذا الفرد متعدّد الأبعاد ومدفوعًا إلى الأقصى، وبما أنّهُ من المؤكّد أيضًا أنّ ذاكرة الانطباعات أبقى من العربدة، فإنّ الأمل في هذه المنافع لا يظهرُ في وهلة النشوة الأولى الخالية من أيّ منطق. لكنْ، سألتمس منهم أن يلاحظوا أنّ الأفكار الّتي ينوون استلهام جزء كبير منها، ليست حقًّا جميلة كما تبدو في ثوبها المؤقّت المغطّى بحُليّ سِحْرِيَّة. إنّها تنبع من الأرض أكثر منه من السماء، وتدين بجزء كبير من جمالها إلى الإثارة العصبيّة والجشع الّذي يرتمي به العقل عليها. ثمّ، ليس هذا الأمل سوى حلقة مفرغة: إذا اعترفنا لحظة أنّ الحشيش يعطي، أو على الأقلّ يزيد، من العبقريّة، فإنّهم ينسون أنّه من طبيعة الحشيش أن يقلّص من الإرادة، وبالتالي فهو يمنح من جهة ما يأخذه من الجهة الأخرى، أي الخيال دون التّمكّن من الاستفادة منه. وفي النهاية، علينا أن نتدبّر الأمر مفترضين رجلًا ماهرًا بما فيه الكفاية وقويًّا بما فيه الكفاية يتمكّن من الخروج من هذه المعادلة، ليدخل في خطر جديد قاتل ومروّع، وهو ذاك المتعلّق بالتعوّد. كلّ شيء سيتحوّل قريبًا إلى ضروريّات. وذاك الّذي لجأ إلى السّمّ كي يُفكّر، سيجد نفسه قريبًا غير قادر على التفكير بلا سُمّ. فهل

يمكننا تخيّل المصير المخيف لشخص لم يعد خياله المشلول يعملُ دون مساعدة الحشيش أو الأفيون؟

في الدّراسات الفلسفيّة، على العقل البشريّ، وهو يقلّدُ مسيرة النجوم، أن يتّبع مسارًا يعيدهُ إلى نقطة انطلاقه. أن تستخلصَ شيئًا، هو أن تغلق دائرة. تحدّثتُ في البداية عن هذه الحالة العجيبة الّتي يجدُ فيها الإنسان نفسهُ مَرميًّا، كما لو حدث ذلك بنعمة خاصّة؛ قلتُ إنّ هذا العقل، بطموحه المستمرّ إلى شحذ آماله والارتفاع إلى ما لا نهاية، يضفي، في البدن كلّه، وفي الأوقات كلّها، طعمًا محمومًا على الموادّ كلّها، وحتّى الخطيرة منها، الّتي يمكنها وهي تضخّم كيانهُ أن تهبه لوهلة ذلك الفردوس الضائع، موضوع رغباته كلّها، وفي النهاية عندما يصل هذا العقل المجازف والمندفع دون أن يدري إلى جهنّم، يدركُ عظمة أصله. لكنّ الإنسان ليس ضائعًا إلى هذا الحدّ، ومحرومًا إلى هذا الحدّ من الوسائل النزيهة الّتي يمكنه أن يكسب من خلالها السماء، كي يكون مضطرًّا إلى استعمال الصيدلة أو الشعوذة؛ وهو ليس في حاجة إلى أن يبيع روحه، كي يسدّد ثمن المداعبات المُسكِرة وصداقة الحوريّات. ما قيمة الجنّة الّتي نشتريها بثمن خلاصها الأبدي؟ أتخيّلُ رجُلًا (لأقل إبراهيميًّا، أو شاعرًا، أو فيلسوفًا مسيحيًّا؟) يستقرُّ فوق الأولمب مُنهَكًا من الكدح الروحيّ؛ وحوله ملهمات رافئيل أو مانتينيا يواسينَه على صومه الطويل وصلواته الدؤوبة، مُشكِّلات أنبلَ الرقصات، وينظرنَ إليه بعيونهنّ الدافئة وابتساماتهنّ الأكثر إشراقًا؛ أمّا أبولون المقدّس، سيّد المعارف جميعها (سيّد فرانكافيلّا وألبيرت دورَرْ وغولتزيوس أو أيّ شخص آخر، مَنْ يهتمّ لذلك؟ ألا يوجد أبولون لكلّ رجل يستحقّ ذلك؟)، فيداعب بقوسه أوتاره المشدودة أكثر. وتحتهُ، عند سفح الجبل، في الرّكام وفي الطّين، حشدٌ من

البشر، عصابة من المحاربين القدامى، تُقلّدُ بوجوهها ملامح اللّذّة، وتطلقُ زمجرات وهي تقتلعُ الندوب الّتي تسبّب بها السّمّ؛ والشاعر الحزين يقول لنفسه: "منكودو الحظّ، هؤلاء الّذين لم يصوموا ولم يصلّوا، والّذين رفضوا الخلاص عن طريق الكدح، يطلبون من السِّحْر الأسود وسائل الارتفاع، بضربة واحدة، إلى الوجود فوق الطبيعيّ. السِّحْرُ يخدعهم، ويضيء لهم سعادة كاذبة وضوءًا كاذبًا؛ بينما نحنُ، الشعراء والفلاسفة، فقد جدّدنا أرواحنا من خلال العمل المستمرّ والتّأمّل؛ ومن خلال اختبار إرادتنا المستمرّ، ونبل نيّتنا الدّائم، أنشأنا على ذمّتنا حديقة كاملة من الجمال الحقيقيّ. وواثقين من القول الّذي يقول إنّ الإيمان بإمكانه أن يحمل الجبال، أنجزنا المعجزة الوحيدة الّتي سمح لنا الله بها!".

# آكلُ الأفيون

# I
# احتياطاتٌ شفويّة

*"ألا أيّها الأفيون الصّائبُ والماكر والقويّ! أنتَ الّذي جُعلت، في قلوب الفقراء كما الأغنياء، بلسمًا للجروح الّتي لا تلتئم أبدًا، وللقلق الّذي يجعل الروح ثائرة؛ أيّها الأفيون البليغ! أنتَ الّذي تروّض، ببلاغتك القويّة، قرارات الغضب كلّها، والّذي في ليلة واحدة، تُرجِعُ إلى الإنسان المذنب آمالَ شبابه ويَدَيْه القديمَتَيْن النظيفَتَيْن من الدّماء؛ والّذي تهبُ الإنسان المتكبّر نسيانًا عابرًا*

*أخطاءٌ لم تُتدارَكْ بعد، وشتائم لم تُعاقب عليها*

*يذكرُ شهودَ الزور في محكمة الأحلام، لانتصار البراءة الّتي تمّ التضحية بها؛ أنتَ الّذي تزيّفُ الشهادة؛ وتلغي أحكام القضاة الظّالمين؛ تقيمُ وسطَ الظلام، مع وسائل العقل الخياليّة، ومع فنّ أعمق من ذاك الّذي يتقنه فيبياس أو براكسيتال(*)، مع مُدُن ومعابد، تفوق روعتها روعة بابل وشهرَقومس(**)، ومع وهنِ نومٍ مليء بالأحلام تُحرّكُ تحت*

---

*) فيبياس وبراكسيتال: نحّاتان إغريقيّان عاشا في القرن الخامس قبل الميلاد.

**) مدينة المئة باب: مدينة فارسيّة، مثّلت مركز الدولة اليونانيّة عندما احتلّت بلاد الفُرْس. كانت

*ضوء الشمس وجوه الجمال المدفونة منذ وقت طويل، والملامح المألوفة والمباركة المنظَّفة من ويلات القبر. أنتَ الوحيد، الّذي يهب البشر هذه الكنوز، والّذي يمتلك مفاتيح الجنّة، ألا أيّها الأفيون الصّائبُ والماكر والقويّ!"*

لكنْ، قبل أن يمتلك الكاتب الشجاعة ليطلق، على شرف أفيونه العزيز، هذه الصيحة العنيفة مثل اعتراف بالحبّ، ولا شيء غير المكر، لا شيء غير الاحتياطات الشفويّة! ثمّة أوّلًا، ذاك الاعتراف الأبديّ الّذي يقوم به أولئك الّذين لديهم ما يقدّمون من اعترافات آثمة بعد أن أوشكوا العزم على الانغماس فيها:

*"إنّني أثقُ، بفضل الاهتمام الّذي خصّصته لذلك، أنّ هذه الذكريات لن تكون مثيرة للاهتمام فقط، بل، وإلى حدّ كبير، صالحة ومفيدة. وقد كتبتُها بهذا الأمل الإيجابيّ الّذي سيكون عذرًا صالحًا لي عن تجاوُز ذاك الاحتراز الدّقيق والمشرّف الّذي يمنع أغلبنا من تقديم عرض عَلَنيّ لأخطائنا وعثراتنا. صحيحٌ أنّهُ ما من شيء قادر على إثارة حسٍّ إنجليزيّ إلّا رؤية ذات إنسانيّة، تفرض على اهتمامنا ندباتها وأخطائها الأخلاقيّة، وتُمزّقُ لباس العفّة الّذي سهّل الوقتُ أو التعاطف مع الهشاشة البشريّة في إعادة نسجه."*

وهكذا، يضيفُ، أنّ المجرمين والبائسين يقومون عمومًا بأعمالهم بعيدًا

---

تُسمّى بالفارسيّة "صد دروازه" و"شهرقومس"، وباليونانيّة (كما أوردها بودلير) Hekatómpylos / Εκατόμπυλος الّتي تعني حرفيًّا "مائة باب". (المترجم).

عن مَرأى المجتمع، وفي المقابر حتّى، إنّهم يبتعدون عن عامّة النّاس، كما لو كانوا يتنازلون بتواضع عن حقوقهم جميعها في صداقة العائلة الإنسانيّة الكبيرة. لكنْ، في حالة آكل الأفيون، ليس ثمّة إجرام، ليس ثمّة سوى ضعف، بل ضعف سهل التبرير أيضًا! كما سيُثبت ذلك في سيرة أوّليّة؛ بعد ذلك، يمكن للفائدة الّتي سيستقيها الآخرون من الملاحظات المقدّمة حول تجربة كلّفت صاحبها ثمنًا باهظًا، أن تُعوّض بطريقة كافية عن العنف المُوجَّه ضدّ الأخلاق، وأن تخلق استثناءً مشروعًا.

نجدُ في هذه الرّسالة الموجّهة إلى القارئ بعض المعلومات عن شعب أكلة الأفيون الغامض، هذه الأمّة المتأمّلة الضائعة وسط الأمّة العاملة. إنّهم كثيرون، وأكثر ممّا نعتقد. إنّهم أساتذة جامعات، إنّهم فلاسفة، ملكٌ يتربّعُ على العرش، موظّف دولة صغير؛ وإذا كان هناك عدد كبير من الحالات الّتي تنتمي إلى الطبقات العليا من المجتمع، والّتي جاءت دون أن يُطلب منها، بحثًا عن معرفة شيء واحد، أيُّ إحصائيّات يمكن أن نخرج بها عن سُكّان إنجلترا كلهم! تؤكّدُ ثلاث صيدليّات في مناطق نائية جدًّا في لندن (سنة ١٨٢١) أنّ عدد هواة الأفيون كبير جدًّا، وأنّ صعوبة التمييز بين الّذين يستعملونه كعلاج، والّذين يريدون الحصول عليه لغرض آثم، يمثّل بالنسبة إليهم مصدر حرج يوميّ. لكنّ الأفيون نزل إلى زيارة أعماق المجتمع، وفي مانشيستر، بعد منتصف النهار من كلّ سبت، تمتلئ مناضد تجّار المخدّرات بكريّات الأفيون المعدّة تحسّبا لطلبيّات المساء. أمّا عمّالُ المصانع، فيمثّل الأفيون بالنسبة إليهم متعة غير باهظة، ذلكَ أنّ انخفاض الأجور يجعل من البيرة والمشروبات الكحوليّة متعة مكلفة. لكنْ، لا يذهبنّ في ظنّكم أنّ العامل الإنجليزيّ سيُقلع عن تناول الأفيون، ويرجعُ مباهج الكحول الكبيرة عندما تزداد الأجور. لقد وقع الافتتان؛ ورُوّضت الإرادة؛ وستمارسُ ذكرى النشوة الأولى طغيانها الأبديّ.

إذا أمكن للطبائع الخشنة والمُنهَكَة بعمل يوميّ لا طعم، له أن تجدَ في الأفيون مواساة كبيرة، كيف سيكون تأثيره إذنْ على عقل دقيق وواسع الاطّلاع، أو على خيال ملتهب ومثقّف، خاصّة ما إذا كان قد احترق قبل الأوان بألم مُخصب، - على عقل يتميّزُ بخيال قاتل، لمسهُ التأمّل، كي أستخدمَ العبارة المذهلة الّتي استعملها مؤلّفي؟ هذا هو موضوع الكتاب الرائع الّذي سأفرشهُ أمام عيون القارئ، كما لو كان سجّادًا سِحْريًّا. من المؤكّد أنيّ سأختصر الأشياء كثيرًا؛ ذلك أنّ دي كوينسي يميل أساسًا إلى الاستطراد؛ ويمكن لعبارة "فُكاهيّ" أن تنطبق عليه أكثر من أيّ عبارة أخرى؛ إنّهُ يقارن، في مكان واحد، تفكيرهُ بعصا صغيرة، تستمدّ حيويّتها وسِحْرها من أوراق الأشجار المتداخلة والمعقّدة الّتي تغطّيها. وكي لا يضيّع القارئ وسطَ المساحة الضّيّقة المخصّصة لي شيئًا من اللوحات المؤثّرة الّتي تُكوِّن مادّة كتابه، سأكون مُجبَرًا بأسف كبير على حذف المقدّمات المسلّية جدًّا، والأطروحات الرائعة الّتي ليس لها علاقة مباشرة بالأفيون. ومع ذلك، الكتاب ثريٌّ بما يكفي لتدبُّره حتّى في هذا الإطار الضّيّق أو داخل دائرة الاقتباس البسيط.

ينقسمُ كتاب "اعترافات آكل أفيون إنجليزيّ" إلى قسمَيْن: الأوّل "اعترافات"، والآخر الّذي يُكمّله "سوسبيريا دي بروفوندیس" (التّنفّس من الأعماق). وينقسمُ كلّ جزء إلى فصول عديدة، سأحذف بعضها الّتي كانت بمثابة التعليقات أو الملاحق. كان تقسيم الجزء الأوّل بسيطًا ومنطقيًّا، نابعًا من الموضوع نفسه: اعترافات أوّليّة، متعُ الأفيون، عذابات الأفيون. وكان لـ "الاعترافات الأوّليّة" الّتي أطَلْتُ قليلاً في الحديث عنها سبب سهل التخمين. يجب على الشخصيّة أن تكون معروفة، وأن تدفع القارئ إلى أن يحبّها، ويستسيغها. لقد أراد الكاتب الّذي أولى اهتمامًا كبيرًا بموضوع،

يبدو في ظاهره رتيبًا رتابة وصف ثمالة ما، أن يبرز إلى أيّ حدّ يمكن التسامح معه؛ وأراد أن يخلق لشخصه تعاطفًا، سيعود بالفائدة على العمل كلّه. في النهاية، وهذا أمرٌ مهمّ جدًّا، تحوّلت حكاية بعض الحوادث، المبتذلة ربمّا في حدّ ذاتها، ولكنْ، الجدّيّة والخطيرة بالنّسبة إلى حساسيّة مَن تحمّلها، إلى مفتاح مشاعره ورؤاه الاستثنائيّة الّتي ستُحاصرُ في وقت لاحق رأسَه. عجوزٌ يترنّحُ أمام طاولة في حانة، يرى نفسهُ حيًّا مرّة أخرى وسط حشد من النّاس الّذين رحلوا؛ تتشكّل ثمالته من شبابه المنقضي. إلى جانب ذلك، احتلّت الأحداث المرويّة في "الاعترافات" جزءًا كبيرًا من الرؤى اللاحقة. وستنبعث مجدّدًا مثل هذه الأحلام الّتي ليست سوى ذكريات مشوّهة أو متجلّية لهواجس إحدى الأيّام الشّاقّة.

# II
# اعترافات أوّليّة

لا، لم يكن ذلك بحثًا عن لذّة آثمة أو سهلة التحقيق عندما بدأ في استعمال الأفيون، وإنّما ببساطة، ليُقلّص من آلام معدته المتولّدة عن تعوّده القاسي على الجوع. تعود مخاوفه من المجاعة إلى سنوات شبابه الأولى، وفي الثامنة والعشرين من عمره فقط، ظهر المرضُ والعلاج لأوّل مرّة في حياته، بعد فترة طويلة من السعادة والأمن والرعاية. أمّا عن الظروف الّتي تكوّنت في إطارها هذه المخاوف القاتلة، فهذا ما سنعرفه بعد قليل.

كان عمر آكل الأفيون المستقبليّ سبع سنوات عندما توفيّ والده، تاركًا إيّاهُ في رعاية الأوصياء الّذين تكفّلوا بتعليمه الأوّل في مدارس عديدة. وفي وقت مبكّر جدًّا، تميّز بقدراته الأدبيّة، وخاصّة بمعرفة سابقة لأوانها للّغة اليونانيّة. في الثالثة عشر من عمره، كتب باليونانيّة؛ وفي الخامسة عشر، لم يكن فقط قادرًا على تأليف أبيات شعريّة يونانيّة موزونة، بل على التّحدّث بهذه اللغة بارتياح كبير، ودون أيّما حرج، موهبة قادتْهُ إلى عادة يوميّة، تتمثّل في ارتجال ترجمة يونانيّة للصحف الإنجليزيّة. دفعتْهُ ضرورة أن يوجِد في ذاكرته وخياله مجموعة من المركّبات الّتي تمكّنه من التعبير بلغة ميّتة عن أفكار وصور حديثة تمامًا إلى ابتكار قاموس دائم الجاهزيّة، وأكثر تعقيدًا واتّساعًا من تلك القواميس المملّة المؤلّفة من المصطلحات

الأدبيّة البحتَ. *"هذا الفتى، قال أحد معلّميه وهو يعرّفه بشخص غريب، يمكنه أن يحاضر وسط حشد من الأثينيّين أفضل مّما يمكننا أن نفعل أنا وأنت وسط حشد من الإنجليزيّين"*. ومع الأسف، أُبعدَ صديقنا الهلّينيّ السابق لأوانه عن هذا المعلّم الممتاز؛ وبعد أن مرّ على يَدَيْ ملقّن فظّ غالبًا ما كان يرتعش من الأخطاء الّتي يُصوّبها لهُ الطّفلُ، وُضع في رعاية أستاذ جيّد وصلب، كان هو الآخرُ يلومُهُ على قلّة لباقته دون أن يذكّره بأيّ حال من الأحوال ببريق حكمة أستاذه الأوّل. من السَّيِّئ أن يستطيع طفلٌ الحُكم على معلّميه، وأن يضع نفسهُ في مرتبة أعلى منهم. كانوا بصدد ترجمة سوفوكليس، وقبل انطلاق الحصّة، جهّز الأستاذ المتحمّس، عميدُ الأساتذة، نفسه لقراءة الأبيات بمراجعة القواعد اللغويّة والمعجم درءًا قبل بداية الدرس لأيّ تردّد وأيّ صعوبات. في ذلك الوقت، كان الشّابّ (الّذي اقترب من السابعة عشر وقتها) يتحرّق للذّهاب إلى الجامعة، وكان حديثه مع معلّميه في هذا الموضوع بلا جدوى. كان واحد منهم، رجلٌ صالحُ وعقلانيّ، يعيش بعيدًا؛ وفي الثلاثة المتبقّين، وضع اثنان منهما كلّ سلطتهما بين يَدَي الرّابع؛ ويُصوّرُ لنا هذا الأخير كما لو كان المعلّم الأكثر عنادًا في العالم، والأكثر حبًا لممارسة سلطته. وأخذ شابّنا المغامرُ قرارًا كبيرًا؛ سيهرب من المدرسة. كتب إلى امرأة ساحرة وممتازة، واحدة من صديقات العائلة الّتي توسّلها بكلّ طفوليّة أن تعطيهُ خمس جنيهات. يصل منها بعد ذلك ردّ مليء بمشاعر الأمومة، يحتوي ضعف المبلغ المطلوب. مازال في منحته المدرسيّة جنيهان، واثنا عشر جنيهًا، تمثّل ثروة طائلة بالنسبة إلى طفل، لم يعرف بعدُ ضرورات الحياة اليوميّة. ولم يبقَ له إلا أن ينفّذ قراره. إنّ المقطع الموالي هو واحد من تلك المقاطع الّتي لم أسمح لنفسي بتجاوزها. وعلاوة على ذلك، من الجيّد أن يتمكّن

القارئ من وقت إلى آخر من أن يتذوّق بنفسه الأسلوب المؤثّر و"الأنثويّ" الّذي اعتمدهُ الكاتب:

"يقدّمُ الدكتور جونسون ملاحظة دقيقة للغاية (ومليئة بالمشاعر، الأمر الّذي لا نلمسهُ في ملاحظاته جميعها للأسف) مفادها أنّنا لا يمكننا مطلقًا أن نقوم للمرّة الأخيرة بشيء نعرفه، وتعوّدنا على القيام به طويلًا، دون حزن يغمر القلب. وقد أحسستُ عميقًا بهذه الحقيقة عندما عزمتُ على مغادرة مكان، لم أحبّه، أو لم أكن سعيدًا به. في المساء السّابق لليوم الّذي كان عليّ فيه أن أهرب إلى الأبد، استمعتُ بحزن في قاعة الدّرس القديمة والعالية إلى صلاة المساء؛ لأنّني كنتُ أسمعها للمرّة الأخيرة؛ وعندما خيّمَ الليل، وقاموا بالمناداة، نودي اسمي، كالعادة، أوّلًا، تقدّمتُ إلى الأمام، وبينما أمرُّ أمام العميد الّذي كان حاضرًا، ألقيتُ عليه التحيّة؛ نظرتُ إلى وجهه بفضول، وفكّرتُ بيني وبين نفسي: إنّهُ عجوزٌ وهنٌ، ولن أراهُ مجدّدًا في هذا العالم! وكنتُ على حقّ، لأنّي لم أرهُ مجدّدًا، ولن أراهُ مطلقًا. نظر إليّ برضا، وبابتسامة دافئة، وردّ التحيّة، أو بالأحرى الوداع، وافترقنا، دون أن يشكّ لحظة واحدة في ذلك، إلى الأبد. لم أكنْ أكنّ احترامًا كبيرًا لذكائه، لكنّهُ دائمًا ما كان جيّدًا معي؛ لقد منحني امتيازات كثيرة، جعلني تذكّرها أتألّم من فكرة الموت الّتي ربطتُها به.

"طلع الصّباح، وكان عليّ أن أنطلق فوق بحر العالم، صباحٌ أخذت فيه حياتي اللاحقة كلّها، في جزء كبير منها، لونها الحقيقيّ. كنتُ أقيم في بيت العميد، وكنتُ حصلتُ منذ قدومي على امتياز غرفة خاصّة، تتميّزُ هي الأخرى بانقسامها إلى غرفة نوم وحجرة للدراسة. في الثالثة والنّصف فجرًا، استيقظتُ، شاهدتُ بتأثّر عميق أبراج الـ ..... القديمة،

المزركشة ببريق الفجر الأوّل، والّتي بدأت تحمرّ بالبريق المشرق لصباح حزيرانيّ بلا سُحب. كنتُ صارمًا ومتمسّكًا بقراري، ولكنْ، كنتُ مرتبكًا، مع ذلك، بخوف غامض من العراقيل والأخطار الممكن حدوثها؛ وإذا أمكنني وقتها توقّع العاصفة، والبرد الحقيقيّ الّذي سيتسبّبُ به الحزن الّذي سينقضُّ عليّ لاحقًا، لكنتُ حقًّا تصرّفتُ بطريقة أخرى. شكّل سلامُ الصّباح العميق تباينًا مع ارتباكي، وكان بمثابة الدّواء لهُ. كان الصمت أعمق ممّا كان عليه في منتصف الليل؛ وبالنسبة إليّ، فإنّ صمت صباح صيفيّ أعمق بكثير من أيّ صمت آخر، ذلك أنّ الضوء، وإن كان قويًّا ورحبًا، مثل ضوء منتصف النّهار في الفصول الأخرى من السنة، يبدو مختلفًا عن وضح النّهار خاصّة وأنّ الإنسان لم يخرُجْ بعدُ من بيته؛ وإلى جانب هذا، يبدو سلام الطبيعة والمخلوقات الإلهيّة البسيطة عميقًا وثابتًا، طالما لم يُربك حضور الإنسان وعقله القلق الّذي لا يهدأ قداسة المشهد. ارتديتُ ملابسي، أخذتُ قبّعتي وقفّازاتي، وترنّحتُ قليلًا في غرفتي. منذ عام ونصف، كانت هذه الغرفة قلعة أفكاري؛ هنا، قرأتُ ودرستُ لساعات طويلة من الليل، ورغم أنّي في الفترة الأخيرة، فقدتُ، بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى، أنا الّذي خُلقتُ من أجل الحُبّ والأفكار الجميلة، بهجتي وسعادتي في خضمّ الصراع المحموم الّذي خضتُهُ مع معلّمي، فإنّ فتى مثلي، يعشق الكُتُب، ويُدمن البحوث الفكريّة، لم يستطع من ناحية أخرى ألّا يستمتع ببعض الساعات السعيدة في خضمّ إحباطه ذاته. بكيتُ وأنا أرى حولي الكرسيّ والموقد وطاولة الكتابة، والأشياء المألوفة كلها الّتي كنتُ متأكّدًا من أنّني لن أراها مجدّدًا. ومنذ ذلك الحين إلى الساعة الّتي أخطّ فيها هذه الأسطر، مضت ثماني عشرة سنة، ومع ذلك، في هذه اللحظة بالّذات، أرى بوضوح، كما لو كان ذلك

بالأمس، محيطَ وملامح الشيء الّذي ثبّتت عليه نظرة الوداع؛ لقد كان صورة لتلك الساحرة(*) ... معلّقة فوق الموقد؛ كانت عيناها وفمها جميلَيْن جدًّا، ولفرط ما كانت تشعُّ طيبة ونقاءً إلهيًّا، أسقطتُ ألف مرّة قلمي أو كتابي، كي أطلب العزاء من صورتها، كما لو كنتُ مريدًا أمام شيخه. وبينما نسيتُ نفسي في خضمّ تأمّلها، أعلن صوت الساعة العميق أنّها الرابعة. لم أقترب من شيء آخر غير تلك الصورة، قبّلتُها، ثمّ خرجتُ بهدوء، وأعدتُ إغلاق الباب إلى الأبد!

"إنّ فرص الضّحك وفرص البكاء تتقاطعُ وتختلطُ كثيرًا في هذه الحياة، الأمر الّذي يجعلني غير قادر على تذكّر مصادفة وقعت، لتُعرقل التنفيذ المباشر لخطّتي، دون أن أضحك. كانت لديّ حقيبة ثقيلة جدًّا؛ لأنّها كانت تحتوي، إلى جانب ملابسي، على مكتبتي كلّها تقريبًا. وكانت الصعوبة متمثّلة في إيصالها إلى أحد الخَدَم. كانت غرفتي في الطابق العلويّ، وما جعل الأمر يسوء أكثر، أنّ الدّرج المؤدّي إلى باب الخروج يؤدّي أيضًا إلى ممرّ يقع أمام باب غرفة العميد مباشرة. كنتُ محبوبًا من الخدم جميعهم، وبِعَدِّ أنّي كنتُ واثقًا من أنّ أيّ واحد فيهم سيسارع إلى خدمتي سرًّا، إذا طلبتُ ذلك، أخبرتُ واحدًا من خَدَم غرفة العميد بمشكلتي. أقسم أنّه سيفعل كلّ ما أطلبه منه، وعندما حان الوقت المناسب، صعد الدّرج، ليحمل الحقيبة. كنتُ خائفًا جدًّا من أن يفوق وزن الحقيبة قوّة رجل واحد، لكنّ هذا الغلام كان محاربًا جيّدًا

بكتفَيْن أطلسيَّيْن جُعلا، ليتحمّل

وزنَ أكثر الممالك قوّة ...

---

*) ربّما يقصد امرأة العشر جنيهات.

كان لديه ظهر واسع مثل سهول ساليزبوري. أصرّ إذنْ على حمل الحقيبة وحده، بينما مكثتُ أنتظرهُ أسفل الطابق الأخير، وقد تملّكني القلق. سمعتُه لبعض الوقت ينزلُ بخطوات حذرة وبطيئة، ولكنْ، للأسف، وبسبب قلقه، عندما شارف على الوصول إلى المكان الخطير، على بُعد بضع خطوات من الممرّ، انزلقتْ رجلهُ، وسقط الحمل الثّقيل من على كتفَيْه بسرعة، تتصاعد مع كلّ درجة من السّلّم، وعندما وصلت الحقيبة إلى الأسفل لفّت، أو بالأحرى اتّجهت مباشرة، بضجّة عشرين شيطان، إلى باب غرفة نوم العميد. فكّرتُ أوّل الأمر في ضياع كلّ شيء، وعرفتُ أنّ فرصتي الوحيدة المتبقّية للهروب تتطلّبُ التضحية بالحقيبة. لكنّ ذلك لم يتجاوز لحظة تفكير واحدة، وقرّرتُ أن أنتظر نهاية المغامرة. كان الغلام خائفًا على نفسه وعليّ بشكل فظيع؛ ولكن، رغم هذا كلّه، كانت الفكاهة في خضمّ هذه المصيبة المؤسفة تتملّكُ روحه، بطريقة لا تُقاوَمُ، وإلى درجة انفجر فيها ضاحكًا، - بل كانت ضحكة مطوّلة وصاخبة وعشوائيّة، يمكنها أن تُوقِظَ حتّى أهل الكهف. وأمام موسيقى ضحكته البهيجة الّتي تناهت إلى سمع السلطة المهانة، لم أستطع تمالك نفسي من الضحك أيضًا، لا بسبب سقوط الحقيبة، بل للتأثير العصبيّ المترتّب عن سقوطها على نفسيّة الغلام. كنّا نتوقّع، بطبيعة الحال، رؤية الدكتور يُسرع إلى الخروج من غرفته؛ ذلك أنّه في سائر الأيّام، إذا حصل وسمع ضحكة واحدة في الخارج كان يثبُ من وجاره مثل كلب. غير أنّ الغريب في هذه المناسبة أنّهُ عندما هدأت ضحكاتنا، لم نسمع صوت أيّ حركة ولا أيّ نفس خارج من الغرفة. كان الطّبيب يعاني من وهن مؤلم، يُبقيه مستيقظًا في بعض الأحيان، ولكنْ، ربّما يجعله، في حال تمكّن من النوم، ينامُ بعمق أكبر. متشجّعًا بالصمت الّذي خيّم على المكان، أعاد الغلام، وضع حمله على كتفَيْه، وأكمل

المسافة المتبّقية دون وقع أيّ حادث. انتظرتُ حتّى رأيتُ الحقيبة فوق عربة، وفي طريقها إلى السيّارة. وهكذا دون أيّ مرشد غير العناية الإلهيّة، رحلتُ على الأقدام، حاملاً معي علبة صغيرة، تحتوي على بعض الأشياء الخاصّة بالتجميل، شاعرٌ إنجليزيّ مفضّل في جيبي، وفي الجيب الآخر، كتاب صغير يحتوي تقريبًا على تسع مسرحيّات لأوريبيد."

كان تلميذنا معجبًا بفكرة الذهاب إلى واست مورلاند، لكنّه بسبب حادث، لا يفسّره لنا، انتهى به الأمر في الشمال. وبعد أن تسكّعَ قليلاً في الدينبيغ شاير والميريونث شاير، والكيمارفون شاير ، استقرّ في بيت صغير نظيف في بـ ...؛ لكنّه سيرحل مجدّدًا بعد حدوث واقعة، أغضبت كبرياءهُ الشّابّ بالطريقة الأكثر كوميديّة الّتي يمكن أن تحدث. كانت مضيفتهُ تعمل في بيت أسقف، إمّا متصرّفة أو مربّية للأطفال. وفي حالة مثل هذه يكون التأثير الرهيب لرجال الدّين الإنجليزيِّيّن لا فقط على أطفال العائلات المرموقة، وإنّما على الخَدَم أيضًا. وذلك ما يجعل أن تعيش وسط عائلة أسقف في مدينة صغيرة مثل بـ ...، كافيًا لجعلكَ مختلفًا بعض الشّيء؛ إلى درجة أنّ الخادمة كانت لا تكفّ عن استعمال جمل من نوع: "ميلورد يفعل كذا وكذا؛ ميلورد كان رجلاً لا غنى عنه في البرلمان؛ ميلورد لا غنى عنه في أكسفورد ..." وربّما وجدت أنّ الشّابّ لا يستمع بانتباه كبير إلى أحاديثها. وذات يوم ذهبت إلى العمل في بيت الأسقف، فسألها عن أحوالها. وعندما علم أنّها أجَّرَت بيتها، أوصاها الأسقف المحترم بأن تكون صعبة للغاية، بشأن اختيار المستأجرين: "بِيتّي، قال، لا تنسي أنّ بيتكِ يقع على الطريق الكبير المؤدّي إلى العاصمة، بطريقة يمكن أن تجعلهُ محطّة للمحتالين الإيرلنديّيْن الهاربين من دائني إنجلترا، وللمحتالين الإنجليزيّيْن الّذين لهم ديون متخلّدة في جزيرة مان." ولم تنسَ السّيّدة،

وهي تنقل بكبرياء الحديث الّذي دار بينها وبين الأسقف، أن تضيفَ إجابتها: "أوه! ميلورد، لا أظنّ أنّ هذا الشّابّ يمكن أن يكون محتالًا، ذلك أنّه ..." – "لا تظنّي أنّني يمكن أن أكون محتالًا! أجاب التلميذ الشّابّ مستاءً؛ سأُجنّبكِ من هنا فصاعدًا عناء التفكير في مثل هذه الأمور." ونهض يستعدّ للمغادرة. أرادت مضيفتهُ المسكينة أن تهدّئ من روعه، ولكنّ غضبهُ دفعهُ إلى التّفوّه بكلمات لا تُقالُ في بيت أسقف، وصارت أيّ مصالحة مستحيلة. "كنتُ، قال، مستاءً للغاية بسبب السهولة الّتي جرّمَ من خلالها الأسقف شخصًا لم يرهُ في حياته، وتمنّيتُ لو يُسمح لي بفرصة، أُعرّفهُ فيها بثقافتي ومعارفي اليونانيّة، الأمر الّذي إلى جانب كونه سيُمكّنني من إبراز أنّني رجل شريف، سيفرض عليه أن يُجيبني باللغة نفسها: الحالة الوحيدة الّتي أتأكّدُ فيها من أنّهُ سيعرفُ أنّني وإن لم أكن غنيًّا مثل سيادته، فإنّني أفضل منه ثقافة ومعرفة، وأنّ أفكارًا أكثر قداسة من تلك الّتي يحملها أدّت إلى ما أنا عليه..."

عادت حياة التيه الّتي كان يعيشها لتبدأ من جديد، ومن فندق إلى آخر، وجد نفسهُ بسرعة متجرّدًا من أمواله كلّها. ولمدّة خمسة عشر يومًا، كان مُجبَرًا على تناوُل وجبة واحدة في اليوم. وجعلت حركتهُ المستمرّة وهواء الحقول الّذي يؤثّر بقوّة على معدته الشّابّة، من هذه الحمية مؤلمة جدًّا؛ ذلك أنّ هذه الوجبة الواحدة كانت تتمثّل في قهوة أو كأس شاي. وفي النهاية، صارت القهوة والشاي رفاهًا مستحيلًا، وطوال فترة إقامته في الشّمال كلّها، كان يقتاتُ على العلّيق والتوت البرّيّ. ومن وقت إلى آخر، تقطعُ استضافة ما، مثل حفلة، حميّة النّاسك الّتي كان يتّبعها، وكان غالبًا ما يقدّم مقابل هذه الضيافة بعض خدمات كاتب عموميّ. فيكون سيكريتير المتساكنين الذين لديهم بعض الأقارب في لندن أو ليفربول.

وفي أغلب الأحيان، يتمثّل عمله في كتابة رسائل حُبّ، تكلّفهُ بكتابتها الفتيات اللائي جئنَ للعمل خادمات في منازل ساليزبورغ أو أيّ مدينة في ساحل إنجلترا، وتركنَ أحبّتهُنّ خلفهنّ. وقد وقعت في هذا الإطار حادثة مؤثّرة. في جزء ناءٍ من مريونث شاير في لان – ستاندر كان قد مكث أكثر من ثلاثة أيّام عند مجموعة من الشّبّان الذين كانوا يعاملونه أحسن معاملة؛ أربع فتيات وثلاثة أولاد، يتحدّثون الإنجليزيّة كلّهم، وهم موهوبون بأناقة وجمال أصيلَيْن وفريدَيْن من نوعهما. كتب رسالة لأحد الأخوَيْن، يطالب فيها، بعد خدمته في باخرة حربيّة، بمستحقّاته، وبسرّيّة أكبر، رسالَتَي حُبّ لإحدى الأخوات. وكانت هذه المخلوقات الساذجة، بصمتها وتميّزها الطبيعيّ وخجلها المتواضع، تتذكّر، وهي تملي تعليماتها عليه، أكثر ذكرياتها حساسيّة ورقّة. وكان ينجز عمله بشكل جيّد، إلى درجة صارت فيها الفتيات البيض مندهشات من قدرته على التوفيق بين حيائهنّ ورغبتهنّ السّرّيّة في الحديث عن أكثر الأشياء الحميمية. لكنْ، في صباح أحد الأيّام لاحظ حرجًا غير مسبوق، بل كادت تكون مصيبة؛ عاد والداهُم، أناس متجهّمون ومتقشّفون، بعد أن تغيّبا عن البيت لحضور لقاء سنويّ، يقوم به القساوسة في كايرنارفون. وأمام الجمل اللبقة كلها الّتي وجّهها إليهم الشّابّ، لم يحصل على إجابة أخرى غير: "ديم ساسيناش" (لا نفهم الإنجليزيّة). "ورغم كلّ ما قاله الشّبّان في مدحي، فهمتُ بسهولة أنّ موهبتي في كتابة رسائل الحُبّ ستصبح بلا جدوى أمام هؤلاء القساوسة، مثلها مثل أبياتي الموزونة على الطريقة الإغريقيّة القديمة." وخوفا من أن تتحوّل الحفاوة الّتي استقبله بها الشبّان إلى شفقة مرعبة على أيدي هذين العجوزين، عاد إلى حجّه المستمرّ.

لا يخبرنا الكاتب بأيّ طريقة بارعة تمكّن، رغم فقره، من التّنقّل إلى

لندن. لكنْ، هنا، يصبح الفقر، القاسي بطبيعته، رهيبًا جدًّا، بل يستحيل عذابًا يوميًّا. ويمكننا أن نتخيّل ستة عشر أسبوعًا من العذاب الناجم عن الجوع المستمرّ والمُخفّف بالكاد ببعض قِطَع الخبز المسروقة من طاولة رجل، سنتحدّث عنه لاحقًا؛ أمضى شهرَيْن كاملَيْن في الشوارع، ينامُ نومًا متقطّعًا بالمخاوف والروائح الكريهة. من المؤكّد أنّ هروبه من المدرسة كان يكلّفه غاليًا. عندما جاءت مواسم الأمطار، كما لو لتزيد من معاناته الّتي بدا أنّها لا يمكن أن تتفاقم أكثر ممّا وصلت إليه، كان لحظّه أن وجد مأوى، ولكنْ، أيُّ مأوى! سمحَ له الرّجل الّذي كان يذهب إليه في الغداء، ويسرق منه بعض قطع الخبز (كان هذا الأخير يعتقد أنّه مريض، ولا يدرك أنّهُ خالي الوفاض)، بالنوم في منزل واسع، وغير مؤثّث، كان قد استأجره. وفيما يتعلّق بالأثاث، لم يكن ثمّة غير طاولة وبعض الكراسي؛ صحراء مغبرّة؛ مليئة بالجرذان. ووسطَ هذا الخراب، تعيش فتاة صغيرة فقيرة، ليست غبيّة، وإنّما أكثر من بسيطة، وليست جميلة بكلّ تأكيد، وفي العاشرة من عمرها، إذا لم يجعّد الجوع الّذي كانت تواجهه ملامح وجهها. هل كانت مجرّد خادمة أو أنّها ابنة هذا الرّجل؟ لم يعرف الكاتب ذلك أبدًا. بدت الفتاة المهملة سعيدة جدًّا عندما عرفت أنّه سيكون لها مرافق، يؤنس وحدتها في ساعات الظلام الطويلة. كان المنزلُ واسعًا، وجعل غياب الأثاث والمفروشات من صدى الأصوات داخله كبيرًا؛ وكانت أصوات الجرذان تملأ الغرف والدّرج ضجيجًا. ووسطَ أوجاعها الجسديّة المترتّبة عن البرد والجوع، خلقت الفتاة البائسة ألمًا آخر خياليًّا: كانت تخاف من أشباح العائدين من الموت. وعدها الشّابّ بحمايتها منهم، ويضيف بطريقة مضحكة إلى حدّ ما: "لقد كانت تلكَ المساعدة كلّها الّتي يمكنني أن أقدّمها إليها". كان هذان الكائنان الفقيران الهزيلان الجائعان المرتجفان

ينامان على الأرض، ويضعان تحت رأسَيْهما مخدّتان من الأوراق البالية دون غطاء آخر غير معطف بالٍ قديم. مع ذلك، اكتشفا لاحقًا وجودَ غلاف أريكة قديمة وقطعة صغيرة من سجّاد وبعض الملابس البالية الأخرى في المخزن العلويّ، ومكّنهم ذلك من بعض الدفء الإضافيّ. كانت الطفلة المسكينة تقتربُ منهُ، كي تتدفّأ، وكي تحتمي من أعدائها من العالم الآخر. وعندما لم يعد مريضًا كما كان، كان يأخذها بين ذراعَيْه، وكانت الصغيرة، متدفّئة بهذا العناق الأخويّ، تنام، بينما لا يتمكّن هو من ذلك. ذلكَ أنّهُ خلال شهرَي المعاناة الأخيرَيْن، كان ينامُ كثيرًا في النهار، أو بالأحرى ينغمسُ في نعاس مفاجئ؛ نومٌ سيِّئ مليء بالأحلام المضطربة؛ كان يستيقظ بلا توقّف، وينامُ بلا توقّف، يُربكُ الألم والخوف نومَهُ بعنف، ويُجبرهُ الإرهاق على العودة إلى النوم. مَنْ هو الرّجل العصبيّ الّذي لا يعرف نوم الكلب، كما تقول اللغة الإنجليزيّة بقوّتها الاختزاليّة؟ ذلك أنّ الآلام النفسيّة تُنتج آثارًا مماثلة لتلك المترتّبة عن آلام جسديّة مثل الجوع. تسمعُ نفسكَ تتأوّه؛ وأحيانًا تستفيق على صوتكَ نفسه؛ ستنحسرُ معدتكَ بلا توقّف، ثمّ تتلوّى داخل قبضتكَ القويّة، كما لو كانت تضطهدها؛ يتقلّصُ الحجاب الحاجز، ويعلو مجدّدًا؛ يضطرب التّنفّس، ويتصاعدُ الرّعبُ إلى أن تنفجر الطبيعة البشريّة، واجدة الخلاص في شدّة الألم نفسها، في صرخة كبيرة، وفي هزّة يهتزّها الجسدُ كلّه تؤدّي في النهاية إلى خلاص عنيف.

مع ذلك، كان سيّد البيت، في بعض الأحيان، يأتي فجأة، ومبكّرًا جدًّا، وفي بعض الأحيان الأخرى، كان لا يأتي مطلقًا. كان في حالة تأهّب دائمة، بسبب المخبرين الّذين يحقّقون في عملية كرمويل، وينامون كلّ ليلة في حيّ مختلف؛ يتفحّصُ من خلال كوّة هيئة النّاس الّتي تطرق الباب؛ يتناول الغداء وحدهُ ببعض الشاي، وقليل من الخبز أو بعض البسكويت الّذي

اشتراه في الطريق، ولا يستدعي أحدًا مطلقًا. وخلال هذا الغداء المقتصد للغاية، كان الشّابّ يجد بمهارة بعض الأعذار، ليبقى في غرفته، ويُنهي المحادثة؛ ثمّ بكلّ اللامبالاة الّتي يمكنه أن يُبديها، ينقضُّ على فتات الخبز المتبقّي على الطاولة؛ ولكنْ، أحيانًا لا يبقى له أيّ شيء. ويُلتَهَمُ كلّ شيء، بينما لا يُسمحُ أبدًا للفتاة بدخول غرفة هذا السّيّد الّتي يمكن أن نسمّيها هكذا: فوضى من الأوراق والوثائق. في السادسة، تخرج هذه الشخصيّة الغريبة، وتُغلق باب غرفتها. وفي الصباح، بمجرّد أن يأتي حتّى تنزل الصغيرة لخدمته. وعندما تحين ساعة عمله، يخرج المتشرّد الشّابّ، ليتسكّعَ أو يجلس في إحدى الحدائق أو غيرها. وفي الليل، يرجع إلى مهجعه آسفًا، وفي رمشة عين، تقفز الفتاة مرتجفة، كي تفتح الباب الأماميّ.

في سنواته الأكثر نضجًا، ذات ١٥ أوت، يوم مولده، ذات ليلة، على الساعة العاشرة، أراد الكاتب أن يُلقي نظرة على ملجإ مآسيه القديمة. وداخل الوهج المتلألئ لغرفة جلوس جميلة، رأى أناسًا يشربون الشّاي، ويبدون في سعادة تفوق الإمكان؛ تباينٌ غريب مع الظّلام والبرد والصمت والخراب الّذي كان يعمّ هذا المبنى نفسه عندما احتضن قبل ثمانية عشر عامًا طالبًا جائعًا وفتاة صغيرة ضائعة. بعد ذلك، بذل بعض الجهد، ليتعقّب أثر هذه الطفلة المسكينة. هل عاشت؟ هل أصبحت أمًّا؟ ولا معلومة واحدة. كان يحبّها بِعَدِّها شريكته في البؤس؛ ذلك أنّها لم تكن جميلة ولا لطيفة، ولا ذكيّة حتّى. لا إغواء آخر غير ذلك الوجه الإنسانيّ، الإنسانيّة الخالصة منحسرة في تعبيراتها الأكثر فقرًا. ولكنْ، مثلما قال، أظنّ، روباسبيار بأسلوبه الجليديّ المُحرق، الصلب والجامد مثل فكرة تجريديّة: "الإنسان لا يرى الإنسان دون متعة!"

لكنْ، ما الّذي يصنعه ذلك الرّجل، ذلك المستأجر صاحب العادات

الملغزة؟ لقد كان واحدًا من رجال الأعمال، الّذين يمكن أن تجدهم في المُدُن الكبرى جميعها، الغارقين في متاهات معقّدة، المتحيّلين على القانون، والمتخلّين عن ضمائرهم لوقت معيّن، منتظرين أن يسمح لهم وضع أكثر أريحيّة بالعودة إلى استعمال هذا الترف المزعج. يقول لنا الكاتبُ إنّه كان بإمكانه، إذا أراد، أن يُمتّعنا على حساب هذا البائس، وأن يروي لنا مشاهد غريبة، وحلقات مضحكة، لكنّه أراد أن ينسى كلّ شيء، وأن لا يتذكّر غير شيء واحد: هو أنّ هذا الرّجل، الفقير مقارنة بنظرائه، كان في خدمته دائمًا، وكريمًا حتّى، أو على الأقلّ عندما كان بمقدوره أن يكون كذلك. وباستثناء الغرفة المليئة بالأوراق، كانت الغرف كلّها على ذمّة الطفلَيْن اللّذَيْن كان لهما خيار واسع من الغرف في كلّ ليلة، وكانا يستطيعان لقضاء ليلتهما أن ينصبا خيمتهما أينما يبغيان.

لكنْ، كانت للشّابّ صديقة أخرى، حان الوقت، لنتحدّث عنها. وأريد لأنقل بنزاهة هذه الحلقة، أن أسرقَ، لِأَقُلْ، ريشة من جناح ملاك، لفرط ما بدت لي هذه اللوحة دافئة ومليئة بالبراءة والسُّمُوّ والرحمة. " استمتعتُ في الأوقات كلها، يقول الكاتب، بالحديث بطريقة بسيطة، وأكثر من سقراطية، مع الكائنات البشريّة كلّها من نساء ورجال وأطفال، استطاعت الصدفة أن ترميهم في طريقي؛ ومثّل لي ذلك عادة مناسبة لمعرفة الطبيعة الإنسانيّة، والمشاعر الجميلة، والبساطة الّتي تناسبُ رجلًا يريد أن يستحقّ لقب فيلسوف. ذلك أنّ الفيلسوف لا يجب أن يرى بعينَي هذا المخلوق البائس والضئيل الّذي يسمّي نفسه إنسانًا متحضّرًا، والمليء بالأحكام المُسبَّقة الضّيّقة والأنانيّة، بل أن يرى نفسه، عكس ذلك، كيانًا كاثوليكيًا بحقّ، في تعاون وعلاقات متساوية مع كلّ ما هو فوق وكلّ ما هو تحت، مع المتعلّمين وغير المتعلّمين من الناس، مع

المجرمين ومع الأبرياء على حدّ السواء." سنرى لاحقًا، بفضل الملذّات الّتي سيهبها له الأفيون السخيّ، إعادة إنتاج هذه الرّوح المنذورة للفضيلة والأخوّة الكونيّة، ولكنْ، مُفعّلة ومتضخّمة بعبقريّة الثمالة الفريدة. كان الطّالب في شوارع لندن، أكثر ممّا كان عليه في السنوات الّتي قضّاها في الشمال، أشبه بحواريّ، أو فيلسوف شارع، وكان يتأمّل بلا توقّف داخل صخب المدينة الكبيرة. يمكن للحلقة الّتي نحن بصددها أن تبدو غريبة في الصفحات الإنجليزية، لأنّه من المعروف أنّ الأدب البريطانيّ ميّال إلى العفّة والحكمة؛ ولكنّ المؤكّد، أنّه تكفي معالجة الموضوع نفسه بقلم فرنسيّ حتّى يتحوّل إلى فظاعة، بينما لا يوجد هنا غير الفضيلة واللياقة. ولقول ذلك في كلمَتَيْن، ارتبط متسكّعنا بصداقة أفلاطونيّة مع فيلسوفة حُبّ. لم تكن آن واحدة من تلك الجميلات الجريئات المغريات اللائي تتألّق عيون الشياطين الّتي تمتلكهنّ من خلال الضباب، واللائي يصنعنَ هالتهنّ من وقاحتهنّ. آن مخلوقة بسيطة جدًّا، عاديّة جدًّا، مجرّدة من كلّ شيء، مهملة مثل الكثيرين، محطّمة بسبب الخيانة. لكنّها تتميّز بتلك النعمة الّتي لا يمكن تسميتها، نعمة الضّعف والوداعة الّتي عرف غوته كيف يستلهمها من النساء كلهنّ اللّائي في رأسه، ليجعل من صغيرته مارغريت صاحبة اليَدَيْن الحمراوَيْن مخلوقة خالدة. كم مرّة، خلال تجوّلهم الرتيب في شارع أكسفورد الّذي لا ينتهي، ووسط اضطراب المدينة الكبيرة المليئة بالنشاطات، توسّل فيها الطالبُ الجائع من صديقته البائسة مساعدة قاضٍ، يقفُ أمام البائس الّذي سرقهُ، وأصرّ على اعتماد شهادته وبلاغته! كانت آن أصغر منه، ولم يكن عمرها غير ستّة عشر عامًا. كم مرّة ستحميه من أعوان الشرطة الّذين يريدون طَردهُ من الأماكن الّتي يأوي إليها! مرّة، فعلت أكثر من ذلك، هذه المهملة المسكينة: كانا يجلسان في ساحة

سوهو، على عتبة منزل، يعترف أنّهُ منذ ذلك الحين، لا يمرّ أمامه دون أن يخدش قلبهُ بمخلب تلك الذكرى، ودون أن يصلّي في داخله لذكرى هذه الفتاة البائسة والكريمة. يومها، شعر أنّه أكثر وهنًا، وأكثر مرضًا من المعتاد؛ ولكنْ، بمجرّد أن جلس حتّى شعر بألمه يزداد سوءًا. وضعَ رأسهُ على صدر شريكته في سوء الحظّ، وفجأة، انفلت من بين ذراعَيْها، وسقط على ظهره فوق درجات العتبة. ودون منبّه قويّ، سينتهي أمره، أو على الأقلّ، سيسقط إلى الأبد في حالة من الوهن الّتي يصعب معالجتها. وفي هذه المحنة المصيريّة، وُجد المخلوق الضائع الّذي قدّم له يد الخلاص، هي الّتي لم تعرف في الحياة غير الإساءة والظلم. أطلقت صيحة فزع، ودون أن تضيّع ثانية واحدة، ركضت في شارع أكسفورد، وعادت بسرعة بكأس حارّ من البورتو الّذي يكون مفعولهِ ناجعًا على معدة فارغة، ولا تستطيع تحمّل أيّ طعام صلب. "أيّتها المحسنة الشّابّة! كم مرّة في السنوات الموالية، بينما كنتُ مُلقى في أماكن معزولة، حلمتُ بكِ بقلب مليء بالحزن وحبّ حقيقي، كم مرّة تمنّيتُ أن تكون لمباركة قلب مليء بالامتنان تلك الأولويّة وتلكَ القوّة الخارقة الّتي نسبها القدامى إلى لعنة أب، يطاردُ هدفهُ بصرامة الموت الصارمة! – أرجو أيضًا أن تُمكّن السّماء امتناني من أن يلاحقكِ، ويطاردكِ، ويتابعكِ، ويفاجئكِ، ويغمركِ إلى آخر نقطة في ظلام لندن الدّامس، أو حتّى، إذا كان ذلك ممكنًا، في ظلام القبر، ليُوقظكِ برسالة سلام أصيلة، رسالة عفو وتصالح نهائيّ!"

يجب على المرء أن يعاني كثيرًا، كي يكون له هذا الإحساس، يجب أن يكون واحدًا من تلك القلوب الّتي فتحها البؤس، وليّنها، عكسَ تلك الّتي أغلقها وأقساها. إن بدويّ الحضارة يتعلّم في صحراء المُدُن الكبيرة الكثير من دوافع الحنان الّتي يجهلها الإنسان الّذي تقف حساسيّته في

حدود البيت والعائلة. ثمّة في جحيم العواصم، كما في الصحراء، أشياء تُحصّن وتصوغ قلب الإنسان الّذي يحصّنهُ بطريقة أخرى، عندما لا ينحرف به، ولا يُضعفه حدّ التّحطّم وحدّ الانتحار.

ذات يوم، بعد فترة وجيزة من هذا الحادث، التقى في شارع ألبيمارل بصديق قديم لوالده، تعرّف إليه من خلال مظهره العائليّ؛ أجاب عن أسئلته كلّها بصراحة دون أن يخفي شيئًا، لكنّه طلب منهُ كلمتهُ في أن لا يقول شيئًا لمعلّميه. وفي النهاية، أعطاهُ عنوان بيت مضيفه، المحامي الاستثنائيّ. وفي اليوم الموالي، تلقّى في رسالة، سلّمها له مضيفه بكلّ أمانة، ورقة نقديّة بعشر جنيهات.

قد يتساءل القارئ، لماذا لم يبحث الشّابّ منذ البداية عن حلّ لفقره، سواء من خلال عمل منتظم، أو من خلال طلب مساعدة أصدقاء العائلة القدامى. وفيما يتعلّق بهذه الإمكانيّة الأخيرة، كان ذلك يمثّل خطرًا حقيقيًّا بالنسبة إليه. يمكن أن يصل الأمر إلى معلّميه، والقانون يعطيهم السلطة كلّها، كي يُرجعوا الشّابّ بالقوّة إلى المدرسة الّتي هرب منها. في حين أنّ طاقة مثل الّتي كان يملكها، والّتي غالبًا ما تكون في الشخصيّات الأكثر أنثويّة والأكثر حساسيّة، زوّدته بشجاعة تحمّل الحرمان كلّه والأخطار كلّها، ولا يجازف باحتمال مذلّ مثل هذا. ثمّ، أين سيجد هؤلاء الأصدقاء، وهو لم يلتق بهم منذ مات والده قبل عشر سنوات، هؤلاء الأصدقاء الّذين نسي أسماءهم، أو أسماء أغلبهم على الأقلّ؟ وأمّا بالنسبة إلى العمل، فمن المؤكّد أنّه كان يستطيع إيجاد مصدر رزق معقول، من خلال مراجعة ما يُكتب باليونانيّة، وكان يشعر أنّه قادر على أداء مهامّه بطريقة مثاليّة، ولكنْ، أيضًا كيف سيتدبّر أمر تقديم نفسه إلى ناشر محترم؟ في النهاية، ولقول كلّ شيء، يعترف أنّه لم تدخل إلى رأسه فكرة أنّ العمل الأدبيّ يمكن أن يصبح

بالنسبة إليه مصدر أيّ ربح على الإطلاق. لم يسبق له أبدًا، كي يخرج من وضعه البائس، أن استعان بوسيلة أخرى غير اقتراض المال مقابل الحظّ الّذي كان له الحقّ في انتظاره. وفي النهاية، تمكّن من التّعرّف إلى بعض اليهود الّذين كلّفوا المحامي بالاعتناء بشؤونهم المظلمة، وأثبت لهم آماله الكبيرة، لم يكن ذلك صعبًا، فبإمكانهم التّحقّق من تأكيداته، من خلال وصيّة أبيه المودعة في "الدكتور' كومنز"(*). لكنْ، بقي سؤال، لم يكن يتوقّعه على الإطلاق، وكان يتعلّق بهويّته واسمه الكامل. أخرجَ بعض رسائل أصدقائه الشّبّان الّذين من بينهم الكونت دي ... وحتّى والده الماركيز دي ... كُتبت له عندما كان يعيش في الشمال، وكان يحملها معه دائمًا. تفضّل اليهود في النهاية بوعد بمائتَي أو ثلاثمائة جنيه شرط أن يتعهّد الشّابّ الكونت دي ... (الّذي، بالمناسبة، لم يكن أكبر منهُ بكثير) بسدادها بالفائض المتّفق عليه. يمكن أن نخمّن أنّ هدف المُقرض لم يكن تحصيل شيء من الربح من خلال عمل ما، هذا قليل جدًّا، بالنسبة إليه في نهاية الأمر، وإنما أن يدخل في علاقة مع الكونت الشّابّ الّذي يعرفُ جيّدًا الثروة الطائلة القادمة إليه. وهكذا، بمجرّد أن أخذ جنيهاته العشر، شرعَ شابّنا الرّحّالة يستعدّ للذهاب إلى إيتون. ترك حوالي ثلاث جنيهات مصاريف الوثائق الّتي سيطلبها مُقرِضُهُ المستقبلي؛ قدّم أيضًا بعض الأموال إلى المحامي لتعويضه عن ضيافته بلا أثاث؛ خمسة عشر شيلينغ لتحسين الهندام قليلًا (أيُّ هندام!)؛ وفي النهاية، كان لآن المسكينة نصيب من هذه الثروة أيضًا. في مساء شتويّ قاتم، اتّجه إلى بيكاديللي برفقة الفتاة المسكينة، بنيّة الوصول إلى سالت هيل مع حقيبة البريستول. وبِعَدٍّ أنّه

---

(*) Doctors' Commons: تُسمّى أيضًا "كُلّيّة المدنيّين"، جمعيّة محامين يُطبّقون القانون المدنيّ في لندن.

كان لديهم متّسع من الوقت، دخلا إلى الغولدن سكوار، وجلسا في زاوية شارع شيرارد، لتجنّب صخب بيكاديللي وأضوائها. وعدها بأنه لن ينساها، وأنّه سيأتي إلى مساعدتها ريثما يكون ذلك ممكنًا. في الحقيقة، كان ذلك واجبًا، بل واجبًا مُلزِمًا، وأحسّ في تلك اللحظة أنّ حبّه لهذه الشقيقة التي رمت بها المصادفة في طريقه، مُضاعَفًا بالشفقة الّتي ألهمته إيّاها كآبته الشّديدة. رغم الأضرار كلّها الّتي لحقت بصحّته، كان مبتهجًا بعض الشيء ومفعمًا بالأمل، بينما كانت آن حزينة بطريقة قاتلة. في لحظة الوداع، وضعت يَدَيْها حول رقبته، وشرعت في البكاء دون أن تنبس بكلمة واحدة. أعربَ لها عن أمله في العودة في غضون أسبوع على الأكثر، واتّفقا بداية من مساء اليوم الخامس، والمساءات كلها الّتي تليه، أن تأتي على الساعة السادسة لانتظاره في آخر شارع تيتشفيلد الّذي كان ميناءهم المعتاد ومكان استراحتهم وسط متوسّط شارع أكسفورد الكبير. كان يعتقد أنّهُ أخذ الاحتياطات اللازمة كلّها للعثور عليها؛ ولم ينسَ سوى احتياط واحد: لم تُخبره آن مطلقًا بلقبها العائليّ، أو، في حال أخبرتْه، فقد نسي ذلك بِعَدِّه شيئًا ضئيل الأهمّيّة. إنّ النّساء الأنيقات اللائي يتميّزنَ بادّعاءاتهنّ الكبيرة، والقارئات العظيمات للروايات، يُسمِّينَ أنفسهنّ ميس دوغلاس، وميس مونتاغ ... إلخ. ولكنّ الأكثر تواضعًا من هذه الفتيات المسكينات يُعرَفْنَ بأسمائهنّ المعمودة: ماري، جان، فرانس ... إلخ. ثمّ إنّ آن كانت تعاني في تلك اللحظة من نزلة برد وبحّة في صوتها، وإذ انشغل في هذه اللحظة المهمّة بتطمينها بكلام جميل، وتوصيتها بأن تُحاذر من البرد، نسي تمامًا أن يسألها عن اسمها الثّاني الّذي كان الطريقة الأكيدة الوحيدة الّتي تُمكّنه من العثور عليها في حال تغيّبت عن الموعد أو انقطعت مطوّلًا عن الرّدّ على رسائله.

سأختزلُ بسرعة تفاصيل الرحلة الّتي لم تُصوّر إلا من خلال دفء نادل نبيذ عظيم وتعاونه مع بطلنا الّذي، مُنهَكًا بوهنه وباهتزاز الحافلة، وضع رأسهُ على كتفه، ونام بين ذراعَيْه، كما لو كان ينام على صدر مُرضعة؛ ونام طويلًا في الهواء الطلق بين سلاي وإيتون؛ ذلكَ أنّه كان مُجبَرًا على العودة على قَدَمَيْه بعد أن استفاق فجأة بين ذراعَي جاره، بعد أن فات، دون أن يعلم، سالت هيل وستّة أو سبعة أميال. وعندما وصل إلى وجهته، عرف أنّ اللورد الشّابّ لم يعد في إيتون. وبسبب اليأس، طلب أن يتغدّى عند اللورد د ....، صديق قديم آخر، لم تكن له به علاقة كبيرة. وكانت المرّة الأولى الّتي كان بإمكانه فيها أن يجلس إلى طاولة دسمة منذ أشهر كثيرة، ومع ذلك، لم يستطع لمس شيء. كان قد اشترى في لندن، يومَ تلقّى ورقته النقديّة، خبزتَيْن من متجر أحد الخبّازين، وقد كان منذ شهرَيْن أو أكثر يتفرّسُ بعينَيْه هذا المتجر برغبة كبيرة، صارت ذكراها تُمثّل إليه إهانة حقيقيّة. لكنّ الخبز الّذي رغب فيه جعلهُ مريضًا، وصار مستحيلًا عليه لعدّة أسابيع أخرى أن يلمس أيّ طبق دون خطر. وحتّى وسط الرفاه والراحة، كانت شهيّته منعدمة. عندما فسّر للّورد د... وضع معدته البائس، طلب له النّبيذ، ومثّل ذلك بهجة كبيرة، بالنسبة إليه. وأمّا عن الهدف الحقيقيّ لرحلته، والخدمة الّتي كان من المفترَض أن يطلبها من الكونت دي ....، والّتي طلبها من اللورد د ....، فلم يستطع تحقيقها كاملة، ذلك أنّ هذا الأخير لم يُرد أن يرفض طلبه رفضًا نهائيًّا، ووافق على بعض الضمانات، ولكنْ، وفق آجال وشروط معيّنة. مطمئنًّا إلى هذا النجاح النسبيّ، عاد إلى لندن بعد ثلاثة أيام من الغياب، وتوجّه مجدّدًا إلى أصدقائه اليهود. ولكنْ، للأسف، رفض المقرضون الموافقة على شروط اللورد د ....، وعادت حياته البائسة لتبدأ من جديد، ولكنْ، مع مخاطر أكثر هذه المرّة، وآهٍ، لو حدثت

مصادفة، لا يفسّرها لنا كثيرًا، ولم يسمح لهُ معلّموه بالهروب منذ البداية، وآهٍ، لو لم تؤدّ تسوية كاملة إلى تغيير حياته. غادر لندن بكلّ تسرّع، وفي النهاية، بعد مرور بعض الوقت، ذهب إلى الجامعة. وبمجرّد مرور بعض الأشهر حتّى استطاع مجدّدًا رؤية مسرح عذابات شبابه.

لكنْ، ما الّذي حصل مع المسكينة آن؟ كلّ ليلة، كان يخرج للبحث عنها، وكلّ ليلة كان ينتظرها في زاوي شارع تيتشفيلد. سأل عنها كلّ مَنْ يمكن أن يعرفها؛ وخلال الأيّام الأخيرة من إقامته في لندن، استعمل الوسائل المتاحة كلّها كَي يجدها. كان يعرف الشارع الّذي تسكن فيه، ولا يعرف البيت بالضبط؛ لكنّهُ تذكّر بضبابيّة أنّها كانت قبل وداعهما مُجبَرة على الهروب من وحشيّة مضيفها. ومن بين النّاس الّذين سألهم عنها، بعض الّذين عدّوا دوافع بحثه غير شريفة، ولم يجيبوا إلا بالضحك؛ والبعض الآخر، اعتقدوا أنّه كان يبحث عن فتاة، سرقت منه أشياء تافهة، وكانوا، بطبيعة الحال، يتردّدون في الإجابة. وفي النهاية، قبل أن يغادر لندن نهائيًا، ترك عنوانه المستقبليّ عند شخص كان يعرف آن بالوجه، ومع ذلك، لم يسمع بعدَها شيئًا عنها. ومن بين مشاكل حياته كلّها، كان ذلك من أثقل محنه. ولا تنسوا أنّ الرجل الذي يتحدّث رجلٌ دافئ، معروف بطبيعته الروحيّة قبل قيمة كتاباته العالية.

"إذا كانت حيّة، لا بدّ من أنّنا كنّا نبحث عن بعضنا طوال الوقت في متاهات لندن؛ وربمّا كنّا على بُعد بعض الخطوات عن بعضنا؛ المسافة الّتي تكفي في شارع من شوارع لندن، لتخلق فراقا أبديًّا! تمنّيتُ لسنوات طويلة أن تكون حيّة، وأعتقد أنّي تفحّصتُ في مختلف زياراتي إلى لندن، آلاف الوجوه الأنثويّة على أمل أن ألتقي بوجهها؛ إن رأيتها ثانية واحدة،

كنتُ سأعرفها من بين ألف شخص؛ ذلك أنّها، وإن لم تكن جميلة، كانت لها ملامح عذبة، وإطلالة خاصّة ظريفة. لقد بحثتُ عنها، كما قلتُ، بأمل. نعم، لسنوات طويلة! ولكنّني الآن أخشى رؤيتها؛ وصارت نزلة البرد الّتي كانت تعاني منها عندما ودّعتُها، عزائي الوحيد. لم أعد أرغب في رؤيتها، لكنّني أحلم بها، وليس دون متعة، كشخص مسجّى منذ وقت طويل داخل نعش، - داخل نعش من المادلين، وأحببتُ تصديق ذلك، - بعد أن خُلّصَت من هذا العالم قبل أن تُشوِّه الإساءةُ و تُلطِّخُ البربريّةُ طبيعتَها النقيّةَ، أو أن تكملَ وحشيّةُ الأوغاد تخريبَ تلكّ الّتي تحمّلت ضرباتهم الأولى.

"وهكذا إذنْ، يا شارع أكسفورد، يا زوجة أب متحجّرة القلب، أنت الذي استمعتَ إلى تنهّدات الأيتام، وشربت من دموع الأطفال، لقد تخلّصت منكَ أخيرًا! وجاء الوقت الّذي لن أكون فيه مُجبَرًا على أن أذرع بألم أرصفتكَ الّتي لا تنتهي، ولا على الانغماس في أحلامكَ المرعبة، وفي أرقكَ الجائع! لدينا أنا وآن، خلفاء كثيرون سيتّبعون خطانا؛ ويرثون مصائبنا؛ تنهّد أيتام آخرون، وذرفت دموع أطفال آخرين؛ وأنتَ، يا شارع أكسفورد، تردّد من وقتها صدى تأوّهات القلوب الّتي لا تُحصى ولا تُعدّ. ولكنْ، بالنسبة إليّ، بدت العاصفة الّتي نجوتُ منها وعدًا بعهد جميل طويل..."

هل اختفت آن تمامًا؟ أوه! لا! سنراها مجدّدًا في عوالم الأفيون؛ وستظهر ببطء، شبحًا غريبًا ومتحوّلًا، من دخان الذاكرة، مثل جنّيّ مصباح علاء الدّين. وأمّا بالنسبة إلى آكل الأفيون، ألقت عذابات طفولته في داخله جذوعها العميقة، ثمّ تحوّلت إلى أشجار، ثمّ ألقت هذه الأشجار بظلالها الجنائزيّة على أشياء الحياة كلّها. لكنّ هذه الأوجاع الجديدة،

الّتي يقدّمها لنا القسم الأخير من الجزء البيوغرافيّ، ستواجهُ بشجاعة، وبسالة عقل ناضج، وستُخفّف بالتعاطف الأكثر عمقًا والأكثر دفئًا. تحتوي هذه الصفحات على الابتهال الأكثر نبلًا، والمساعدة الأكثر رأفة، قدّمتهما مرافقة شجاعة، تجلسُ إلى جانب السرير، أو تُوسّدُ هذا الرأس المسكون بـ "أومينيدات"(*) عديدة. عثر "أوريست" الأفيون على إليكتراهُ(**) الّتي جفّفت سنوات طولية جبينهُ المتصبّب عرقًا، وأنعشتْ شَفَتَيْهِ المتجلِّدَتَيْنِ بالحُمّى. "لأنّك كنتِ إليكترا، بالنسبة إليّ، يا مرافقتي العزيزة في السنوات اللاحقة، ولم ترغبي في أن تنهزم الزوجة الإنجليزيّة أمام الشقيقة اليونانيّة(***) لا في نبل روحها، ولا في حنانها الصبور!" كان سابقًا، في بؤس شبابه، وهو يتجوّل في شارع أكسفورد في الليالي المقمرة، يلقي بنظره (وكان ذلك عزاءه الوحيد) على الشوارع الّتي تخترق "ماريلبون" والمؤدّية إلى الرّيف؛ وبينما يسافرُ في تفكيره بهذه الآفاق الواسعة الّتي يقطعها الضوء والظلمة، كان يقول لنفسه: "ها هو الطّريق إلى الشمال، ها هو الطريق إلى ... وإذا كان لديّ جناحا سُلَحْفَاة بحر، سأطير من هنا، وأسافر بحثًا عن الراحة!" وكان إنسانًا، مثل النّاس كلّهم، أعمى أمام رغباته! لأنّهُ هناك في الشّمال، وفي المكان نفسه، وقرب الغدير نفسه، وفي البيت الّذي تمنّاه كثيرًا، سيجد آلامه الجديدة، ورفقة كاملة من الأشباح المتوحّشة. ولكنْ، هناك أيضًا، تسكنُ إليكترا التّجدّد وحسن المعاملة، ولا يزال إلى الآن، رجلًا وحيدًا ومتأمّلًا، يذرعُ لندن الواسعة منقبض القلب أمام البؤس الكبير الّذي يتطلّبُ بلسمَ التعاطف الحليم، وينظر إلى الشوارع

---

*) جمع أومينيد Euménide: آلهة النّدم، أو العدالة والعقاب في الثقافة اليونانيّة القديمة، ارتأينا ترجمتها الحرفيّة حفاظًا على المرجعيّة المستعملة في النّصّ الأصليّ. (المترجم).

**) انظر الهامش، ص٩.

***) إشارة إلى آن.

المتفرّعة عن شارع أكسفورد نحو الشمال، ومفكّرًا في إليكتراه المحبوبة الّتي تنتظره عند الغدير نفسه، وفي البيت نفسه، يصرخُ الرّجلُ، كما كان يفعلُ طفلًا: "وإذا كان لديّ جناحا سُلَحْفَاة بحر، سأطير من هنا، وأسافر بحثًا عن الراحة!"

انتهت المقدّمة، ويمكنني الآن أن أعد القارئ، دون خوف من أن أكذب، أَنَّ السّتارَ لنْ يُرفَعَ مرّة أخرى إلّا عنْ أكثرِ الرؤى إثارة للدهشة، وأكثرها تعقيدًا وروعة. الرؤى الّتي لم يسبق لها أن أضاءت بياض الورق، أداة الأدب الهشّة.

# II
# ملذّات الأفيون

مثلما قلتُ منذ البداية، كانت حاجته إلى تخفيف الآلام المتراكمة لتجارب شبابه البائسة، هي الّتي دفعت كاتب هذه الذكريات، إلى الاستعمال المتكرّر ثمّ اليوميّ للأفيون. وكانت رغبته الّتي لا تُقاوَم في تجديد الملذّات الغريبة المكتشفة في البداية، هي الّتي دفعتْه إلى تكرار تجاربه أكثر من مرّة، وهو لا يُنكر ذلك، ويعترف به بصراحة كبيرة؛ كان يبحث فقط عن عذر لذلك. عندما تعرّف أوّل مرّة إلى الأفيون، كان ذلك في ظروف عاديّة. كان يعاني من ألم في أسنانه، أرجعهُ إلى غياب النظافة والاهتمام، وبِعَدِّ أنّه كانت له منذ طفولته عادة وضع رأسه في ماء بارد كلّ يوم، لجأ يومها بتهوّر إلى هذه الممارسة، الخطيرة في هذه الحالة. ثمّ نام دون أن يجفّف رأسه. وانتهى به الأمر إلى ألم روماتيزم عنيف في الرأس والوجه، ولم يدُمْ ذلك أقلّ من عشرين يومًا. وفي اليوم الواحد والعشرين، يوم أحد خريفيّ ممطر من سنة ١٨٠٤، عندما كان يتجوّل في شوارع لندن للتّخلّص من ألمه (وكانت المرّة الأولى الّتي رأى فيها لندن مجدّدًا منذ دخل الجامعة)، التقى بصديق نصحهُ بالأفيون. وبعد ساعة من تناوله معجون الأفيون، بالكمّيّة الّتي أوصى بها الصيدلانيّ، اختفى ألمه كلّه. لكنّ هذه الفائدة الّتي بدت له كبيرة وقتها، لم تعد لها أيّة قيمة أمام المباهج

الجديدة الّتي انكشفت له فجأة. أيُّ اختطاف للرّوح! وأيُّ عوالم باطنيّة! هل كان الترياق، دواء الآلام الإنسانيّة كلّها، موجودًا، إذنْ؟

"إنّ سرّ السعادة العظيم الّذي اختلف الفلاسفة بشأنه طيلة قرون، اكتُشفَ أخيرًا! وصار يمكنكَ أن تشتري السعادة بفلس واحد، وأن تضعها في جيب سترتكَ؛ يمكن للنشوة أن تُخبَّأ في زجاجة، وللسلام الروحي أن يعجّل بحضوره! ربّما سيعتقد القارئ أنّي أرغب في الضحك، ولكنّها عادتي القديمة في المزاح وسط الألم، وأستطيع أن أؤكّد له أنّ مَنْ يدخل في تجارة مع الأفيون، لا يمكنه أن يضحك طويلًا. وحتّى ملذّاته، ستكون ذات طابع ثقيل وشعائريّ، وفي حالته الأكثر سعادة، لا يستطيع آكل الأفيون أن يقدّم نفسه في مزاج مرح(أليغرو)؛ وحتّى إذا تكلّم أو فكّر يكون أشبه بالمفكّر (بينسيروسو)(*)."

يريد الكاتب قبل كلّ شيء أن ينتقم للأفيون من كلّ التشويهات الموجّهة إليه: ليس الأفيون مخدّرًا، للذكاء على الأقلّ، وليس مُسكِرًا؛ وفي حال تمّ تناول جرعاته بكمّيّات كبيرة كي يكون مُسكِرًا، فليس ذلك بسبب الأفيون، بل بسبب النّاس الّذين يستهلكونه. ثمّ يعقد مقارنة بين الآثار الناجمة عن الكحول وتلك الناجمة عن الأفيون؛ ويحدّد بكلّ وضوح الاختلافات بينهما: إذا كانت المتعة المترتّبة عن النبيذ مرتبطة بمسار متصاعد، بمفاده تتنازل شيئًا فشيئًا، فإنّ تأثير الأفيون، في حال حصل، فإنّهُ يبقى مساويًا لنفسه طيلة ثماني أو عشر ساعات؛ الأوّل متعة حادّة، والآخر متعة مستمرّة؛ هنا، ثمّة برق؛ وهناك، ثمّة لهيب هادئ ثابت ومستمرّ. ولكنّ الفرق الكبير يكمن خاصّة في الآتي، يُدخل النبيذ اضطرابًا على المدارك العقليّة، في

(*) Allegro / Penseroso: زوج مفهوميّ اقتبسه بودلير من اللغة الإيطاليّة، للتمييز بين حالة المرح وحالة الاستغراق في التأمّل.

حين يدخلها الأفيون في نظام وانسجام كبيرَيْن. يُفقِد النبيذُ المرءَ قدرته على التّحكّم في ذاته، بينما يجعل الأفيون من هذه القدرة أكثر مرونة وأكثر هدوءًا. يعرف الجميع أنّ النبيذ يعطي طاقة استثنائيّة، ولكنْ، وقتيّة، للاحتقار وللإعجاب، للحبّ وللكراهية. لكن الأفيون يصلُ المدارك بالشعور العميق بالانضباط، وبنوع من الصّحّة الإلهيّة. إنّ الرجال المنتشين بالنبيذ، يقسمون بالصداقة الأبديّة، ويتصافحون والدّموع تملؤ عيونهم، دون أن يفهم أحد سبب ذلك؛ ويكون الجانب العاطفيّ في الإنسان في أعلى درجاته. في حين أنّ تداعي المشاعر الدافئة المترتّبة عن الأفيون لا يكون محمومًا؛ إنّهُ بالأحرى الإنسان في طيبته الأوليّة مجدّدة ومعادة إلى حالتها الطبيعيّة، مُخلّصة من المرارات كلّها الّتي أفسدتْ في مناسبات كثيرة مزاجهُ النبيل. في النهاية، مهما كانت فوائد النبيذ كثيرة، يمكن القول إنّهُ غالبًا ما يقتصر على الجنون، أو في أدنى الحالات، على التّهوّر؛ وحين يتجاوز حدًّا معيّنًا، فإنّهُ يطيرُ إذا جاز التعبير، ويشتّت الطاقة الفكريّة؛ في حين يبدو الأفيون دائمًا مهدّئًا لما كان منفعلاً، ومكثّفًا لما كان مشتّتًا. وفي كلمة واحدة، يتعلّقُ الأمر بالجانب الإنسانيّ البحت، بل في كثير من الأحيان، حتّى بالجانب الوحشيّ من الإنسان، الّذي يغتصبُ الإرادة بمساعدة النبيذ؛ في حين يشعر آكل الأفيون بامتلاءٍ أنّ الجزء المطهّرَ من كيانه ينعمُ إلى جانب مشاعره الأخلاقيّة بأقصى قدر من المرونة، وقبل كل شيء، أنّ ذكاءهُ يكتسبُ وضوحًا مرنًا، وبلا غيوم.

ينفي الكاتب أيضًا أن يكون الانسجام الفكريّ الناتج عن الحشيش متبوعًا باكتئاب نسبيّ، وأنّ استعمال هذا المخدّر يولّد، كنتيجة طبيعيّة ومباشرة، جمودَ الحواسّ وخمودها. ويوكّدُ أنّه كان يستمتع طيلة عشر سنوات، في الأيّام الموالية لفجوره، بصحّة فكرية ملحوظة. وأمّا بالنسبة

إلى الخمود الّذي تحدّث عنه كتّاب كثيرون، والّذي جعل غباء الأتراك منه أمرًا لا مهرب منهُ، فيؤكّد أنّهُ لم يعرفهُ قَطُّ. أن يكون الأفيون، وفقًا للمؤهّلات الّتي استُعمل في إطارها، قادرًا على المحافظة على قوّته التخديريّة إلى النهاية، فهذا ممكن أيضًا؛ لكنّ آثاره الأولى تظلّ مرتبطة دائمًا بإثارة الإنسان وتحفيزه، ولا يدوم ذاك الصّفاء الذهني أكثر من ثماني ساعات؛ بطريقة يكون فيها الحقّ على آكل الأفيون، إذا لم ينظّم أوقات دوائه بطريقة يُسقط فيها تأثير المخدّر ووزنه كلّه على موعد نومه الطبيعيّ. وكي يستطيع القارئ أن يحكم ما إذا كان الأفيون قادرًا على إذهال ملكات دماغ إنجليزيّ، سيقدّم، يقول، عيّنَتَيْن من ملذّاته، وسيتناول الموضوع من خلال الأمثلة بدلا من الحجج، وسيروي الطريقة الّتي غالبًا ما استعملها في سهرات الأفيون في لندن في الفترة الممتدّة بين ١٨٠٤ و١٨١٢. كانَ إذًا عاملاً خشنًا، وبِعَدِّ أنّ وقته كله كان مليئًا بدراسته الصّارمة، اعتقد أنّه من حقّه أن يبحث من وقت إلى آخر، مثل النّاس كلّهم، عن الرّاحة والتسلية الّتي تناسبه أكثر.

"يوم الجمعة المقبل، إن شاء الله، أقترحُ على نفسي أن أسكر" يقول الدوق دي ... وبذلك يحدّد مؤلّفنا مُسبَّقًا متى وكم مرّة سيستمتع في فترة معيّنة بفسحته المفضّلة. كان ذلك مرّة كلّ ثلاثة أسابيع، ونادرًا ما يتجاوز ذلك، يكون ذلك مساء الثلاثاء أو مساء السبت، يومَي الأوبرا. كانت وقتها حقبة غراسّيني الجميلة. وكانت الموسيقى تدخل إلى أذنَيْه، لا بِعَدِّها تتابعًا بسيطًا ومنطقيًّا لأصوات جميلة، بل مثل سلسلة من الذكريات، كما لو كانت الجمل الموسيقيّة تمتمات مشعوذة، تستدعي أمام عينها الروحيّة حياتها الماضية كلّها. الموسيقى مؤوّلةً ومضاءة بالأفيون، هكذا كانت فسحته الفكريّة الّتي يمكن لأيّ روح مصقولة بعض الشيء أن تستوعب

بسهولة عظمتها وكثافتها. يتساءلُ كثير من النّاس عن الأفكار الإيجابيّة الموجودة في الأصوات، وينسون، أو بالأحرى يجهلون أنّ الموسيقى، من هذا الجانب الأقرب إلى الشعر، تُمثّل المشاعر لا الأفكار؛ تقترحُ أفكارًا، هذا صحيح، لكنّها لا تحتوي عليها في حدّ ذاتها. كانت حياته الماضية كلّها، يقول، تعيش في داخله لا من خلال مجهود يبذله في التّذكّر، بل بِعَدِّها حاضرة ومتجسّدة في الموسيقى؛ ولم يعد من المؤلم تأمّلها؛ انتهت القسوة والتفاهة المتأصّلة في الأشياء البشريّة كلّها، من هذه القيامة الغامضة، أو ذابت وغرقت في ضباب مثاليّ، وصارت أهواؤه القديمة مجدّدَة وسامية ومروحنة. كم مرّة كان عليه أن يشاهد في هذا المسرح الثاني، المضاء في رأسه بالأفيون والموسيقى، الطُّرُق والجبال الّتي مرّ بها، تلميذًا محرَّرًا، ومضيفيه المحبوبين في الشمال، والظلام المقطوع بأضواء شوارع لندن الهائلة، وصداقاته الحزينة، ومآسيه الطويلة الّتي واستها آن، والأمل في مستقبل أفضل! ثمّ، في كامل القاعة، في أثناء فترات الاستراحة، تزيد المحادثات الإيطاليّة وموسيقى لغة أجنبيّة تتحدّثها النساء من هالة السهرة أكثر وأكثر؛ لأنّه من المعروف أن جهل لغة ما يجعل الأذن أكثر حساسية تجاه موسيقيّتها وانسجامها. وكذلك، لا أحد يستطيع أن يتلذّذ منظرًا طبيعيًّا إلا ذاك الّذي يراه لأوّل مرّة، ذاك الّذي تقدّمُ لهُ الطبيعة نفسها بغرابتها كلها الّتي لم تضعف بعد أمام النظر الرتيب والمتكرّر.

لكنْ، في بعض الأحيان، ليلة السبت، كان هنالك إغراء آخر يتغلّب على حبّه للأوبرا الإيطاليّة بطعمه الاستثنائيّ وسِحْره الكبير. ويمكن أن تسمّى هذه المتعة، المغرية بما فيه الكفاية، كي تنافس متعة الموسيقى، التّفنّن في حُبّ الآخرين. لقد كان الكاتب يعيش حياة بائسة وقاسية في ضياعه وسط الدوّامة اللامبالية لعاصمة كبيرة. وحتّى وإن لم تكن روحه،

كما يمكن للقارئ أن يلاحظ، ذات طبيعة جيّدة وحسّاسة ورقيقة، يمكننا بسهولة أن نخمّن أنّهُ تعلّمَ من أيّام تسكّعه الطويلة وليالي الرّعب الأطول كيف يحبّ الفقير، ويُشفق عليه. يريد هذا التلميذ القديم أن يرى هذه الحياة المتواضعة مجدّدًا؛ يريد أن يرتمي في حضن ذاك الحشد من المحرومين، ومثلما يحتضن السّبّاح البحر، ليدخل في اتّصال أكثر مباشرة مع الطّبيعة، كان يرغب على حدّ عبارته في أخذ حمّام، يكون ماؤهُ تلكَ الحشود. وهنا تعلو نبرة الكتاب إلى درجة، يتوجّب عليّ فيها ترك الكلمة إلى الكاتب نفسه:

"لم تكن هذه المتعة، كما قلتُ، ممكنة إلا ليلة السّبت. لكنْ، لماذا ليلة السبت بالذّات؟ ما هو العناء الّذي يتطلّب منّي راحة؟ وما الرّاتب الّذي سأحصل عليه مقابل ذلك؟ وما هو الشيء الجدير باهتمامي ليلة السبت، إن لم يكن دعوة إلى الاستماع إلى غراسّيني؟ هذا صحيحٌ، أيّها القارئ المنطقيّ، وما تقوله لا جدال فيه. لكنّ النّاس يعلّمون مشاعرَهم دروسًا مختلفة، وبِعَدِّ أنّ أغلبهم يبدون اهتمامهم بالفقراء متعاطفين بشكل أو بآخر مع مآسيهم وأوجاعهم، أردتُ وقتها أن أعبّر عن اهتمامي بهم عن طريق التعاطف مع أفراحهم وبهجتهم. لقد كنتُ عرفتُ قبلها آلام الفقر؛ لقد عرفتُها جيّدًا، إلى درجة أحببتُ فيها أن أُحيي ذكراها؛ لكنّ متعة الفقير، وعزاؤه، وتخفيف تعبه الجسديّ، لا يمكن بأيّ حال من الأحوال أن تتحوّل إلى تأمّل مؤلم. وبما أنّ مساء السبت يمثّل عودة الراحة الدوريّة بالنسبة إلى الفقير؛ تلتقي الجماعات الأكثر عدائيّة في هذه النقطة، وتكتشفُ هنا رابط الأخويّة المشترك بينها؛ في هذه الليلة تستريح المسيحيّة كلّها من تعبها. إنّها استراحة ممهّدة لاستراحة أخرى؛ يومٌ كامل أو ليلتان تفصلهم عن التعب الموالي. لذلك، كلّ سبت، يبدو لي أنّي تحرّرتُ أيضًا من يوم عمل

مرهق، وأنّ لديّ أيضًا راتب أنتظره، وأنّي أستطيع الاستمتاع بالراحة. بالإضافة إلى هذا، وكي أكون شاهدًا على أوسع نطاق ممكن من المشاهد الّتي تعاطفتُ معها بعمق كبير، كنتُ معتادًا ليلة السبت، بعد تناوُل الأفيون، على الذّهاب بعيدًا، دون القلق حيال الطّريق، ولا حيال المسافة الّتي سأقطعها، إلى الأماكن كلّها الّتي يجتمع فيها الفقراء، كي يصرفوا رواتبهم. وقد شاهدتُ واستمعتُ إلى أكثر من عائلة مكوّنة من رجل وزوجته وطفل أو طفلَيْن، بينما يتناقشون حول مشاريعهم، وإمكانيّتهم وقوّة ميزانيّتهم وأسعار الموادّ المنزليّة. وتعرّفتُ تدريجيًّا على رغباتهم وعوائقهم وأفكارهم. كان يحدث أحيانًا أن أستمع إليهم يغمغمون سخطًا وغضبًا على أوضاعهم، لكنّ ما تعبّر عنه هيئتهم وكلامهم أكثر هو الصّبر والأمل والصّفاء. ويجب أن أقول في هذا الإطار إنّ الفقير، يتحمّلُ عمومًا، وهو في ذلك فيلسوف أكثر من الغنيّ، الأشياء الّتي يمكن أن يعدّها سوءًا لا يمكن إصلاحه أو خسارة لا يمكن تعويضها، بما يُبديه من لامبالاة فوريّة ومرح كبير. وكلّما سنحت لي الفرصة، أو استطعتُ أن أفعل ذلك دون أن أبدو دخيلًا، كنتُ أختلط بهم، مقدّمًا حول موضوع النقاش رأيي الّذي وإن لم يكن حكيما دائمًا، فإنّهُ يُتقبَّلُ دائمًا برحابة صدر. كنتُ أشعر بسعادة كبيرة، عندما تزداد الأجور، أو عندما تكون زيادتها قريبة، عندما يكون الخبز أرخص قليلًا، أو عندما ينتشر الكلام عن إمكانيّة التخفيض في الزبدة والبصل. وفي حال يحدثُ العكسُ، كنتُ أستلهمُ من الأفيون وسائل للعزاء. ذلك أنّ الأفيون (مثل نحلة تمتصُّ بلامبالاة ما تحتاجه من الأزهار، ومن سخام المداخن) يمتلك فنّ إخضاع المشاعر كلّه وتعديلها على موجته. حملتني بعض هذه النزهات إلى مسافات كبيرة؛ ذلك أنّ آكل الأفيون يكون سعيدًا جدًّا بمشاهدة انفلات الزمن. وأحيانًا، عندما كنتُ أحاول العودة إلى بيتي، مُثبّتًا عينَيّ، حسب

القواعد البَحْريّة، عن نجمة الشّمال، باحثًا بطموح عن طريقي إلى الشّمال الغربي، لتجنُّب إعادة رؤية الخلجان والصّخور الّتي رأيتُها في رحلتي الأولى، كنتُ أدخل فجأة في متاهة من الأنهج، وفي لغز من الطُّرُق المسدودة، وفي مشاكل طريق لا تنتهي، جُعلت للاستهزاء بشجاعة الحمّالين، وإبراك ذكاء الحوذيّيْن. اعتقدتُ، في بعض الأحيان، أنّي الأوّل الّذي اكتشفَ بعضًا من هذه الأراضي المجهولة، وشككتُ في إمكانيّة أن تكون موجودة على خرائط لندن الحديثة. لكنْ، مع مرور السنوات، دفعتُ ثمن هذه الأوهام كلّها غاليًا، عندما تدخّل الجانب الإنسانيّ، ليستبدّ بأحلامي، وعندما أعادت نزهاتي المتردّدة وسطَ لندن الواسعة إنتاج نفسها في نومي، مع شعور من الحَيْرة الروحيّة والفكريّة الّتي جلبت الاضطراب إلى بيتي، والرعب والندم إلى وعيي..."

وهكذا لا يُولِّد الأفيون بالضرورة الجمود والخمول، بِعَدِّ أنّه، على العكس من ذلك، يرمي بحالمنا في المراكز الأكثر ازدحامًا من الحياة المشتركة. مع ذلك، ليست المسارحُ والأحياء هي الأماكن المفضّلة بالنسبة إلى آكل أفيون، خاصّة عندما يكون في أفضل حالات نشوته. ذلك أنّ الزحمة تمثّل له ضيقًا، وتصبحُ الموسيقى نفسها ذات طابع حسّيّ فظّ. فيبحث بدلًا من ذلك عن الوحدة والصمت، بِعَدِّهما شروطًا ضروريّة لنشوته وأحلامه العميقة. وإذا كان مؤلّف هذه الاعترافات قد ارتمى وسط الحشود والتّيّار البشريّ، فذلك لكي يتجنّبَ ميلًا عنيفًا إلى الأحلام والأحزان السوداء المترتّبة عن معاناة شبابه. كان يعاني في بحوثه العلميّة، كما وسط المجتمع البشريّ من نوع من الوسواس القهريّ. وعندما ستتبيّن حقيقته لاحقًا، ويتبدّد ظلام عواصفه القديمة، أمكنه بلا خطر أن يضحّي بلذّته من أجل حياة العزلة. حدث معه أكثر من مرّة أن قضّى ليلة بأكملها جالسًا قرب

نافذة دون أن يتحرّك أو أن يفكّر حتّى في تغيير مكانه، من الغروب إلى صباح اليوم الموالي؛ مالئًا عينَيْه بالآفاق الرحبة للبحر وللمدينة الكبيرة، وعقلهُ بالتّأمّلات اللّذيذة والطويلة الّتي يقترحها عليه هذا المشهد. وكانت تمتدّ أمامهُ تلك الأليغوريا الطبيعية العظيمة كلّها:

"كانت المدينة الغارقة في الضباب وضوء الليل الشاحب، تمثّل الأرض بآلامها ومقابرها الّتي رغم وجودها بعيدًا في الخلف، فإنّها ليست مَنسيّة، ولا خارج متناول نظري. وكان المحيط بتنفّسه الأزليّ، والمحاط بهدوء هائل، يجسّد عقلي والتأثير الّذي يحكمهُ وقتها. وبدا لي أنّني آخذ، لأوّل مرّة، مسافة بعيدة عن اضطرابات الحياة؛ وأنّ الصخب والحُمّى والصّراع أشياء معلّقة؛ أنّ فترة راحة وُهبَت لآلام قلبي السّرّيّة؛ كانت عطلة رسميّة؛ وخلاصًا من أيّ عمل إنسانيّ. لم يعد الأمل المزهر في طُرُق الحياة متعارضًا مع السلام الّذي يسكن القبور؛ وبدا لي ذكائي المتطوّر والحادّ رحبًا مثل السماوات، ومع ذلك، همدتْ مخاوفي كلّها بهدوء إلهيّ؛ وكان الهدوء الكامل الذي بدا نتيجة، لا للجمود، وإنّما للصراع المهيب الّذي تخوضه قوى متساوية وقويّة؛ نشاطات لا نهائيّة وراحة لا نهائيّة!

"ألا أيّها الأفيون الصّائبُ والماكر والقويّ !... أنت تملك مفاتيح الجنّة !..."

وهنا يظهر ذلك الشّكرُ الغريب، والامتنان الّذي نقلتهُ حرفيًّا في بداية هذا العمل، والّذي يمكن أن يكون عنوانه الفرعيّ. إنّه مثل باقة الأزهار الّتي تنتهي بها الحفلة. لأنّه عمّا قريب، سيُظلم المسرح، وستزمجرُ العواصفُ في ليل المدينة.

# IV
# عذابات الأفيون

كان ذلك في عام ١٨٠٤ عندما تعرّفَ أوّل مرّة إلى الأفيون. مضت ثماني سنوات سعيدة وسامية بالدّراسة. نحن الآن في ١٨١٢. بعيدًا، بعيدًا جدًّا عن أكسفورد بمسافة مائتَي وخمسين ميلًا. سجينًا في عزلة الغابة، ماذا يفعل بطلنا الآن (مؤكّدٌ أنّه يستحقّ هذا اللقب)؟ إيه، لكنّه يتناول الأفيون! وماذا أيضًا؟ يدرسُ الفلسفة الألمانيّة: يقرأ كانط وفيخته وشيلينغ. مدفونًا في كوخ صغير، مع خادمة واحدة، يتأمّل الساعات الهادئة الّتي تمرّ. ولم يتزوّج؟ ليس بعد. ويتناول الأفيون دائمًا؟ كلّ ليلة سبت. ودام ذلك دون توقّف منذ ذاك الأحد الغاضب والممطر من سنة ١٨٠٤؟ للأسف! نعم! لكنْ، ما حال صحّته بعد هذا الهروب المنتظم والطويل؟ يقول إنّ حاله لم تتحسّن مطلقًا إلا في ربيع ١٨١٢. لنلاحظ أنّهُ لم يكن سوى متقلّب إلى حدّ الآن، وأنّ الأفيون بالنسبة إليه لم يصبح حاجة يوميّة بعدُ. كانت الجرعات معتدلة دائمًا، وتفصل بين أوقات تناولها مسافة بعض الأيّام. وربمّا أخَّر هذا الحذر وهذا التعديل في ظهور الكوابيس المنتقمة. في سنة ١٨١٣، تبدأ حقبة جديدة. وقعت خلال الصّائفة الماضية حادثة مؤلمة، لا يفسّرها لنا، وأصابت روحه بقوّة أثّرت حتّى في صحّته الجسديّة؛ وبداية من ١٨١٣، أُصيب بقرح مروّع في معدته، وبدا له مشابهًا بطريقة عجيبة لذاك الّذي عانى منه في ليالي رعبه داخل منزل الوكيل، ومُرافَقًا بأحلامه

المرضيّة القديمة كلها. وها هو أخيرًا التبرير الكبير! ما جدوى التّوسّع في هذه الأزمة وتفصيل أحداثها؟ كان كفاحهُ طويلًا، وكانت آلامه مُتعبة وغير مُحتمَلَة، وكان الخلاص ماثلًا هناك دائمًا، في متناول يده. أريد أن أقول لأولئكَ كلهم الّذين رغبوا في مَرْهَم أو في شراب روحيّ، ليتخلّصوا من آلامهم اليوميّة مكدّرين صفو حياتهم وسيرها الطبيعيّ، ومستنزفين جهودهم كلّها، لهؤلاء كلهم، مريضي الروح، ومريضي الجسد، أقول: ليتفضّل أيّ واحد منكم، ليس له ذنب سواء بالفعل أو بالنيّة، وليرمِ مريضنا بالحجارة الأولى! وهكذا، فمن المفهوم أيضًا أن يدفعك، عندما يبدأ في تناول الأفيون يوميًّا، إلى الاعتقاد بوجود حاجة ملحّة وضرورة وموت، إن لم يقم بذلك؛ وأنّهُ من المستحيل أن يعيش بطريقة أخرى. ثمّ، أين هم هؤلاء الشجعان الّذين يعرفون كيف يواجهون بصبر، وبقوّة تتجدّد كلّ لحظة، الألم والعذاب المستمرّ دون أن يتعبوا منتظرين ثوابًا غامضًا وغريبًا؟ إن مَنْ يبدو شجاعًا وصبورًا لم يكن لديه شيء كبير، ليتغلّب عليه، ومَنْ قاوم بعض الوقت، كرّس في هذا الحيّز الضّيّق طاقة كبيرة مجهولة. أليست الأمزجة البشريّة متنوّعة تنوّع الجرعات الكيميائيّة؟ "من المستحيل بالنسبة إليّ، في الحالة العصبيّة الّتي أنا عليها، أن أتحمّل واعظًا لا إنسانيًّا، لم يكتوِ بنار الأفيون!" ها هي جملة جميلة ودامغة! لم يعد الأمر متعلّقًا بمحاولة التخفيف من الألم، بل بالمغفرة نفسها.

في النهاية، كان لأزمة ١٨١٣ نتيجة يمكن أن نُخمّنها. ولسائل أن يسأل عمّا إذا أضرب صديقنا في عزلته يومًا عن الأفيون أم لم يُضرب، وأن يستفسر عمّا إذا تنفّست رئتاه بأريحيّة يومها أم لا، وقام قبلها بوظائفه الطبيعيّة أم لا. لا شيء غير المزيد من أقراص الأفيون، والمزيد من الصوم، والمزيد من الزّهد! لقد أصبح الأفيون جزءًا من الحياة! قبل سنة ١٨١٦ الّتي كانت

أجمل وأروع سنواته، يقول لنا، إنّه قلّصَ فجأة ودون أيّ مجهود، الكمّيّة التي يتناولها من الأفيون من ثلاثمائة وعشرين حبّة، أي ثمانية آلاف قطرة من "اللودانوم"، يوميًّا، إلى أربعين حبّة، مخفِّضًا على هذا النحو من غذائه الغريب سبعًا من كلّ ثماني حبّات. اختفت سحابة الحزن العميق الّتي خيّمت على رأسه فجأة، كما لو كان ذلك سِحْرًا، وعادت حيويّته الروحيّة مجدّدًا، واستطاع أن يعتقد في السعادة مرّة أخرى. لم يكن يتناول غير ألف قطرة من "اللودانوم" يوميًّا (أيُّ اعتدال!). كان صيفًا جميلًا مثل أصياف سان مارتان. كان يعيد قراءة كانط، ويفهمه أو يعتقد أنّهُ يفهمه. ومرّة أخرى تملّكتهُ تلك الخفّة، وتلك الحيويّة الفكريّة – كلمة رديئة لترجمة ما لا يُترجمُ – المساعدة على العمل، وعلى اختبار الشعور بالأخوّة الإنسانيّة. إنّ هذا التعاطف والتعاون مع القريب، ولنقل حُبّ الخير الّذي يشبه في جانب كبير منه (نشير إلى هذا دون أن تكون في ذلك أيّة إساءة إلى كاتب دافئ وحسّاس مثل دي كوينسي)، حبّ السّكّيرين للخير، يظهر يومًا ما بالطريقة الأكثر غرابة والأكثر عفويّة، أمام ماليزيّ. – تذكّروا هذا الماليزيّ؛ سنراه لاحقًا؛ وسيتكرّر ظهوره بطريقة متضخّمة ومروّعة. فَمَنْ يستطيع أن يحتسب قوّة انعكاس وتداعيات أيّ حادث داخل حياة الحالم؟ ومَنْ يستطيع التفكير، دون أن يتهرّب، في اتّساع الدوائر اللانهائيّة الّتي تُحدثها موجات الرّوح، وقد أُثيرت بحجر الصدفة؟ - إذنْ، ذات يوم، طَرَقَ ماليزيٌّ باب هذه العزلة الصامتة. ما الّذي يفعله ماليزيٌّ في غابات إنجلترا؟ ربمّا كان يتّجه إلى ميناء يبعد أربعين ميلًا عن هنا. كانت الخادمة، التي ولدت في الرّيف، ولم تكن تعرف اللّغة الإنجليزيّة ناهيكَ عن اللغة الماليزيّة، والّتي لم ترَ في حياتها عمامة قطُّ، مرتعبة جدًّا. لكنْ، عندما تذكّرت أنّ سيّدها عالمٌ كبير، الأمرَ الّذي يجعله قادرًا على تكلّم اللغات كلّها، وربمّا حتّى لغة

القمر، ركضت إليه لتتوسّل منه طردَ هذا الشيطان الماكث في المطبخ. كان التباين الّذي أحدثه وجها الرّجلَيْن وهما ينظران إلى بعضهما غريبًا ومسلّيًا؛ واحدٌ مطبوع بفخر سكسوني؛ والآخر بخنوع آسيويّ؛ واحدٌ متورّدٌ وطازج؛ والآخر أصفر وشاحب، مضاء بعينَيْن صغيرتَيْن قلقتَيْن. ولكسب احترام خادمته وجيرانه، شرع العالم يتحدّث معه باليونانيّة؛ أجاب الماليزيّ بكلّ تأكيد بالماليزيّة؛ لم يفهما بعضهما البعض، ومضى كلّ شيء على أحسن ما يرام. جلس الزائر على أرضيّة المطبخ ساعة كاملة، ثمّ تظاهر بالخروج. في حال جاء هذا الآسيويّ المسكين على قَدَمَيْه من لندن، فلا بُدّ أنّه لم يستطع منذ ثلاثة أسابيع تبادل أيّ فكرة مع أيّ مخلوق بشريّ. وليواسي كاتبنا الآلام المفترضة الّتي يعاني منها زائره والمترتّبة عن وحدته، مفترضًا أنّ رجلًا من هذه الأنحاء لا بُدّ أن يكون صاحب معرفة بالأفيون، قدّم إليه قبل رحيله هديّة متمثّلة في قطعة كبيرة من مادّته الثمينة. هل يمكن تصوّر ضيافة أنبل من هذه؟ أبدى الماليزيّ من خلال ملامح وجهه أنّهُ يعرف الأفيون جيّدًا، ولم يأخذ سوى قطعة بإمكانها أن تقتل عدّة أشخاص. كان ثمّة بالتأكيد ما يمكن أن يُثير قلق روح خيّرة؛ لكنْ، لم يُسمع لاحقًا أيّ خبر عن العثور على جثّة رجل ماليزيّ في الطريق الرئيسة؛ لقد كان هذا الغريب إذنْ متعوّدًا على السّمّ بما يكفي؛ وتمّ الحصول على النتيجة المرغوب بها.

هل قلتُ إذنْ إنّ آكل الأفيون كان لا يزال سعيدًا؛ سعادة حقيقية لا يعيشها إلا العالِم أو المنعزل المحبّ للرخاء: كوخٌ ساحرٌ، ومكتبة جميلة مرتّبة بصبر ودقّة، وشتاء يستعر في الجبال. ألا تجعلُ إقامة جميلة الشتاء أكثر شاعريّة، والشّتاء ألا يزيد من شاعريّة الإقامة؟ كان الكوخ يقعُ على آخر نهر محاطًا بجبال مرتفعة بما فيه الكفاية. كان مثل حزمة من الأغصان الّتي تنشر بساطًا من الأزهار على الجدران، وتطوّق النوافذ معطّرة إيّاها

في الربيع، وفي الصيف، وفي الخريف؛ وكان ذلك يبدأ بالزعرور، وينتهي مع الياسمين. غير أنّ الفصل الجميل، فصل السعادة، بالنسبة إلى رجل أحلام وتأمّلات مثله، فهو الشّتاء، والشتاء في أكثر أشكاله قسوة. ثمّة أناسٌ يُهنّئون أنفسهم على الحصول من السماء على شتاء حميد، وثمّة مَنْ يسعدون لرؤيته يرحل. بينما كان هو، يطلب كلّ سنة من السّماء ما يكفي من الثلوج، والبرد والصقيع الّذي يستطيع احتواءه. كان يلزمه شتاء كنديّ أو روسيّ؛ كان يلزمه من أجل أمواله. سيصير عشّهُ أكثر دفئًا ووداعة وسيحبّه أكثر: الشموع الموقدة في الرابعة، المنزل الجيّد، السّجّادات الجيّدة، الستائر الثقيلة المُسدَلة حتّى الأرض، صانعة شاي جميلة، والشاي من الرابعة مساءً حتّى الرابعة صباحًا. دون شتاء، لم يكن أيٌّ من هذه المتع ممكنًا؛ كلّ رخاء يستوجبُ حرارة قاسية؛ ثمّ أنّ ذلك مكلفٌ؛ من حقّ حالمنا إذنْ أن يطالب الشتاء بدفع ديونه بأمانة، مثلما يفعلُ هو معه. كانت غرفة الجلوس صغيرة وصالحة لغرضَيْن اثنَيْن. ويمكن أن نسمّيها بأكثر دقّة مكتبة؛ فهناك يتكدّس خمسة آلاف كتاب، اشتراهم واحدًا تلو الآخر بصبر كبير. لهبٌ كثيفٌ يلتمعُ في الموقد، وفي الطبق المقابل كأسان وصحنان؛ ذلك أنّ إليكترا الخيّرة جعلتْنا نستشعرُ تزيّن الكوخ بكلّ سِحْر ابتساماتها الملائكيّة. ما جدوى وصف جمالها؟ يمكن للقارئ أن يعتقد أنّ ذاك الضوء الكثيف كلّه مادّيّ بحت، وأنّهُ ينتمي إلى عالم الأرض. ثمّ، لا يجب أن ننسى قارورة اللودانوم، ذاك الإبريق الكبير، يا إلهي! لأنّنا بعيدون جدًّا عن صيدليّي لندن، كي نؤمّن بشكل مستمرّ زيادة في الجرعات؛ كتاب فلفسة ألمانيّ يتحرّك فوق الطاولة الّتي تشهدُ على طموحات مالكه الفكريّة الأزليّة. – منظر الجبال في انكفائها الصّامت، الرفاهيّة، أو بالأحرى الرّفاه الكامل، متعة التأمّل الكبيرة، والشّتاء الشّقيّ الصّالح لتكثيف الملكات

كلّها، نعم، لقد كانت السعادة، أو بالأحرى، البريق الأخير للسعادة، حركة داخل العدم، وابتهاج داخل البؤس؛ وها نحن نشارفُ على الفترة القاتمة، حيثُ "يجب أن نقول وداعًا، يا هذا النعيم الجميل كلّه، وداعًا، أيّها الشتاء، وأيّها الصّيف، وداعًا، أيّتها الابتسامات والضّحكات، وداعًا، أيّها السلام الروحيّ؛ وداعًا، أيّها الأمل، وأيّتها الأحلام الهادئة، وداعًا، يا سلوان النّوم المبارك!". سيصبح حالمنا، طيلة ثلاث سنوات، مثل منفيّ مطرود من مجال السعادة المشتركة، ذلك أنّه وصل الآن إلى "إلياذة من المصائب، وصل إلى عذابات الأفيون!". فترة حالكة. غطاءٌ كبير من الظلام، يتمزّقُ بين الحين والآخر برؤى غامرة ورائقة؛ كان ذلك كما لو غطّسَ رسّام كبير فرشاتهُ في سواد ارتجاف الأرض وفي الكسوف.

إنّ هاذَيْن البيتَيْن اللَّذَيْن كتبهما شيلي بغنائيّة كبيرة وملتونيّة(*) واضحة، يرجعان بشكل جيّد لون مشهد أفيونيّ، إذا كان مسموحًا بالتعبير عن ذلك على هذا النحو. ها هي السماء الكئيبة، وها هو الأفق المسدود، وها هما يغلّفان العقل الخاضع إلى الأفيون. وها هي اللانهاية تسكنُ الرعب والحزن، وها هو الشيء الأكثر حزنًا من أيّ شيء: عجزُ المرء عن انتزاع نفسه من ذاك العذاب كلّه!

قبل أن نذهب إلى أبعد من هذا، يُنبّهنا تائبنا (يمكننا من وقت إلى آخر أن نسمّيه بهذا الاسم، رغم أنّه ينتمي على ما يبدو، إلى فئة من التّائبين المستعدّين دائمًا لتكرار أخطائهم) إلى ضرورة ألّا نبحث في هذا الجزء من كتابه عن ترتيب واضح المعالم، أو عن ترتيب كرونولوجيّ على الأقلّ. ذلك

*) نسبة إلى ميلتون.

أنّه، عندما كتبه، كان وحيدًا في لندن، وعاجزًا في ضوء أكوام الذكريات البغيضة والمروّعة عن بناء سرديّة منتظمة، ومنفيًّا بعيدا عن أيادي أصدقائه الّذين يعرفون كيف يُرتّبون أوراقهُ، والّذين اعتادوا أن يقدّموا له الخدمات كلّها الّتي يمكن أن يقدّمها سكرتير جيّد. صار يكتب دون أيّ اعتبار، ودون أيّ احتشام مفترضًا نفسه أمام قارئ متسامح، بعد خمسة عشر أو عشرين عامًا من زمن الكتابة. وراغبًا ببساطة وقبل كلّ شيء في إحياء ذكرى فترة كارثيّة، كان يفعل ذلك بكلّ الجهد الّذي لم يزل يملكه دون أن يعرف إمكانيّة أن تتوفّر لهُ القوّة والفرصة لاحقًا.

لكنْ، لماذا يُقالُ له، ألم تتخلّص من أهوال الأفيون سواء بتركه أو من خلال التقليص من الجرعات؟ لقد قام بجهود طويلة ومؤلمة، كي يُقلّص من الكمّيّة الّتي يتناولها، لكنّ من شهدوا تلك المعارك الضاريَة وتلك السكرات المتتابعة غلبوا الأوائل الّذين توسّلوا إليه، كي يقلع عن تناول الأفيون. لماذا لم يخفّض من الجرعة إلى قطرة كلّ يوم، أو لم يخفّف من قوّة الجرعات بإضافة الماء؟ كان يعرف أنّه يمكن أن يستغرق سنوات كثيرة، كي يصل إلى انتصار غير أكيد. وعلاوة على ذلك، يعرف هواة الأفيون كلّهم أنّه يمكنهم قبل الوصول إلى درجة معيّنة أن يُقلّصوا الجرعات بلا صعوبة، بل وباستمتاع كبير؛ لكنْ، في حال تجاوزت الجرعات ذلك الحدّ سيؤدّي كلّ تقليص إلى آلام شديدة. لكنْ، ما الضير في الشعور بشيء من الاكتئاب الوقتيّ الّذي لن يدوم أكثر من بضعة أيّام؟ ليس ثمّة اكتئاب؛ لا يتمثّل الألم في هذا. بل بالعكس، يزيد تقليص جرعات الأفيون من الحيويّة، ويصير النبض أفضل، والصّحّة أحسن؛ لكنّه وصل إلى حالة قرح مروّعة في معدته، رافقها عَرَق كثير وشعور كبير بالضِّيق ناتج عن عدم وجود توازن بين الطاقة الجسديّة والصّحّة العقليّة. وعليه، من السهل أن نفهم أنّ

الجسد، هذا الجزء الأرضيّ من الإنسان، الّذي أفلح الأفيون في إخضاعه بشكل كامل، يريد استرجاع حقوقه، بينما تجد مملكة العقل نفسها، بعد أن كانت مُبجَّلة إلى حدّ تلك اللحظة، متضائلة مقارنة بالسابق. إنّه توازن مختلّ، يرغب في إعادة بناء نفسه، ولا يمكن أن يحصل ذلك دون ألم. وحتّى خارج اعتبار تقرّح المعدة والتّعرّق المفرط، يمكن أن نتخيّل بسهولة الرعب الّذي يشعر به رجل عصبيّ عندما تستيقظ حيويّته بانتظام، بينما يظلّ عقله قلقًا وجامدًا. في هذا الوضع الرهيب، يعدّ المريض عمومًا أنّ الإثم أفضل من الشفاء، ويستسلم حانيًا رأسهُ أمام مصيره.

كان آكل الأفيون قد انقطع منذ فترة طويلة عن دراساته. وكان في بعض الأحيان، يوافق، تحت طلب زوجته وامرأة أخرى كانت تأتي لتناوُل الشاي معهم، على قراءة بعض الأشعار لـ "وردزورث" بصوت عالٍ، ليُكمل ذلك بقصائد بعض الشعراء الكبار الآخرين؛ لكنّ حرفته الحقيقيّة، الفلسفة، فأهملها تمامًا. تتطلّب الفلسفة والرياضيّات ممارسة يوميّة ثابتة ومستمرّة، في حين تراجع عقله الآن أمام هذا الواجب اليوميّ، وصار يعي بينه وبين نفسه ضعفه بانزعاج. بقي عمله الضخم الّذي سخّر له طاقاته كلّها، واستلهم عنوانه من آثار سبينوزا: حول تحسين التفاهم البشريّ(*)، مُعلّقًا؛ وغير مكتمل مثل واجهات البنايات الكبيرة الّتي تقوم بها الحكومات السخيّة أو المهندسون المعماريّون الطّائشون. وما كان ينبغي أن يكون على الأرجح دليلًا على قوّته وتفانيه تجاه القضيّة الإنسانيّة، استحال دليلًا على ضعفه وتقديراته الخاطئة. ومن حسن الحظّ أن الاقتصاد السياسي لم يكن بالنسبة إليه سوى تسلية. ولئن وجب عَدّه عَلَمًا، أي، كُلًّا عضويًّا، فإنه يمكن فصل بعض أجزائه المكوّنة، والنظر فيها بمعزل عن بعضها البعض. كانت زوجته تقرأ له من وقت إلى آخر نقاشات البرلمان أو المستجدّات المكتبيّة

---

*) يردُ هذا العنوان في الكتابَيْن باللاتينيّة (De emendatione humani intellectus).

المتعلّقة بالاقتصاد السياسيّ، لكنّ أمرًا مثل هذا، كان يمثّل غذاءً سيّئًا بالنسبة إلى أديب عميق ومثقّف؛ لقد كان يحتاجُ إلى كبار الفكر الإنسانيّ، كي يؤجّج جذوة المنطق في داخله. وفي خضمّ ذلك، أرسل إليه صديق من إيدنبورغ سنة ١٨١٩ كتابًا لريكاردو، وقبل أن ينتهي من قراءة فصله الأوّل، تذكّر أنّه تنبّأ هو الآخر بقدوم مُؤسّس هذا العلم، وهتف: "هذا ما أتحدّث عنه!". واستفاقت الدهشة والفضول في داخله مجدّدًا. لكنْ، كانت أكبر مفاجأة له وأكثرها لذّة أنّه لا يزال يستطيع الانكباب على القراءة. وازداد إعجابه بريكاردو. هل حقًّا ولد عمل عميق مثل هذا في إنجلترا، وفي القرن التاسع عشر؟ ذلك أنّه كان يفترض أنّ الفكر كلّه قد مات في إنجلترا. لقد عثر ريكاردو بضربة واحدة على القانون، وخلق القاعدة؛ لقد ألقى شعاعًا من الضوء في تلك الفوضى المظلمة كلّها الّتي ضاع فيها سابقوه. شرع حالمنا، ملتهبًا بشباب متجدّدٍ ومتوافقًا مع الأفكار الّتي تضمّنها العمل، يكتبُ، أو بالأحرى يُملي على مرافقته. وبدا له أنّ عين ريكاردو الدقيقة قد أهملت بعض الحقائق المهمّة الّتي يمكن أن يكون تحليلها في ضوء بعض العمليّات الرياضيّة مادّة صالحة لكتاب صغير مهمّ. وبمجهود هذا المريض، سنصل إلى مقدّمات، ستكون صالحة لكلّ نُظُم الاقتصاد السياسيّ المستقبليّة(*). اتّفق مع مطبعة محلّيّة، تبتعد ثمانية عشر ميلاً من مكان إقامته، ولإكمال العمل بأكبر سرعة ممكنة تمّت حتّى الاستعانة بمؤلّف إضافيّ؛ وأعلن عن اقتراب صدور الكتاب مرّتَيْن؛ لكنْ، اللعنة! بقي عليه أن يكتب مقدّمة (وآه من تعب المقدّمة!) وإهداءً رائعًا إلى ريكاردو؛ ويا لهُ من عناءٍ بالنسبة إلى عقل مُنهَك بملذّات عربدة

*) رغم تعمّق دي كوينسي في التأكيد على وهنه الرّوحيّ وعدم قدرته على العمل في هذه الفترة، فإنّ هذا الكتاب، سيظهر في وقت لاحق، وتحديدًا سنة ١٨٤٤ تحت عنوان "منطق الاقتصاد السياسيّ" The Logic of the Political Economy. (المترجم).

مستمرّة! يا لعار الكاتب العصبيّ، الخاضع إلى اضطهاد بمزاجه الدّاخليّ! ازداد وهنه، وصار مروّعًا وقسريًّا مثل جليد قطبيّ؛ توقّفت الترتيبات كلّها، وأطرد المؤلّف المساعد، ونام كتابه المخجل طويلًا إلى جانب أخيه الكبير، الكتاب الشّهير المستلهم من سبينوزا.

أيُّ وضع مرعب! أن يكون عقلكَ مليئًا بالأفكار، وأن لا تستطيع عبور الجسر الّذي يفصل بين حملات الحلم الخياليّة وحصاد العمل الإيجابيّ! وإذا كان مَنْ يقرؤني الآن يعرف ما يقتضيه الإنتاجُ من جهد، لستُ في حاجة إلى أن أصف لهُ اليأس الّذي يمكن أن يشعر به عقل نبيل وذكيّ وبعيد النظر وهو يكافح ضدّ هذه اللعنة الاستثنائيّة. أيُّ سِحْر بغيض! إنّ كلّ ما قلتُ عن انخفاض المقدرة في دراستي عن الحشيش، يمكن أن ينطبق على الأفيون أيضًا. الإجابة على الرسائل؟ عمل عملاق، يتراجع من ساعة إلى أخرى، ومن يوم إلى آخر، ومن شهر إلى آخر. الأموال؟ أمر عقيم. لقد أهمل الاقتصاد المحليّ أكثر من الاقتصاد السياسيّ. في حال صار دماغ ينهكه الأفيون منهكًا بالكامل، في حال، كي أستخدم عبارة خسيسة، صار مخبولًا بأكمله، يُصبح الألم أقلّ حجمًا، أو على الأقلّ، أكثر قابليّة للتّحمّل. لكنّ آكل الأفيون لا يضيّع أيًّا من تطلّعاته الأخلاقيّة؛ يقدّر الواجب، ويحبّه؛ يريد أنْ يفي بالشروط الممكنة كلّها، لكنّ ما ينفّذه لم يعد في مستوى تصوّراته. التنفيذ! ماذا قلت؟ هل يستطيع أن يحاول حتّى؟ إنّ كابوسًا ثقيلًا يسحق إرادته كلّها.

أصبح بائسنا أشبه بتانتالوس(*)، حريصًا على حبّ واجبه، وغير قادر

---

*) تانتالوس: أحد ملوك آسيا الصغرى الذين ظهروا في الحكايات اليونانية القديمة. عاقبته الآلهة لأنّهُ أعطى البشر أسرار السماء، وكان عقابه أن يظلّ للأبد في تارتاروس مقيّدًا، والماء تحت ذقنه وغصون الفواكه فوق رأسه، حيث يظلّ ظمآنًا جائعًا، كلّما أراد أن يشرب من الماء أو يأكل من الثمار تبتعد عنه. (المترجم).

على إنجازه. عقلٌ، عقلٌ محض للأسف! مسجون داخل الرغبة في ما لا يستطيع الوصول إليه. محاربٌ شجاعٌ، مُهانٌ في أعزّ ما يملك، ومبهور بقدر يأمره بملازمة الفراش، حيُ يستنزف نفسه في سُعار بائس!

وهكذا، جاء العقابُ بطيئًا، ولكنْ، مروّعًا. وللأسف! لم يكن ذلك فقط من خلال الوهن النفسيّ الظّاهر عليه، وإنّما أيضًا من خلال أهوال ذات طبيعة أكثر وحشيّة وأكثر فاعليّة. إنّ الأعراض الأولى الظاهرة على آكل الأفيون أثناء تضاؤله الجسديّ، جديرة بالملاحظة. إنها نقطة البداية، وأصل سلسلة كاملة من الآلام. تكون لدى الأطفال عمومًا ملكة استثنائيّة على تمثُّل، أو خلق، عالم كامل من الرؤى الغريبة. وتعمل هذه الملكة أحيانًا لدى بعض دون إرادتهم. لكنْ، لدى بعضهم الآخر القدرة على استحضارها أو إلغائها حسب رغبتهم. وفي وضع مشابه، تخيّل راوينا أنّه عاد طفلاً. وبالفعل، في منتصف سنة ١٨١٧، عذّبته هذه الملكة الخطيرة بعنف. نائمٌ، ولكنّه مستيقظٌ بينما تمضي الجنازات أمام عينَيْه؛ وتتشيّدُ أمامه بنايات لا نهاية لها، بطابها العتيق المهيب. لكنّ أحلام النوم ستشارك قريبًا في أحلام اليوم السابق، وكلّ ما ستراهُ عينهُ في الظلام، سينعاد إنتاجهُ في نومه ببهاء مربك، لا يُطاق. كان ميداس يحوّل كلّ ما يلمسهُ إلى ذهب، ويشعر أنّه مضطهد بهذه الميزة المضحكة. وبالطريقة نفسها، يحوّل آكل الأفيون عناصر أحلامه كلّها إلى حقائق، لا يمكن تجنّبها. وكانت هذه التّحوّلات كلّها التي تبدو جميلة وشاعريّة في ظاهرها، تخفي داخلها رعبًا عميقًا وحزنًا أسود. كان يتخيّل كلّ ليلة أنّهُ يسقطُ في هاويات مظلمات، ليس لها نهاية، أبعد من أيّ عمق، ودون أمل في الصعود مجدّدًا. وحتّى بعد أن يستيقظ، كان يشعر بحزن مستمرّ، وبيأس ملازم لوهنه. وهي ظاهرة مشابهة لبعض الظواهر الناجمة عن نشوة الحشيش، حيثُ ينتفي الاحساس بالمكان، ثمّ

يلحقهُ الزّمان. تأخذ الأشياء والمشاهدُ أشكالًا ضبابية حتّى لا تمثّل ألمًا بالنسبة إلى العين الإنسانيّة. وبعبارة أخرى، يمتدّ المكان إلى ما لا نهاية. لكن حجم الزمن، يستحيل رعبًا أكثر حدّة، إلى درجة تصبح فيها الأفكار والأحاسيس الّتي يمكن أن تملأ حيّز ليلة واحدة، قادرة بالنسبة إليه على تمثيل قرن كامل. وفي خضمّ ذلك، تظهر أكثر أحداث الطفولة سوءًا مجدّدًا في رأسه، وتعيش حياة جديدة. ربمّا لن يتذكّر ذلك عندما يستيقظ، لكنّه سيتعرّف إليها مباشرة في نومه. كان مثل شخص يرى في الدّقيقة الأكثر عذابًا من غرقه، شريط حياته، كما لو كان منعكسًا على المرآة، مثل ملعون يقرأ في ثانية التقرير المروّع لأفكاره الأرضيّة كلها، مثل النجوم الّتي تظهر في الليل مجدّدًا بعد أن حجبها ضوء النهار؛ مثل ظهور الأشياء الراسخة في الذاكرة اللاوعية مجدّدًا، كما لو كانت ظلًّا ظريفًا.

يوثّق الكاتب الخصائص الرئيسة لأحلامه من خلال بعض النماذج الغريبة والمخيفة؛ ومن بينها، واحدة دفع فيها المنطق الفريد الّذي يحرّك الأحداث في نومه إلى جعل حَدَثَيْن تاريخيَّيْن بعيدَيْن، يتطابقان في رأسه بالطريقة الأكثر غرابة. وهكذا، تتحوّل التراجيديا أحيانًا، في الذهن الطفوليّ لريفيّ ساذج إلى الانفراج الكوميديّ الّذي افتتح المشهد:

"دائمًا ما كنتُ في شبابي، وحتّى بعدهُ، قارئًا كبيرًا لـ "تيتوس ليفوس"(*)، ودائمًا ما كانت قراءته تمثّل بالنسبة إليّ متعة كبيرة؛ وأعترف أنّني أُفضّلهُ، شكلًا ومضمونًا، على أيّ مؤرّخ رومانيّ آخر؛ وقد أحسستُ بكلّ الهيبة والوقع المخيف لوصفه المهيب لجلالة الشعب الرومانيّ في هاتَيْن الكلمَتَيْن اللّتَيْن تتكرّران كثيرًا في كتاباته: كونصول رومانوس

---

*) تيتوس ليفوس Titus Livius (٥٩ ق.م - ١٧ م): أحد أشهر المؤرّخين الرومان.

(القنصل الرومانيّ)، وخاصّة عندما يصوّر القنصل بطابعه العسكريّ. أريد أن أقول إنّ كلمات مثل: ملك وسلطان ووَصيّ، أو التسميات الأخرى كلّها المتعلّقة بالرجال الّذين يحظون بإجلال شعب كبير، لم تكن من القوّة بحال، لتُلهمني الاحترام نفسه الّذي أكنّه لكلمة قنصل. ورغم أنّي لم أكن قارئًا كبيرًا للمسائل التاريخيّة، كنتُ أيضًا على دراية دقيقة ونقديّة بفترة معيّنة من تاريخ إنجلترا، وهي فترة الحرب الأهليّة الأولى الّتي لفتت انتباهي بعظمة أولئك الّذين عاصروها، وبالذاكرات الكثيرة المهمّة الّتي نجت من أهوال هذه الحقب المضطربة. وهذان الجانبان من قراءاتي الترفيهيّة، مثّلا، في كثير من الأحيان، مادّة خصبة للتّأمّل، وصارت الآن غذاءً لأحلامي. وكثيرًا ما حدث معي أن رأيتُ، وأنا مستيقظ، مشهدًا أشبه ببروفة مسرحيّة، سترتسم لاحقًا في ظلام أحلامي؛ - حشدٌ من السّيّدات، - أو ربّما حفلة رقص. وكنتُ أسمع شخصًا ما يقول، أو كنتُ أقول لنفسي: "إنّهنّ نساء وبنات أولئك الّذين تجمّعوا في سلام، وجلسوا إلى الطاولات نفسها، يجمعهم الزواج أو الروابط الدمويّة؛ ثمّ، منذ أحد أيّام أوت سنة ١٦٤٢ لم يضحكوا أبدًا، ولم يلتقوا أبدًا إلّا في ساحة المعركة؛ وفي ماستون مور، ونيوباري أو ناسيبي، قطعوا روابط الحبّ كلّها بسيوفهم الحادّة، ومحوا بالدّم ذكرى الصداقات القديمة." بدت السّيّدات وهنّ يرقصنَ مغريات، كما لو كنّ في بلاط جورج الرّابع. ومع ذلك، كنتُ أعرف، حتّى في حُلمي، أنهنّ في القبور منذ ما يقارب قرنَيْن. لكنْ، تنتهي هذه الجلبة كلّها فجأة؛ وبتصفيقة واحدة باليَدَيْن، تُسمَع تلك الكلمة الّتي يهتزّ لها قلبي: كونصول رومانوس! ومباشرة، يأتي جارفًا كلّ شيء أمامه، رائعا في معطفه الحربيّ، وإلى جانبه بول إيميل أو ماريوس محاطين بفرقة من الجنود، معلّقًا الراية الحمراء على رمحه، ووراءهُ هتاف الجحافل الرومانيّة المرعب."

كانت تتشكّل في رأسه هندسة مروّعة وغريبة، أشبه بتلك البنايات المتحرّكة الّتي تراها عينُ الشاعر في السحب الملوّنة بشمس الغروب. لكنْ، قريبًا، سيلي هذه الأحلام بالشرفات والأبراج والأسوار الّتي تصعد إلى علوّ مجهول، وتتغلغل إلى أعماق هائلة، بحيرات ومساحات شاسعة من الماء. ويستحيل الماء العنصر المهيمن. لقد سبق وأشرنا، في عملنا حول الحشيش، إلى ذلك الميل الغريب الّذي يبديه العقل إلى العناصر السائلة وإغوائها الغامض. ألا يمكن القول إنّه ثمّة علاقة فريدة بين هذَيْن المخدّرَيْن، في مستوى تأثيرهما على الخيال على الأقلّ، أو، إذا فضّلنا هذه العبارة، إنّ العقل البشريّ، تحت تأثير المخدّر، يقع في حبّ بعض الصور بأكثر سهولة؟ ستتغيّر طبيعة المياه قريبًا، وستتحوّل البحيرات الشفّافة الهادئة والمضيئة مثل مرايا، إلى بحار ومحيطات. ثمّ، تتحوّلُ هذه المياه الرائعة مجدّدًا تحوّلًا مثيرًا للقلق من خلال حركتها وامتدادها إلى عذاب مخيف. لقد أحبّ كاتبنا الحشود كثيرًا، ولطالما ارتمى بتلذّذ كبير في بحارها، كي لا يستبدّ الوجه الإنسانيّ بأحلامه. وهكذا، يظهر ما أسماه، على ما أظنّ، طغيان الوجه الإنسانيّ. "وفوق مياه المحيط الهائجة، بدأ يظهر وجه الإنسان؛ وبدا لي البحرُ معبّدًا بما لا حصر له من الرؤوس المشرئبّة إلى السماء؛ وجوه مروّعة، ومتوسّلة، ويائسة، طفقت ترقصُ على السطح بالآلاف، والأجيال، والقرون؛ صار اهتياجي لا نهائيًّا، وأخذ رأسي يلتفّ على نفسه مثل أمواج المحيط."

لاحظ القارئ منذ وقت طويل، أنّ الرجل لم يعد يُنتج الصّور، وإنما كانت الصّور هي التي تهب نفسها إليه بطريقة عفويّة ومستبدّة. لا يستطيع رفضها؛ لأنّه لم يبق لإرادته أيّ قوّة، ولم يعد بإمكانها التّحكّم في ملكاته. وصارت الذّاكرة الشعريّة، مصدر المتع الّتي لا تنتهي في السابق، ترسانة لا تنضب من أدوات العقاب.

سنة ١٨١٨، عذّبه الماليزيّ الّذي تحدّثنا عنه كثيرًا؛ لقد كان زائرًا ثقيل الظّلّ. ومثلهُ مثل الفضاء والزمن، تضاعف الماليزيّ. لقد أصبحَ القارّة الآسيويّة بأكملها؛ آسيا القديمة، المهيبة والغامضة والمعقدّة مثل معابدها وديناتها، حيثُ كلّ شيء، بداية من جوانب الحياة الأكثر عاديّة وصولًا إلى الذكريات الكلاسيكيّة والرائعة الّتي تحتويها، منذور لإرباك وإبهار العقل الأوروبيّ. ولم تكن الصّين فقط، الغريبة والاصطناعيّة، المذهلة والعجوز مثل خرافة هي الّتي تضطهد رأسهُ. بل كانت هذه الصورة تُذكّر بصورة جارتها الهند، الملغزة والمبهرة بالنسبة إلى عقل غربيّ؛ ثمّ ستمثّل الهند والصين قريبًا إلى جانب مصر ثالوثًا مرعبًا، وكابوسًا معقّدًا إلى جانب مخاوف متعدّدة. وباختصار، لقد أحيا الماليزيّ الشّرق الهائل والرائع كلّه. وبدت لي الصفحات الموالية، أجمل بكثير من أن أختزلها:

"لقد كان هذا الرجل يأخذني كلّ ليلة إلى لوحة آسيويّة. لا أعرف ما إذا كان من الممكن أن يتقاسم معي أناسٌ آخرون مشاعري حول هذه النقطة؛ لكنّني، دائمًا ما فكّرتُ أنّهُ في حال أُجبِرْتُ على ترك إنجلترا والعيش في الصين، فإنّني سأصبحُ، من خلال نسق وطريقة وأجواء الحياة الصينيّة، مجنونًا. إنّ أسباب رعبي عميقة، ولا بدّ أنّني أشترك في بعضها مع أناس آخرين. تمثّل آسيا الجنوبيّة عمومًا سلسلة من الصور المروّعة ومن الأفكار المخيفة؛ وفقط، بِعَدِّها مهدًا للجنس البشريّ، تفرض عليكَ لا أعرف أيّ إحساس غامض بالرعب والاحترام. لكنْ، ثمّة أسباب أخرى أيضًا. لا أحد يستطيع أن يدّعي أنّ الخرافات الغريبة والهمجيّة والعجيبة الموجودة في إفريقيا، أو في القبائل المتوحّشة كلها في أنحاء الأرض، أن تؤثّر عليكَ بالطريقة نفسها الّتي تؤثّر بها الديانات القديمة والمرعبة والمعقّدة الموجودة في هِندستان. إنّ في قِدَم أشياء آسيا وقِدَم مؤسّساتها وسجلّاتها

وطُرُق إيمانها، وفي قِدَم الأعراق والأسماء، شيء ما مهيب ومهيمن وكاف لتبديد شباب الفرد، بطريقة تجعل أيّ شابّ صينيّ بالنسبة إليّ مثل رجل عاش قبل الطوفان، وانبعث من جديد. إنّ الانجليزيّين أنفسهم، رغم أنّهم لم ينشؤوا داخل مؤسّسات مشابهة، لا يستطيعون الامتناع عن الارتعاد أمام التعالي المتصوّف لهذه الشعوب، الّتي اتّبع كلّ منها مسارًا مختلفًا، ورفض جميعها أن يخلط مياهه مع الآخرين منذ عصور سحيقة. لا أحد يمكنه أن لا يحترم أسماء مثل "الغانج"(*) والفرات. وما يزيد طين هذه المشاعر بلّة، أنّ آسيا الجنوبيّة كانت ولا تزال، منذ آلاف السنين، الجزء الأكثر اضطرابًا في الحياة الإنسانيّة، وورشة الأرض الكبيرة. يتكاثر النّاس في هذه البلدان مثل العشب. ثمّ إنّ الإمبراطوريّات الشاسعة الّتي ولدت بها شعوب آسيا الهائلة، تضفي بهاءً كبيرًا على الصور والأسماء الشرقيّة. وفي الصين خاصّة، ودون عَدٍّ ما يجمعها ببقية آسيا الجنوبيّة، أرتعبُ من طُرُق العيش والعادات والاشمئزاز الكُلّيّ والحاجز الّذي يفصل بيننا وبين المشاعر الأعمق من أن نُحلّلها. أجد أنّه من الملائم أن أعيش مع المجانين أو الحيوانات. ويجب على القارئ أن يدخل في هذه الأفكار كلّها، وفي أفكار أخرى، لم أستطع قولها أو لم أجد الوقت للتعبير عنها، كي يفهم الرّعب كلّه الّذي تُحدثه في ذهني هذه الأحلام المشحونة بالخيالات الشرقيّة والعذابات الأسطوريّة.

"تحت تأثير الحرارة الاستوائيّة والضّوء الساطع، جمعت المخلوقات كلّها من الطيور والحيوانات والزواحف والأشجار والنباتات والعادات والمشاهد الّتي يمكن أن نجدها في المناطق الاستوائيّة كلّها، ورميتُ بها هكذا في الصّين وفي هِندسْتان. وبسبب شعور مشابه، أخضعت مصر والآلهات كلهنّ إلى القانون نفسه. قردة وببّغاوات تحدّق في وجهي، تناديني بسخرية،

---

*) نهرٌ في جنوب الهند.

تغيّر ملامح وجوهها، وتثرثرُ في وجهي. هربتُ إلى المعابد، وبقيتُ طيلة قرون مقيّدًا في القمّة، أو مسجونًا في غرفة سرّيّة. كنتُ المعبود والكاهن والمعشوق والقربان. أثرتُ غضب براهما في غابات آسيا كلّها؛ كرهني فيشنو؛ وأعدّ لي سيفًا كمينًا؛ سقطتُ فجأة عند إيزيس وأوزيريس؛ وقالوا إنّني قمتُ بشيء ما، ارتكبتُ جريمة أغضبت اللّقلق والتمساح. كنتُ مدفونًا، لآلاف السنين، في نعش حجريّ مع أبي الهول ومومیائه، في إحدى الغرف الضيّقة في قلب الأهرامات الأبديّة. كانت التماسيح تُقبّلني قبلات سرطانيّة؛ واستلقيتُ، مرتبكًا بالكثير من الأشياء الرّئبقيّة الّتي لا يمكن التعبير عنها، بين أوحال النّيل وقصبه الكثيف.

"أقدّمُ إلى القارئ هنا مقطعًا قصيرًا من أحلامي الشرقيّة، غالبًا ما ملأني مسرحه المتوحّش بدهشة، كانت قادرة لبعض الوقت على امتصاص الرعب نفسه. ولكنْ، عاجلاً أم آجلاً، سيحصل جزر في المشاعر، ستنتهي معه الدّهشة بدورها ، وسيدفعني إلى الهلع، وإلى الكراهية والإساءة إلى أيّ شيء أراه، ليغرس كلّ كائن، وكلّ تهديد، وكلّ عقاب، وكلّ سجن مظلم في داخلي شعورًا بالأبديّة واللانهاية سيُسبّب لي الرعب والجنون المستبدّ. ولم تدخل ظروف الرعب الجسديّ في اللعبة إلّا في هذه الأحلام، باستثناء اسثناء أو استثناءَيْن طفيفَيْن. لم تكن مخاوفي إلى حدّ هذه اللحظة سوى أخلاقيّة وروحيّة. ولكنْ، هنا، أصبحت الشخصيّات الرئيسة متمثّلة في طيور بشعة وثعابين وتماسيح، وخاصّة التماسيح. لقد أصبح التمساح اللعين بالنسبة إليّ أكثر رعبًا من أيّ شيء آخر. وكنتُ مُجبَرًا على العيش معه، اللعنة! (دائمًا ما يحدث هكذا في أحلامي) طيلة قرون. كنتُ أهرب في بعض الأحيان، فأجد نفسي في منزل صينيّ مؤثّثًا بطاولات القصب. وكانت أقدام الطاولات والأرائك كلّها تبدو متحرّكة؛ بينما يراقبني

رأس التمساح البغيض، بعينَيْه الصغيرتَيْن المائلتَيْن، من الجهات كلّها، متضاعفًا بطريقة لا حصر لها؛ وبقيتُ هناك مرتعبًا ومسحورًا. وغالبًا ما قطعت تلك الزواحف البشعة نومي، وانقطع الحُلم نفسه مرّات كثيرة بالطريقة نفسها؛ كنتُ أسمع أصواتًا خافتة تُكلّمني (أنا أسمع كلّ شيء، حتّى حينما أكون نائمًا)، وفجأة أستيقظ، في وضح النهار، بينما يقف أطفالي جنب السرير ممسكين أيادي بعضهم البعض؛ لقد جاؤوا لإطلاعي على أحذيتهم الملوّنة وملابسهم الجديدة، كي أُعجب بمظهرهم قبل أن يخرجوا في نزهة. أؤكّدُ أنّ الانتقال من ذاك التمساح اللعين وبقية الوحوش والكائنات المشوّهة الّتي أراها في أحلامي، ولا أجد لها أيّ تفسير، إلى هذه المخلوقات البريئة، إلى هذه الطفول الإنسانيّة، كان مرّوعًا إلى درجة أنّني كنتُ، في خضمّ التّشنّج القويّ والمفاجئ الّذي يكون عليه ذهني، أبكي دون أن أستطيع التّوقّف عن ذلك، مقبّلًا وجوههم."

ربّما ينتظر القارئ في هذا المعرض من الانطباعات القديمة الّتي يتردّد صداها في النوم، آن المسكينة ووجهها الحزين. ولأجله، ها هي ذا.

لاحظ الكاتب أنّ موت العزيزين علينا، أو تأمّل الموت عمومًا، يؤثّر على أرواحنا في الصّيف أكثر من أيّ فصل آخر من فصول السنة. تبدو السّماء أكثر ارتفاعًا وبُعدًا ولا نهائيّة. وتصبح السحب الّتي تقدّر من خلالها العينُ المسافة بينها وبين الجناح السماويّ (المخصّص للموتى) أكثر كثافة وتراكمًا في كتل أكبر وأكثر تماسكًا؛ ويصبح الضوء والشّمسُ في انخفاضها أكثر انسجامًا مع طبيعة اللانهائيّ. ولكنّ السبب الرئيس هو أنّ وضوح الحيّاة الصيفيّة المتوهّج والمهيب يُحدث تباينًا عنيفًا مع عقم القبور الجليديّ. وذلك ما تكون عليه فكرتان خاضعتان إلى علاقة تضادّ، فتذكّر

هذه بتلك، وتستحضر واحدة الأخرى. يعترف لنا المؤلّف أيضًا، أنّه، في أيّام الصيف الطويلة، كان من الصعب عليه أن لا يفكّر في الموت؛ وكانت فكرة موت شخص عرفه أو أحبّه، تسيطر على عقله بأكثر عناد خلال هذا الموسم الرائع. بدا له يومًا أنّه كان واقفًا أمام باب كوخه؛ (كان ذلك في حُلمه) صبيحة يوم أحد من شهر ماي، أحد أعياد الفصح، ما لا يتعارض على كلّ حال في شيء مع التقويم الزمنيّ الّذي تتبعه أحلامه. كان المنظر المعتاد يمتدّ أمامه، وإنّما متضخّمًا وبهيًّا بسبب نومه الساحر. كانت الجبال أعلى من الآلب، وكانت السهول والغابات في سفوحها تمتدّ إلى ما لا نهاية له، وكانت الوشائعُ مزيّنة بورود بيضاء. وبِعَدٍّ أنّ ذلك حدث في وقت مبكّر جدًّا من اليوم، لم يرَ أيّ مخلوق حيّ، باستثناء المواشي الّتي تستريح في المقبرة فوق القبور المعشوشبة، متحلّقة حول لَحْد طفل، كان عزيزًا كثيرًا عليه (دُفن هذا الطفل فعليًّا في تلك الصائفة؛ وذات يوم قبل طلوع الشمس، رأى الكاتب فعلًا هذه الحيوانات تستريح عندَ قبره). وهكذا، قال لنفسه: "لايزال كثير من الوقت قبل طلوع الشمس؛ إنّه يوم عيد الفصح؛ اليوم الّذي نحتفل فيه بثمار القيامة الأولى. سأخرج للتّنزّه، وسأنسى اليوم آلامي القديمة؛ الهواء منعش وهادئ؛ والجبال مرتفعة وممتدّة إلى السماء بعيدًا؛ إن الغابات هادئة مثل المقبرة؛ سيغسل النّدى حُمّى جبيني، وهكذا سوف أكفّ عن كوني بائسًا." ثمّ توجّه إلى باب الحديقة، ليفتحه، عندما تحوّل المشهد على يساره. لا يزالُ في يوم عيد الفصح وفي الصباح الباكر؛ لكنّ المشهد أصبح شرقيًّا. كانت قبابُ إحدى المُدُن الكبيرة تنغرس في الأفق (ربّما كان ذلك صورة من صور الإنجيل الّتي تأمّلها في طفولته). وليس بعيدًا عنه، فوق حجر يظلّلهُ نخيل يهوذا، جلست امرأة. إنّها آنْ!

"كانت تثبّت عينَيْها عليّ، وتنظر إليّ نظرة مكثّفة. قلتُ لها: "لقد وجدتُكِ أخيرًا!" وانتظرتُ، لكنّها لم تقل كلمة واحدة. كان وجهها مثلما رأيتُه آخر مرّة، ومع ذلك، كم كان مختلفًا! قبل سبعة عشر عامًا، عندما كان ضوء المصابيح يضيء وجهها، وعندما قبّلتُ شَفَتَيْها للمرّة الأخيرة (شفتاك، يا آن! لم تتلوّثا مطلقًا بالنسبة إليّ)، انهمرت عيناها بالدموع؛ ولكنّ هذه الدموع جفّت الآن؛ وبدت أكثر جمالًا ممّا بدت عليه في تلك الفترة؛ ومع ذلك كانت هي نفسها في كلّ شيء، ولم تهرم مطلقًا. كانت نظراتها هادئة، ولكنْ، مفعمة بجنائزية فريدة، جعلتْني أتأمّلها بنوع من الهلع. فجأة، صارت هيئتها معتمة؛ وحينما استدرتُ من جهة الجبال، رأيتُ ضبابًا يتبخّرُ بيننا؛ وفي لحظة واحدة، اختفى كلّ شيء؛ وخيّم ظلام كثيف؛ وفي رمشة عين، وجدتني بعيدًا، بعيدًا جدًّا عن الجبال، أتنزّه مع آن تحت أضواء مصابيح شارع أكسفورد، تمامًا مثلما كنّا نفعل قبل سبعة عشر عامًا، عندما كنّا، أنا وهي، طفلَيْن صغيرَيْن."

يذكر الكاتب عيّنة أخرى من تصوّراته المرضيّة؛ ولفرط ما كان هذا الحُلم الأخير (الّذي يعود إلى سنة ١٨٢٠) أكثر روعة وأكثر غموضًا وذا طابع مراوغ، يدفع صاحبهُ إلى شعور لاذع، تشكّل في أجواء اللّامحدّد المتحرّكة والمرنة. وأنا يائس من تقديم سِحْر الأسلوب الإنجليزيّ بشكل مناسب:

"بدأ الحُلمُ مع الموسيقى الّتي غالبًا ما كنتُ أسمعها في أحلامي، موسيقى تحضيريّة جُعلت لإيقاظ العقل ووضعه في حالة من التشويق؛ موسيقى مشابهة لتلك الّتي تُفتتح بها التكريمات، والّتي تعطي مثل هذه الأخيرة انطباع مسيرة عسكريّة طويلة، أو موكب لا نهائيّ من الفرسان، وتأهّب جيوش كثيرة. لقد جاء صباحُ اليوم الجنائزيّ؛ يوم المحنة واليأس النهائيّ من الطبيعة البشريّة؛ يوم مظلم بكسوف غامض، ومليء بالأهوال

المرعبة. في مكان ما، لا أعرف أين، - وبطريقة أو بأخرى، لا أعرف كيف، - ومن قِبَل من، لا أعرف مَنْ، - نشبت معركة ضروس، - وكان العذاب – وتحوّل ذلك إلى شيء أشبه ما يكون بدراما كبيرة أو مقطوعة موسيقيّة؛ وتحوّل التعاطف الّذي شعرتُ به إلى عذاب بسبب عدم تيقّني من المكان، ومن السبب ومن الطبيعة ومن النتيجة الممكنة لما يحدث. وكما يحدثُ عادة في الأحلام، حيث نكون بالضرورة مركز أيّة حركة، كانت لديّ القدرة، رغم أنّهُ لم تكن لديّ القدرة على اتّخاذ أيّ قرار؛ وكانت لديّ القوّة، شرطَ أن أرتفع إلى نقطة الإرادة، ومع ذلك، لم تكن لديّ هذه القوّة، لأنّني كنتُ مُكبّلاً بحِمل عشرين أطلس أو تحت اضطهاد جريمة لا تُغتفر. وأعمق ممّا يمكن أن تصلهُ رصاصة مجسّ، بقيتُ خامدًا بلا حركة. وهكذا كما لو كان جوقة، صار للهيام صوت أكثر عمقًا. وكان ثمّة أمر مهمّ جدًّا على المحكّ، قضيّة أكثر أهمّيّة من أيّ شيء آخر، يُحَدُّ لها السيف، وتُنفخُ لأجلها الأبواق. ثمّ تأتي تنبيهات مفاجئة؛ خطوات مسرعة من هنا وهناك؛ عدد لا يُحصى من الهاربين. لم أكن أعرف ما إذا كانت مترتّبة عن سبب جيّد أم سيِّئ: ظلامٌ وضوء – عواصف ووجوه بشريّة، - وفي النهاية، بالتزامن مع الشعور بضياع كلّ شيء، تظهر أشكال من النساء؛ وجوه كنتُ أرغب في معرفتها مقابل ثمن العالم كلّه، ولا أتمكّن من لمحها سوى لحظة؛ - ثمّ تأتي الأيادي المرتعشة، والفواصل الّتي تمزّق القلوب؛ - ثمّ وداع أبديّ! مع تنهيدة مثل تلك الّتي تخرج من كهوف الجحيم، عندما تنفثُ زانية المحارم اسم الموت البغيض، ويرتدُّ الصوت: وداعٌ أبديّ! ثمّ، مرّة أخرى وأخرى، من صدى إلى آخر، يتردّدُ : - وداعٌ أبديّ!

"ثمّ استيقظتُ متشنّجًا، وصرختُ بأعلى صوت: لا! لم أعد أرغب في النوم! "

# V

# نهاية كاذبة

اكتفى دي كوينسي باختزال نهاية كتابه، على الأقلّ فيما يظهر أوّليًّا. وأتذكّر أنّني عندما قرأتُه لأوّل مرّة، وكان ذلك منذ سنوات (ولم أكن أعرف وقتها الجزء الثاني من الكتاب: التّنفّس من الأعماق، والّذي لم يُنشر لاحقًا)، كنتُ أتساءل من وقت إلى آخر: ماذا يمكن أن تكون نهاية كتاب مشابه؟ الموت؟ الجنون؟ لكنّ الكاتب، متحدّثًا باسمه الشخصيّ دائمًا، بقي بالتأكيد في حالة صحّيّة، إن لم تكن طبيعيّة وجيّدة، فإنها تُمكّنهُ على الأقلّ من الانكباب على عمل أدبي. إنّ ما بدا لي أكثر قابليّة للاحتمال في الوضع الرّاهن، هو أنّه كان بصدد التّعوّد على آلامه، ويأخذ على الآثار المروّعة لحميته الغريبة؛ وفي النهاية، قلتُ في نفسي: تمكّن روبنسون من الخروج من جزيرته؛ ويمكن للقارب أن يصل إلى إحدى السواحل مهما كانت مجهولة، ويُنقذ المنفيّ الوحيد؛ لكنْ، أيُّ رجل يستطيع الخروج من مملكة الأفيون؟ وهكذا واصلتُ في نفسي: هذا الكتاب الفريد، والاعتراف الصادق أو التّصوّر النقيّ للعقل (هذه الفرضيّة الأخيرة لا يمكن أن تكون محتملة مطلقًا بسبب أجواء الحقيقة الّتي تحوّم حول العمل بأكمله ونبرة الصّدق الفذّة الّتي ترافق كلّ تفصيل منه)، هو كتابٌ بلا نهاية. ثمّة بالتأكيد كُتُبٌ ومغامرات بلا نهايات. ثمّة وضعيّات أزليّة؛ وكلّ ما لهُ علاقة بما لا يمكن علاجه، وما لا يمكن إصلاحهُ، يدخل ضمن هذه الفئة.

مع ذلك، أستحضر أنّ آكل الأفيون أعلن في مكان ما في البداية، أنّهُ تمكّن في النهاية من تفكيك السلسلة اللعينة الّتي تربط كيانه كلّه حلقة حلقة. إذنْ، كانت النهاية بالنسبة إليّ غير متوقّعة؛ وأعترف أنّني عندما اكتشفتُها، ورغم تماسكها الدقيق كلّه، لم آمنها مباشرة. لا أعرف ما إذا كان القارئ سيشاركني انطباعي بهذا الصدد؛ لكنّني أقول إنّ الطريقة المتقنة والعبقريّة الّتي خرج منها سيِّئ الحظّ من المتاهة المسحورة أين ضاعَ جرّاء خطئه؛ بدت لي ابتكارًا لا يخدم غير الحذر البريطاني، وتضحيته الدائمة بالحقيقة من أجل شرف الحياء والأحكام المُسبَّقة العامّة. تذكّروا كَمّ الاحتياطات الّتي اتّخذها قبل أن يشرع في سرد إلياذة شروره، وكمّ الاهتمام الّذي أبداهُ، ليبرّر حقّه في القيام باعترافات، حتّى وإن كانت مفيدة. تريدُ بعض الشعوب نهايات أخلاقيّة، بينما تريد شعوب أخرى نهايات مواسية. فمثلًا، لا تريد النّساء أن يكافأ الأشرار في النهاية. ماذا سيقول جمهور مسارحنا، إذا لم يجد في نهاية المشهد الخامس الكارثة الّتي أرادتها العدالة، كي تُحدث توازنًا أخلاقيًّا أو بالأحرى طوباويًّا بين الجهات كلها، - تلك الكارثة المنصفة المنتظرة بنفاد صبر على امتداد المشاهد الأربعة الطوال السابقة؟ باختصار، أعتقد أنّ الجمهور لا يحبّ الّذين لا يتوبون وهم بالنسبة إليه فاسقون. وربّما فكّر دي كوينسي بالشيء نفسه، وطبّق على نفسه القاعدة. ولو وقعت هذه الصفحات الّتي كُتبت منذ مدّة مصادفة بين يَدَيْه، أتصوّر أنّه كان سيُبدي ابتسامة وديعة أمام عدم ثقتي المبكّرة في نهايته؛ وفي الحالات كلّها، أنا أستند إلى نصّه الصّادق والغامر في المواضع الأخرى كلّها، وأستطيع أن أُعلن هنا عن سجدة ثالثة أمام المعبود الأسود (ما يقتضي سجدة ثانية) سيكون لنا حديث عنها لاحقًا.

ومهما يكن من أمر، انظروا إلى هذه النهاية. منذ وقت طويل، لم يعد الأفيون مهيمنًا من خلال سِحْره، بل عن طريق العذابات الّتي يُسبّبها،

وهذه العذابات (وهو أمر معقول في ضوء التجارب المتعلّقة كلّها بصعوبة الانقطاع عن العادات القديمة، مهما كانت طبيعة هذه العادات)، بدأت مع المحاولات الأولى للتّخلّص من هذا الاستبداد اليوميّ. وبين عذابَيْن، واحد ينجرّ عن الاستخدام المستمرّ، والآخر عن الانقطاع المفاجئ، يقول لنا الكاتب إنّه اختار تلك الّتي تفترضُ فرصة للخلاص. "كم فكّرتُ في الأفيون في هذه الفترة، لا أستطيع قول ذلك؛ ذلك أنني كنتُ أشتري الأفيون الّذي أستعمله من صديق لي، لم يعد يرغب لاحقًا في أخذ مقابل مَا يقدّمه إليّ، بطريقة لم يكن ممكنًا معها أن أعرف الكمّيّة الّتي أتناولها على امتداد السنة. وأعتقد على الأقلّ أنّني كنتُ أتناوله بطريقة غير منتظمة، وأنّني كنتُ أُنوّع في الجرعات بين خمسين أو ستّين ومائة وخمسين حبّة في اليوم. وتمثّلت أوّل محاولاتي أن قلّصتُها إلى أربعين حبّة، ثمّ ثلاثين، ثمّ، كلّما استطعتُ ذلك، اثنَي عشر حبّة." ويضيف إنّهُ من بين الأشياء المختلفة الّتي حاولها، كان الشيء الوحيد الّذي استفاد منه هو صبغة الناردين. لكنْ، ما جدوى (هو الّذي يتحدّث) مواصلة سرد قصّة هذا التعافي والشّفاء؟ كان هدف هذا الكتاب إبراز قوّة الأفيون العجيبة، سواء من ناحية المتعة أو من ناحية الألم؛ انتهى الكتاب إذنْ. وليس مغزى القصّة موجّهًا إلا إلى آكلي الأفيون. كي يتعلّموا الخوف، علّهم يعرفون من خلال هذا النموذج الاستثنائيّ أنّه يمكنهم، حتّى بعد سبعة عشر عامًا من الاستعمال، وثمانية أعوام من الإفراط في تناول الأفيون، أن يتخلّوا عن هذه المادّة. وعلّهم، يضيف، يتمكّنون من تطوير المزيد من الطاقة في المجهودات الّتي يقومون بها، ويصلون في النهاية إلى النجاح نفسه!

"يخمّن جيريمي تايلور أنّه من الممكن أن تكون آلام الولادة أشدّ قسوة من آلام الموت. وأعتقد أنّ هذا محتمل جدًّا؛ ذلك أنيّ طوال هذه الفترة المخصّصة للتقليص من الأفيون، كنتُ أشعر بالعذابات كلها الّتي يشعر

بها رجل ينتقل من حالة وجوديّة إلى أخرى. ولم تكن النتيجة الموت، وإنّما نوع من الانبعاث الجسديّ ... بقيت ذكرى حالتي الأولى؛ لم تهدأ أحلامي تمامًا؛ لم ينته تضخّم الأشياء من حولي، ولم تهدأ العاصفة الهوجاء تمامًا؛ انسحبت الجحافل الّتي كانت تؤثّث أحلامي شيئًا فشيئًا، لكنّها لم تذهب تمامًا؛ بقي نومي مضطربًا وشبيهًا بأبواب الجنّة عندما عاد أجدادنا لتأمّلها، وبقي دائمًا كما يقول بيتُ ميلتون المروّع:

مزدحمًا بالوجوه المرعبة والأيادي المشتعلة."

إنّ التذييل (الوارد بتاريخ ١٨٢٢) موجّهٌ إلى تأكيد حقيقة هذا الانفراج، وإعطائه، إذا أمكن القول، طابعًا طبّيًّا. كان الانحدار من ثمانية عشر ألف قطرة إلى جرعة معتدلة، تتراوح بين ثلاثمائة قطرة وستّين قطرة، انتصارًا رائعًا بالتأكيد. لكنّ المجهود الّذي يجب بذله هنا، تطلّب طاقة إضافيّة، لم يتوقّعها الكاتب، وأصبحت الحاجة إلى هذا المجهود شيئًا فشيئًا أكثر وضوحًا. أحسّ على وجه الخصوص، بنوع من التّصلّب، ونقص في حساسيّة معدته، يبدو أنّه تزامن مع شيء من الاعتلال الصّلد. أكّد الطبيب أنّ مواصلة استخدام الأفيون، وإن بجرعات معدّلة، يمكن أن يؤدّي إلى نتيجة مشابهة. ومنذ ذلك الحين، أقسم على الإقلاع عن الأفيون إقلاعا نهائيًّا. وكان سرد مجهوداته وتردّده وآلامه الجسديّة المترتّبة عن انتصارات إرادته الأولى، مثيرًا للاهتمام حقًّا. كان ثمّة انخفاض تدريجيّ، وصل مرّتَيْن إلى الصّفر؛ ولكنْ، لحقتْه انتكاسات، عوّض فيها بقوّة ما امتنع عنهُ في السابق. وإجمالًا، أدّت الأسابيع السّتّ الأولى إلى ارتباك مروّع، شمل خلاياهُ كلّها، وخاصّة معدتهُ الّتي كانت تعود أحيانًا إلى وضعها الطبيعيّ، وأحيانًا أخرى تتألّم بغرابة من تهيّج لا ينتهي ليل نهار؛ وكان نوم (إيه من النوم!) ثلاث ساعات فما فوق على أربع وعشرين ساعة خفيفًا، بما يكفي ليسمع أصغر

الأصوات حوله؛ ينتفخُ فكّه السفلي باستمرار؛ تقرّحَ فمهُ ومن بين الأعراض السّيّئة الأخرى، عطسات عنيفة دائمًا ما رافقت محاولاته الثائرة ضدّ الأفيون (كان هذا المرض الجديد يدوم أحيانًا ساعَتَيْن، وكان يتكرّر مرّتَيْن أو ثلاث مرّات في اليوم)؛ وإلى جانب هذا، كان يلازمه إحساس شديد بالبرد، وفي النهاية زكام رهيب، لم يحصل مطلقًا تحتَ تأثير الأفيون. وصل عن طريق استعمال الحوامض إلى إرجاع معدته إلى وضعها الطبيعيّ، أي، إلى فقدان الوعي بعمليّات الهضم، كما الحال عند بقية النّاس. في اليوم الثاني والأربعين، اختفت هذه الأعراض المفزعة كلّها، لتفسح المجال إلى أعراض أخرى؛ لكنّه لا يعرف ما إذا كانت هذه الأعراض مترتّبة عن إدمانه القديم، أو أنّها مرتبطة بالانقطاع عن الأفيون. وهكذا كفّ التّعرّق المفرط الّذي كان يرافق، حتّى في رأس السنة، كلّ تقليص حاصل في الجرعات، عن الوقوع نهائيًّا في المواسم الأكثر حرارة من السنة. لكنْ، ثمّة آلام جسديّة أخرى، يمكن أن تُنسَب إلى طقس جويليه الممطر في الجزء الّذي يقع فيه مسكنهُ من إنجلترا. يصل الكاتبُ (مواصلاً اهتمامه بمساعدة سيّئي الحظّ الّذين يمكن أن يجدوا أنفسهم في وضع مشابه) إلى تقديم لوحة إجماليّة تتضمّن التواريخ والكمّيّات المتناولة في الأسابيع الخمسة الأولى الّتي بدأ فيها محاولته المجيدة. ونلاحظ في هذا المستوى انتكاسات رهيبة من صفر إلى ٢٠٠، ٣٠٠، ٥٠٠. لكنْ، ربّما، أدّى الانحدار السّريع وغير المدروس إلى آلام إضافيّة، تتطلّبُ أحيانًا البحث عن المساعدة في مصدر الألم نفسه.

إنّ ما أكّد لي دائمًا فكرة أنّ هذه النهاية نهاية مصطنعة، في جانب منها على الأقلّ، هو وجود نبرة تهكّم معيّنة، نبرة مزاح وسخرية في بعض الأحيان، تتخلّل مواضع كثيرة من هذا التذييل. وفي النهاية، كي يظهر الكاتب أنّه لا يولي جسدهُ البائس الاهتمام الّذي يبديه أولئك المهوسون الذين يقضّون

وقتهم كلّه في تأمّل أنفسهم، يُرضخُ هذا الجسد، هذه "الخرقة" الحقيرة، إلى العقاب على تعذيبه الشديد لهُ من خلال المعاملة غير المشرّفة الّتي يفرضها القانون على أسوإ المجرمين؛ وفي حال وجد أطبّاء لندن أنّ العلم يمكن أن يتسخلص بعض الفوائد من تحليل جسد آكل أفيون عنيد مثلهُ، فإنّهُ سيقدّم لهم جسده عن طيب خاطر.

كان بعض أغنياء روما غير حكيمين، بعد أن تركوا إرثًا للأمير، كي يستمرّ في العيش، كما يقول سوتونيوس بدماثة، ووجد القيصر الّذي قبل الإرث نفسهُ مهانًا من قِبَل هذه الكائنات المتمادية. لكنّ آكل الأفيون لا يخشى من الأطبّاء علامات نفاد صبرهم الصادمة. لكنّهُ يعرف أنّه لا يمكنه أن ينتظر منهم مشاعر مشابهة لمشاعره، أي أن يتجاوبوا مع هذا الحبّ النقيّ للعلم الّذي يدفعه إلى تقديم هذه الهبة الجنائزيّة من ثروته الثمينة. إيه، لو أمكن استعادة هذا الإرث في وقت لاحق سحيق؛ وإيه لو بقي هذا الكاتب، هذا المريض الفاتن حتّى في سخريته، معنا لفترة أطول ممّا بقاهُ فولتير الهشُّ، الّذي وضع، كما قلنا، أربعًا وثمانين سنة على ذمّة الموت![*]

*) بينما نكتبُ هذه الأسطر، وصلت أخبار وفاة توماس دي كوينسي إلى باريس. ودفعنا ذلك إلى التعبير عن تمنّياتنا باستمرار حياة هذا العقل العظيم الّذي انقطع فجأة من خلال أعماله. لقد تركَ هذا المنافس المحترم، صديق ووردزوورث وكولريدج وسوثاي وشارلز لامب وهازليت وويلسن أعمالًا كثيرة، من أهمّها: Confessions of an English opium-eater ; Suspiria & profundis ; the Coesars ; Literaly retniniscences ; Essays on the poets ; Autobiographic sketches ; Metnorials ; the Note bock ; Theological essays ; Letters to a young tnan ; Classic records reviewed or deciphered ; Speculations, literaly and philosophie, with German tales and other narrative papers ; Klosterheitn, or the masque ; Logic of political econotny (١٨٤٤); Essays sceptical and antisceptical on problems neglected or misconceived، وغيرها. لم يترك فقط سمعة واحد من أكثر العقول فرادة، وواحدة من أكثر الأرواح دعابة في إنجلترا العجوز، وإنّما أيضًا واحدة من أكثر الشخصيّات تأثيرًا وأكثرها فضلًا ومقدرة على تشريف تاريخ الأدب الّذي وصفه بسذاجة في كتابه "التّنفّس من الأعماق" الّذي سنشرع في دراسته قريبًا، والّذي يحيل عنوانهم في خضمّ هذه الظروف المؤلمة على نبرة حزن مضاعفة. مات السّيّد دي كوينسي في إيدنبورغ عن عمر يناهز خمس وسبعين

# VI

# الطّفل العبقريّ

تعود الاعترافات إلى سنة ١٨٢٢، وكُتبت "السوسبيريا" الّتي تتبعها وتكمّلها سنة ١٨٤٥. وإذا لم تتغيّر نبرتها تمامًا، فإنها، على الأقلّ، أكثر رزانة وأكثر حزنًا وأكثر لامبالاة. ولم أستطع وأنا أنظر في هذه الصفحات الاستثنائيّة مرّات ومرّات أن أمنع نفسي من الحُلم بمختلف الاستعارات

---

سنة. لديّ أمامي نعيٌ بتاريخ إلى ١٧ ديسمبر ١٨٥٩ ويمكن أن يكون مادّة لبعض التّأمّلات الحزينة. وفي أنحاء العالم كلّها، اغتصبت موجة الأخلاق المجنونة في النقاشات الأدبيّة كلّها، مكان الأدب الخالص. وغصّت الجرائد الأمريكيّة والإنجليزيّة إلى جانب جرائدنا بمقالات البومارتيّين وبعض روّاد الصالونات الآخرين. وأذكر، فيما يتعلّق بصلوات الجنازة الغريبة الّتي تلت وفاة إدغار آلان بو، أنّه أُتيحت لي الفرصة كي ألاحظ أنّ مجال الدّفن المخصّص للأدباء، أقلّ احترامًا من المقابر المشتركة، حيثُ يحمي أعوان الشرطة القبور من الحيوانات وعبثهم البريء. أريد من القارئ المحايد أن يكون فيصلًا. ألا يقدِّم آكل الأفيون للإنسانيّة مطلقًا خدمات إيجابيّة تهمّنا؟ إذا كان كتابه جميلًا، فنحن ندين له بالامتنان. بوفون الّذي لا يتعلّق به أيّ سؤال أخلاقيّ مماثل، ألم يفكّر في أنّ جملة جميلة أو طريقة جديدة جيّدة لقول الأشياء، تعود على الإنسان الروحانيّ بفائدة أكبر من اكتشافات العلم، أو بعبارة أخرى، أنّ الجميل أنبل من الحقيقيّ؟ وإذا كان دي كوينسي في بعض الأحيان صارمًا مع أصدقائه، أيّ كاتب يعرف حميّة الشَّغَف الأدبيّ، يمكنه أن يقلق تجاه ذلك؟ كان يعامل نفسه بقسوة، وفي النهاية، مثلما يقول في موضع ما، ومثل ما قال له كولردج قبل ذلك: إنّ الأذى لا يأتي دائمًا من القلب: ثمّة أذى الذّكاء وأذى الخيال. لكنْ، ها هو النقد الحقيقي! كان دي كوينسي قد وهبَ كولردج في شبابه جزءًا كبيرًا من إرثه: "لا شكّ أنّ هذا أمر نبيل وجدير بالثناء، وإن لم يكن حكيمًا، يقول كاتب السيرة الإنجليزيّ؛ لكنْ، علينا أن نتذكّر أنّهُ عندما كان ضحيّة أفيونه، وصارت صحّته متهالكة وأعماله مضطربة، جاء وقت وافق فيه على هبات أصدقائه برحابة صدر." وإذا تمكّنّا من ترجمة ذلك جيّدًا، فهذا يعني أنّه لا يجب الاعتراف بأي ذرّة من كرمه، بعَدِّ أنّه استفاد لاحقًا من كرم الآخرين. العبقريُّ لا يجد مثل هذه الصفات. ويجب عليكَ، للوصول إلى هذه النقطة أن تكون محبًّا للطابع الحسود والمنفصم الّذي يكون عليه النقدُ الأخلاقي. -- (ش. ب.).

الّتي يستعملها الشعراء لتصوير الإنسان العائد من معركة الحياة؛ إنّهُ بحّار قديم بظهر مقوّس، ووجه تشقّقه تجاعيد معقّدة، يدفّئ في بيته جسدًا بطوليًّا هاربًا من ألف مغامرة؛ إنّه المسافر الّذي يرجع في الليل إلى الغابات الّتي عبرها في الصباح، والّذي يتذكّر برقّة وحزن ألف حُلم تملّكَ رأسه وهو يعبر هذه الأنحاء، وصار الآن متبخّرًا في الأفق. إنّه ما أطلق عليه عمومًا: نبرة العائد؛ وهي ليست نبرة مفارقة، ولكنّها تقريبًا غريبة على الإنسانيّة، نصفُ أرضيّة ونصفُ فضائيّة، نجدها أحيانًا في "مذكّرات من وراء القبر"(*)، عندما يُلجَم الغضب والكبرياء الجريح، ويصبح احتقار رينيه العظيم لأشياء الأرض احتقارًا يائسًا.

تُخبرنا مقدّمة الـ "سوسبيريا" أنّه كانت لآكل الأفيون، رغم البطولات كلّها الّتي قام بها في مسار تعافيه الصبور انتكاسة ثانية وثالثة. وهذا ما يسمّيه "The third prostration before the dark idol". وحتّى إذا ما تركنا جانبًا الاعتبارات الفيزيولوجيّة الّتي يحاول من خلالها تبرير ذلك، من نوع أنّهُ لم يتحكّم بحكمة في تقشّفه، أعتقد أنّ هذا البؤس كان سهل التّوقّع. لكن المسألة هنا، لم تعد مرتبطة بالكفاح ولا بالتّمرّد. يفترض الكفاح والتّمرّد دائمًا قدرًا معيّنًا من الأمل، في حين أنّ اليأس أبكم. وحيثما لا يوجد علاج، تستسلمُ أعظم العذابات. صارت الأبواب الّتي كانت مفتوحة للعودة مغلقة، ومشى الرجلُ منقادًا إلى مصيره؛ سوسبيريا دي بروفوندس! (التّنفّس من الأعماق. لقد عُنونَ هذا الكتاب بطريقة جيّدة.

لم يعد الكاتب مصرًّا على إقناعنا بأنّ الاعترافات كُتبت، في جانب منها على الأقلّ، من أجل المصلحة العامّة. وكان هدفها، يُخبرنا بصراحة،

---

*) كتاب للمؤلّف الفرنسيّ فرانسو رينيه الفيكونت دوشاتوبريان (و.١٧٦٨- ١٨٤٨م).

أن تبرز القوّة الّتي يمتلكها الأفيون في تضخيم ملكة الحُلم الطبيعيّة. إنّ الحُلم بطريقة رائعة ليس في متناول النّاس جميعهم، وحتّى بالنسبة إلى أولئك الّذين يمتلكونه، من المرجّح أن يتقلّص الحُلم شيئًا فشيئًا لديهم، تحت وطأة التبديد الحديث المتصاعد دائمًا، وفي غوغاء التّقدّم المادّيّ. إنّ ملكة الحُلم ملكة إلهيّة وملغزة؛ لأنّه من خلال الحُلم يتواصل الإنسان مع العوالم المظلمة الّتي تحيط به. لكنّ هذه الملكة تحتاج إلى الوحدة، كي تتطوّر بحُرّيّة؛ وكلّما زاد تركيز الإنسان، زادت قدرته على الحُلم بعمق. ولكن، أيُّ وحدة أكبر وأكثر هدوءًا وانفصالًا عن عالم المصالح الأرضيّة، من تلك الّتي يخلقها الأفيون؟

لقد حدّثتنا الاعترافات بحوادث الشباب الّتي تمكّنت من إضفاء شرعيّة على استعمال الأفيون. لكنْ، ثمّة إلى حدّ الآن ثغرتان هامّتان، الأولى تتعلّق بالأحلام الناجمة عن الأفيون في فترة إقامة الكاتب في الجامعة (وهي ما يسمّيه: رؤى أكسفورد)؛ والثانية، متعلّقة بسرد انطباعات طفولته. وهكذا، تخدمُ السّيرة، في المستوى الثاني كما هو الحال في المستوى الأوّل، التفسير أو، بعبارة أخرى، التّحقّق من مغامرات العقل المُلغِزة. وسنجدُ في الملاحظات المتعلّقة بالطفولة أصل أحلام الكهل الغريبة أو من الأفضل أن نقول أصل عبقريّته. لقد فهم كتّاب السيرة جميعهم، بطريقة شبه كاملة، أهمّيّة الحكايات المرتبطة بطفولة كاتب أو فنّان. لكنّني أجد أنّ هذه الأهمّيّة لم تؤكَّد بما فيه الكفاية مطلقًا. وفي كثير من الأحيان، بينما أتأمّل الأعمال الفنّيّة، لا في ماديّتها القابلة للتّمثّل بسهولة، وفي رموزها واضحة الملامح أو المعنى الواضح لمواضيعها، وإنّما في الروح الّتي تسكنها، وفي الانطباع الّذي تحمله عن محيطها، وفي الأنوار أو الظّلمات الروحيّة التي تشعّ بها علينا، أحسّ بشيء ما يغمرني، كما لو كان إحدى الرؤى القادمة من

طفولة أصحابها. إنّ أيّ حزن وأيّ متعتة يعيشها الطّفل متضخّمةً بحساسيّته الرائعة، تتحوّل لاحقًا داخل الكهل، وحتّى دون علمه إلى أساس عمل فنّيٍّ. أخيرًا، وكي أُعبِّر بطريقة أكثر اختصارًا، ألن يكون من السهل أن نُثبت، من خلال مقارنة فلسفيّة بين أعمال فنّان ناضج، وحالة روحه عندما كان طفلاً، أنّ العبقريّة ليست سوى الطفولة وقد تحوّلت، موهوبة الآن، كي تعبّر عن نفسها من خلال أعضاء فحلة وقويّة؟ ومع ذلك، لا أدّعي ربط هذه الفكرة بالقوّة الجسديّة من أجل شيء أفضل من تخمين محض.

سنحلّل إذنْ بسرعة الانطباعات الأساسيّة المرتبطة بطفولة آكل الأفيون، من أجل استجلاء الأحلام الّتي مثّلت الغذاء المعتاد لعقله في أكسفورد. ويجب على القارئ ألّا ينسى أنّه إزاء عجوز يروي طفولته، عجوز يفكّر بدقّة كبيرة وهو يرجع إلى طفولته، وأنّ هذه الطفولة، أساس الأحلام اللاحقة، صارت في النهاية مَرئيّة مجدّدًا ومتمثّلة، من خلال فضاء الحُلم السِّحْرِيّ، أي من خلال طبقات الأفيون السميكة والشّفّافة.

# VII
# أشجانُ الطفولة

كان هو وأخواته الثلاث صغيرًا جدًّا عندما مات والدهم تاركًا لأمّهم ثروة طائلة، ثروة تاجر إنجليزيّ حقيقيّ. إنّ الرفاه والرخاء وسعة الحياة وروعتها ظروف ملائمة جدًّا لتطوّر حساسيّة الطفل الطبيعيّ. "ودون أن يكون لي أصدقاء آخرون، باستثناء أخوات ثلاث صغيرات بريئات، أتقاسم معهنّ حتّى فراش النوم، ومحاطًا بحديقة جميلة وهادئة بعيدة عن مشاهد الفقر ومظاهر الظلم والقهر كلها، لم يكن باستطاعتي، يقول، تمثُّل الطبيعة الحقيقية لهذا العالم". كان يشكر الله أكثر من مرّة على هذا الامتياز الّذي لا يُقارَن، لا فقط على أنّهُ كان يعيش في الرّيف والعزلة، "وإنما أيضًا على أن تكون مشاعره الأولى مرتبطة بأحلى الأخوات، ولا بإخوة رهيبين ودائمي التّأهّب للملاكمة." وفعلاً، فالرجال الّذين ربّتْهم النساء، وترعرعوا بين النساء لا يشبهون الرجال الآخرين جميعهم، حتّى وإن افترضنا تكافؤ أمزجتهم ومقدراتهم الروحيّة. إنّ هدهدة المُربّيات، والأحضان الأموميّة، ولمسات الأخوات، خاصّة الكبيرات منهنّ، بِعَدِّهنّ الشكل المصغّر للأمّهات، تحوّل، بعبارة أخرى، وهي تعجنهُ، العجين الذكوريّ. واستطاع الرجّل الّذي استحمّ طويلاً، منذ البداية، في جوّ المرأة الناعم، وفي رائحة يَدَيْها، وثديَيْها وركبَتَيْها وشَعْرها وملابسها الشّفّافة والعائمة،

*في الحمّام المعطّر الحلو*
*والمراهم والعطور(*)،*

أن يلتقط، في خضمّ ذلك، نعومة في الملَمس، وتميّزًا في النبرة، ونوعًا من التّخنّث الّذي دونه تبقى أكثر العبقريّات جموحًا وفحولة، في علاقتها بالكمال في الفنّ، كيانًا غير مكتمل. في النهاية، أريد أن أقول إنّ الطّعم المبكّر للعالم الأنثويّ، بتموّجه المتلألئ والمعطّر كله، هو الذي يحدّد العبقريّات اللاحقة، وأنا واثق من قدرة قارئتي الذكيّة جدًّا على تبرئة الشكل شبه الحسّيّ لعباراتي، عندما تتمثّل وتتفهّم نقاء أفكاري.

ماتت جاين أوّلًا. ولكنْ، لم يكن الموتُ بالنسبة إلى أخيها الصغير وقتها شيئًا مفهومًا بعد. جاين كانت غائبة فقط؛ وسترجع بلا شكّ. عاملتها خادمة مكلّفة بالاهتمام بها فترة مرضها، بشيء من القسوة في اليومَيْن الّذين سبقا موتها. علمت العائلة بالأمر، ومنذ تلك اللحظة، لم يستطع الطفل الصغير مطلقًا النظرَ في وجه هذه الفتاة. وكلّما ظهرت أمامه، كان يُثبّت عينَيْه على الأرض. لا بسبب الغضب، أو روح الانتقام الّتي كان يخفيها بداخله، وإنّما ببساطة بسبب الخوف؛ ذلك الإحساس الناجم عن اتّصال موجع؛ وكان الرعب المختلط بالحدس الأثر الناجم عن هذه الحقيقة الّتي اكتشفها لأوّل مرّة، والمتمثّلة في أن هذا العالم، هو عالم شؤم وكدح وحرمان.

لكنّ الجرح الثاني لقلب الطفل الّذي كان يحمله لم يكن سهل التضميد. وبعد مسافة بعض السنوات السعيدة، جاء دور العزيزة والنبيلة إليزابيث

---

*) ورد هذان السّطران باللاتينيّة (Dulce balneum suavibus/ Unguentatum odoribus). (المترجم).

الّتي كان لها ذكاء كبير ومبكّر إلى درجة أنّه كان يبدو له دائمًا، عندما يستحضر شبحها الوديع في الظلام، أنّ جبهتها العريضة محاطة بهالة ما أو بتاج من الضوء. وملأهُ الإعلان عن اقتراب موت هذه المخلوقة العزيزة على قلبه، والّتي تكبره بعامَيْن، والّتي أثّرت على شخصيّته كثيرًا، بيأس لا يُوصَف. وفي اليوم الموالي لهذا الموت، وبِعَدِّ عدم تمكّن فضول العلم من الكشف عن حقيقة هذه الهبة الثمينة، قرّر أن يرى أخته مجدّدًا. "عند الأطفال، يرتعب الشجنُ من الضوء، ويهرب من العيون البشريّة." لذلك، كان على هذه الزيارة السماويّة أن تكون سرّيّة، وبلا شهود. كان ذلك في منتصف النهار. عندما دخل إلى الغرفة، لم تلتقِ عيناه في البداية إلا بنافذة كبيرة، مفتوحة على مصراعَيْها، تدخل منها شمس صيف دافئة، وتزيد من بهائها. "كانت الحرارة جافّة، والسماء خالية من السُّحُب؛ وبدت الأعماق الزرقاء أشبه بتمثيل مثاليّ للّانهاية، ولم يكن من الممكن للعين أن تتأمّل، ولا للقلب أن يتمثّل رمزًا أكثر شفافيّة من الحياة ومن شموخها العظيم."

إنّها مصيبة كبيرة، مصيبة لا يمكن إصلاحها، تصيبنا في الفصل الجميل من العام، وتحمل، لنقل، طابعًا أكثر كارثيّة وأكثر كآبة. في الاعترافات، وقد لاحظنا هذا سابقًا على ما أظنّ، يؤثّر فينا الموت أكثر في مملكة الصّيف البهيّة. "وهكذا يتكوّن تناقض مرعب بين استوائيّة الحياة الخارجيّة، والعقم الأسود الّذي يسكن القبر. ترى عيوننا الصيف، ويطارد تفكيرنا القبر؛ يحيط بيننا الوضوح المتألّق، بينما في داخلنا الظلام. وعندما تتصادمُ هاتان الصورتان، تتبادلان قوّة مبالغًا فيها." غير أنّهُ بالنسبة إلى الطّفل الّذي سيصبح لاحقًا متخصّصًا في الفكر وفي الخيال، بالنسبة إلى كاتب "الاعترافات" و"سوسبيريا"، ثمّة سبب آخر دفع هذا التّضادّ إلى الربط بين صورة الصيف وفكرة الموت، ربطًا قويًّا، - وهو سبب مُستخلَص من العلاقة

الوثيقة الّتي تربط المشاهد والأحداث المصوّرة في الكتابات المقدّسة بعضها ببعض. "لا تتأتّى أغلب الأفكار والمشاعر العميقة مباشرة، وفي أشكالها العارية والمجرّدة، وإنّما من خلال توليفات معقّدة من الأشياء الملموسة." وهكذا، كان للإنجيل، الّذي كانت تُقرِئُهُ خادمة للأطفال في ليالي الشتاء الطويلة، مساهمة كبيرة في توحيد هاتَيْن الفكرَتَيْن في خياله. وكانت هذه الفتاة الّتي تعرف الشّرق، تفسّر لهم الفرق بين المناخات فضلاً عن عديد الاختلافات الصّغيرة الّتي تميّز الأصياف الّتي تكوّنها. كان ذلك في مناخ شرقيّ، في واحدة من تلك البلدان الّتي تبدو مباركة بصيف أبديّ، عندما عاش رجل صالح، كان أكثر من رجل، عشقهُ الإلهيّ. وكان المريدون يجمعون القمح في الصيف. ويوم أحد النخل(*)، ألم يمثّل أيضًا غذاء لهذه الأحلام؟ الأحد، هذا اليوم المخصّص للراحة، هذا اليوم الّذي يعدّ صورة لراحة أكثر عمقًا، لا يمكن الوصول إليها في قلب الإنسان؛ نخل، هذه الكلمة التي تنطوي في الوقت نفسه على منابع الحياة ومنابع الطبيعة الصيفيّة! كان أكبر حدث في القدس قريبًا عندما جاء أحدُ النّخل؛ وكان المكان الّذي يُذكّرنا به هذا الاحتفال قريبًا من القدس. والقدس الّتي مرّت مثل دلفي إلى سُرّة أو مركز الأرض، يمكن على الأقل أن تمرّ إلى مركز الموت. لأنه، إذا كان الموت قد ديس بالأقدام هناك، فسيفتح هناك أيضًا هوّتهُ الأكثر كآبة.

كان ذلك إذنْ، في صائفة رائعة تفيض بقسوة على غرفة الموت الّتي دخلها للمرّة الأخيرة، كي يتأمّل ملامح الفقيدة العزيزة على قلبه. كان يسمعهم يقولون في البيت إنّ ملامحها لم تتأثّر بالموت. كانت جبهتها على

---

(*) Le dimanche des Rameaux أو Palm Sunday بالإنجليزيّة، هو يوم الأحد الّذي يسبق عيد الفصح في التقويم المسيحيّ.

حالها، بينما تجمّد جفناها، وشحبت شفتاها، وصدمتهُ يداها المتصّلبتان بقسوة؛ وبينما كان ينظر إليها بلا حراك، هبّت ريح قويّة، وأخذت تنفخ بعنف، "لم أسمع، يقول، ريحًا أكثر حزنًا في حياتي." ومنذ ذلك الحين، صار في كثير من الأحيان، خلال أيّام الصيف، عندما تكون الشمس حارّة، يسمع الرّيح نفسها تهبّ، "ممتلئة بالصوت العميق نفسه، حادّة، جنائزيّة ودينيّة". إنّها، يضيف، رمز الأبديّة الوحيد الّذي يمكن للأذن الإنسانيّة أن تسمعه. وثلاث مرّات في حياته، سمع الصوت نفسه، وفي الظروف نفسها، بين نافذة مفتوحة وجثّة شخص ميّت في يوم صيف.

فجأة، رأت عيناهُ المبهورتان ببهاء الحياة الخارجيّة، والمقارنتان رحابة السماوات وشموخها بالبرد الّذي يُطوّق وجهَ الفقيدة، رؤيا غريبة. بدا لهُ أنّ نفقًا، أو قنطرة تنفتحُ في السّماء، - طريق ممتدّة إلى ما لا نهاية له. وفوق الأمواج الزّرق ارتفعت روحه؛ وأخذت هذه الأمواج تركض مع روحه نحو عرش اللّه. لكنّ العرش كان يهرب باستمرار من خطواته الحثيثة. وفي هذه النشوة الاستثنائيّة، غطّ في النوم، وعندما استعاد تملّك نفسه، وجد نفسهُ جالسًا إلى جانب سرير أخته. وهكذا، طار الطّفل الوحيد مُنهكًا بحزنه الأوّل إلى الله الوحيد بامتياز. وهكذا، جعلتْهُ الغريزة المتفوّقة على كلّ فلسفة، يجدُ في الحلم السماويّ ارتياحًا وقتيًّا. ظانًّا أنّه سمع خطوات على الدرج، وخائفًا من إخراجه من الغرفة، ومنعه من العودة إليها مجدّدًا، قبّل أخته بسرعة على شَفَتَيْها، ثمّ انسحب بحذر. في اليوم الموالي، جاء الأطبّاء ليُعاينوا الدماغ؛ كان يجهل سبب مجيئهم، وبعد سويعات من خروجهم، حاول التّسلّل مجدّدًا إلى الغرفة؛ لكنْ، كان الباب مغلقًا، وكان المفتاح قد سُحب منه. وهكذا نجا من رؤية بقايا، أفسدها العلم، تلك الّتي استطاع أن يحتفظ عنها بصورة هادئة وجامدة ونقيّة مثل الرخام أو الجليد.

ثمّ جاءت الجنازة، عذابًا جديدًا؛ عذاب المسافة على عربة مع لامبالين سيمثّلون بطريقة غريبة أحد أسباب حزنه الأخرى، أصوات الأبواق الرهيبة، وتلك الرسميّة المسيحيّة المُنهَكَة نفسها، بالنسبة إلى طفل، إلى درجة أن الوعود الدينيّة الّتي سترفع أخته إلى السماء، لم تعدُ تواسيه على فقدانها من الأرض. في الكنيسة، طلبوا منه أن يضع منديلاً على عينَيْه. هل كان إذنْ في حاجة إلى أن يقدّم أداءً جنائزيًّا، وأن يلعب دور الباكي، والحال أنّهُ بالكاد يستطيع الوقوف على قَدَمَيْه؟ ألهب الضوء النوافذ الملوّنة، حيثُ الرُّسُل والقدّيسون يشعّون ببهائهم؛ وفي الأيّام الموالية، عندما أخذوه لحضور الشعائر، رأت عيناه وهما مثبّتتان على الجزء غير الملوّن من النوافذ، بلا توقّف سحب السّماء الشفيفة، وقد تحوّلت إلى ستائر، وإلى وسائد بيضاء، تتوسّدها رؤوس أطفال، يتألّمون ويبكون ويموتون. وشيئًا فشيئًا، ارتفعت هذه الأسرّة إلى السماء، وصعدت مجدّدًا إلى الإله الّذي طالما أحبّ الأطفال. ولاحقًا، بعد ذلك بكثير، حضرت ثلاث مقاطع عن الجنازة، لا بدّ من أنّه كان سمعها، ولم يُنصت إليها، أو أنّ المواسات القاسية المتعلّقة بها أثارت حزنه الكبير، إلى ذاكرته، بمعانيها العميقة والغامضة كلها، متحدّثة عن الخلاص والقيامة والأزل، وأصبحت بالنسبة إليه موضوعًا متكرّرًا للتّأمّل. لكنّه، حتّى قبل هذه الفترة، كان مفتونًا بفرادة ذاك الطعم العنيف الكامن في المشاعر العميقة كلّها، خاصّة تلك الّتي لا يمكن مواساتها. وكان صمت الغابات الرحب، والأصياف الملتفّة بالضوء الباهر، والظهيرات الضبابيّة، تملؤه بلذّة خطيرة. كانت عيناه تجوبان السّماء والضباب بحثًا عن شيء غير موجود، وكان يبحث في الأعماق الزرقاء بعناد، علّه يكتشف صورة عزيزة على قلبه، ربّما سمح لها، عن طريق امتياز خاصّ، بالتمظهر مجدّدًا. وآسَفُ كثيرًا لأنّني أختزل هنا الجزء، المفرط في

الطول، الّذي يتضمّن سرد هذا الألم العميق والمتعرّج والميئوس منه مثل متاهة. هناك، استُحضرت الطبيعة كلّها، وصار كلّ عنصر من عناصرها تمثيلاً لفكرة محدّدة. كان هذا الألم، من وقت إلى آخر، يدفع أزهارًا كئيبة ومغناجات، وفي الوقت نفسه، حزينة وخصبة إلى النُّمُوّ؛ وغالبًا ما كانت نبراته تتحوّل بمأتميّتها العاشقة إلى أوهام. أو ليست للحداد أناقته الخاصّة أيضًا؟ ولا يتعلّق الأمر فقط بصدق هذا الانفعال الّذي يغمر الرّوح؛ ثمّة أيضًا متعة فريدة وجديدة لرؤية ازدهار هذا التّصوّف المتوقّد والشّفّاف الّذي لا يُزهر عمومًا إلا في حديقة الكنيسة الرومانيّة. – أخيرًا، تأتي فترة لا تتغذّى فيها هذه الحساسيّة المرضيّة إلّا من الذكرى، بما يمكّن طعم العزلة المفرط من التّحوّل إلى خطر حقيقيّ؛ وفي واحدة من هذه الفترات الحاسمة والحرجة، حيثُ تقول الروح المُنهَكَة في نفسها: "إذا لم يستطع ما نحبّ أن يأتي إلينا، ما الّذي يمنعنا من الذّهاب إليه؟"، وحيثُ ينجذبُ الخيال مفتونًا ومتوجّسًا وملتذًّا إلى القبر. ومن حسن الحظّ أن جاء وقت العمل والانحرافات القسريّة. وكان عليه أن يلبس عدّة الحرب، ويستعدّ للدّراسات الكلاسيكيّة.

في الصفحات الموالية، رغمّ أنّها كانت مشرقة أكثر، نجدُ روح الحنان الأنثويّ نفسها مُطبَّقة هذه المرّة على الحيوانات، هؤلاء العبيد المهمّين، على القطط والكلاب والكائنات كلها الّتي يمكن بسهولة أن تُغضَبَ وتُضطهَدَ وتُسَلْسَل. مع ذلك، أليس الحيوان، بمرحه الطائش وبساطته، نوعًا من أنواع تمثيل طفولة الإنسان؟ وهنا، إذنْ، يبقى حنان الشّابّ الحالم، وهو ينغمس تمامًا في أشياء جديدة، وفيًّا إلى طابعه الأوّليّ. وبقي مُحبًّا، بشكل شبه مثاليّ، الضّعف والبراءة والنيّة الطّيّبة. ومن بين الآثار والطبائع الأساسيّة الّتي رسّختها الفقيدة في داخله، يجب أن نذكر أيضًا،

الحساسيّة المفرطة في الوعي، الّتي إذ تعاضد حساسيّته المرضيّة، تخدم التّضخّم الكبير للأشياء الأكثر ابتذالًا، واستخراج الأخطاء الأكثر هامشيّة، وحتّى الخياليّة، من الأهوال الحقيقيّة جدًّا للأسف. أخيرًا، لنتخيّل طفلًا من هذا النوع، محرومًا من موضوع أوّل عاطفة في حياته وأكبره، مُحبًّا للوحدة، وبلا أحد يأتمنه على نفسه. عندَ هذه النقطة، سيفهم القارئ جيّدًا أنّ عديد الظواهر البادية على مسرح الحُلم، هي أداءٌ لمعاناة سنواته الأولى. ألقى القدرُ بذورَه؛ فأخصبها الأفيون، وحوّلها إلى نباتات غريبة وغزيرة. أصبحت أشياء الطفولة، كي أستعمل استعارة تنتمي إلى الكاتب، الضاربَ (الحسابيّ) الطبيعيّ للأفيون. واستطاعت هذه الملكة السابقة لأوانها والمثقّفة والممارسة طويلًا في العزلة، والّتي مكّنته من إضفاء طابع مثاليّ على الأشياء كلها، وإعطائها أبعادًا فوق – طبيعيّة، استطاعت في أكسفورد، مفعّلة في مستوى آخر بالأفيون، أن تخلق نتائج هائلة، وغير عاديّة حتّى بالنسبة إلى الشّبّان الّذين في عمره.

يتذكّر القارئ مغامرات بطلنا في الشّمال وعذاباته في لندن، وتصالحه مع الأوصياء عليه. وها هو الآن في الجامعة، يجتهد في الدّراسة، يميل إلى الحُلم أكثر من أيّ وقت مضى، وستكون المادة الّتي تعرّف عليها ، مثلما قلنا، في لندن في علاقة بآلامه العصبيّة، مساعدًا خطيرًا وقويًّا لملكاته العصبيّة مُسبَّقًا. ومنذ ذلك الحين، دخلت حياة طفولته في حياته اللاحقة، ولم تمتزج بها إلا لتخلق كلًّا حميميًّا وغريبًا جدًّا. وشغل حياته الجديدة بإعادة عيش حياته الأولى. وكم مرّة، كان يعيش مجدّدًا في تسليات المدرسة، وفي الغرفة المأتميّة، حيثُ تتمدّد جثّة شقيقته، في ضوء الصّيف وجليد الموت، وفي الطريق المفتوحة على النشوة، من خلال قنطرة السماوات الزرقاء؛ ثمّ، الكاهن وهو يقف في جبّة بيضاء إلى

جانب قبر مفتوح، والنعشُ وهو ينزل داخل الأرض، والغُبارُ الموارى على الغبار؛ وأخيرا، القدّيسون والرُّسُل وشهداء الزجاج الملوّن، وقد أضاءتهم الشمس، وشكّلوا إطارًا رائعًا لتلك الأسرّة البيضاء ومهود الأطفال الّذين بأصوات الأبواق الشنيعة يعرجون إلى السماء! رأى هذا كلّه مرّة أخرى، وإنّما بطريقة منوّعة ومزيّنة، وبألوان أكثر كثافة أو أكثر تبخّرًا. أعاد رؤية كلّ عالم طفولته، ولكنْ، مع الثراء الشِّعريّ الّذي يضيفه الآن عقل مثقّف وحادّ ومتعوّد على استخراج أكبر ملذّاته من الوحدة والذكريات.

# رؤى أكسفورد

# I
# الرَّقُّ الممسوحُ(*)

"ما هو الدّماغ البشريّ إن لم يكن رَقًّا ممسوحًا هائلاً وطبيعيًّا؟ دماغي رَقٌّ ممسوحٌ، ودماغُكَ أيضًا، أيّها القارئ. أفكارٌ وصورٌ ومشاعر لا تُحصى، سقطت على دماغكَ واحدة تلو الأخرى بهدوء مثل الضوء. وبدا لكَ أنّ كلّ واحدة منها حجبت ومحت سابقتها. لكنْ، لم يهلك منها شيء في الحقيقة." مع ذلك، بين رَقٍّ ممسوح يحمل تراجيديا إغريقيّة وأسطورة رهبانيّة وتاريخًا من الفروسيّة، مرصّفة فوق بعضها واحدة تلو الأخرى، ورَقٍّ ممسوح سماويّ، صنعه الله، وهو ذاكرتنا الّتي لا تُقدّر، يكمن هذا الاختلاف المتمثّل في أنّه ثمّة في الأوّل فوضى عجيبة وغريبة، وتصادم بين عناصر غير منسجمة؛ بينما في الثاني تخلقُ الحتميّة انسجامًا بين العناصر الأكثر تباعدًا. ومهما يكون وجود ما غير متماسك، لا ترتبك الوحدة الإنسانيّة. وإذا استطعنا أن نُوقِظ أصداء الذاكرة كلّها في وقت واحد، ستشكّل حفلاً رائعًا أو مؤلمًا، ولكنْ، منطقيًّا، ودون تناقضات.

غالبًا ما حدث أن تفاجأ كثير من النّاس بحادث مفاجئ، ورأوا، بينما

---

*) الرَّقُّ (بفتح الرّاء) الممسوح LE PALIMPSESTE: الرَّقُّ هو الجِلْد الّذي يُكتَب عليه قديمًا. والرَّقُّ الممسوح هو ذاك الجِلْد الّذي يُكتَب عليه، ثمّ يعادُ محوه حسب الحاجة أو الظرفيّة التاريخيّة، للكتابة عليه مجدّدًا. وفي استعمالاتها المجازيّة أو النفسيّة الحديثة، تعني هذه العبارة في سياقها الغربيّ، أن يحلّ شيء جديد مكان شيء ما قديم دون أن يمحو آثاره تمامًا، وغالبًا ما ترتبط بالذاكرة البشريّة.

يختنقون بالماء في حضرة الموت، مسرح حياتهم الماضية كلّها مُضاءً في أدمغتهم. انتفى الزمن، وكانت بعض الثواني كافية لاحتواء كمّيّة من الصور والمشاعر والذكريات المعادلة لسنوات بأكملها. وما هو أكثر فرادة في هذه التجربة، أنّ الصدفة لا تجلب فقط العناصر المتزامنة تباعًا، وإنّما تُظهر أيضًا ما لم تعد الّذات نفسها تعرفه، وتُجبر مع ذلك على معرفته، بِعَدِّ انتمائه إليها. ليس النسيان إذًا إلّا أمرًا وقتيًّا؛ وفي مثل هذه الظروف المهيبة، وفي الموت ربمّا، وفي الإثارة المكثّفة الّتي يصنعها الأفيون عمومًا، ينكشف الرَّقُّ الممسوح الهائل والمعقّد كلّه مرّة واحدة، وبطبقات المشاعر المتراكمة كلّها قديمًا، والمحنّطة بغرابة داخل ما نُسمّيه نسيانًا.

حدث مرّة، أن رمى رجلٌ موهوب وحزين وغاضب، ويريد أن ينتقم من ظلم عصره، بمخطوطاته وكتاباته كلها في النّار. وعندما عاتبوه على هذا الهلوكوست المروّع الّذي فيه الكثير من الكراهية رغم أنّه كان تضحية بآماله كلها، أجاب: "مَنْ يهتمّ؟ المهمّ هو أنّ هذه الأشياء خُلِقَتْ، وبما أنّها خُلِقَتْ، إذنْ هي موجودة." كان يعطي لكلّ شيء مخلوق طابعًا أبديًّا. وكم تنطبق هذه الفكرة بأكثر وضوح على أفكارنا وأفعالنا الجيّدة أو السّيّئة كلّها! وإذا كان في هذا الاعتقاد نوع من العزاء في الحالة الّتي يلتفت فيها عقلنا إلى هذا الجانب الّذي ينتمي إلينا، ويمكننا أن ننظر إليه برضا كبير؛ أليس ثمّة شيء ما مروّع في الحالة اللاحقة الّتي لا مفرّ منها، عندما يلتفت عقلنا إلى هذا الجانب الّذي ينتمي إلينا أيضًا، والّذي لا نستطيع مواجهته إلا برعب؟ إنّ في ما هو روحيّ تمامًا كما هو الحال في ما هو ماديّ، لا شيء يضيع. ومثلما يكون كلّ عمل حاصل داخل دوّامة الفعل الكونيّ غير قابل للإلغاء والتعديل، الفكرة المستخرَجة من نتائجه المحتملة، فإنّ كلّ فكرة هي غير قابلة للمَحْو. وإنّ رَقَّ الذّاكرة الممسوح أمرٌ غير قابل للاتلاف.

"نعم، أيّها القارئ، ثمّة عدد لا نهائيّ من قصائد الحزن والفرح محفورة واحدة تلو الأخرى في رَقٍّ دماغكَ الممسوح، ومثل أوراق الغابات البِكْر، مثل سُحُب الهيمالايا السرمديّة، مثل الضوء الّذي يسقط على الضوء، تراكمت طبقاتها السميكة، وتوارت كلّ واحدة منها، كلٌّ حسب دورها، في النسيان. لكنْ، في ساعة الموت أو في الحُمّى أو في الحالة الّتي يخلقها الأفيون، تتمكّن هذه القصائد من استرجاع حياتها وقوّتها. لم تمُت، وإنّما هي نائمة. نعتقدُ أنّ أساطير الرهابنة عوّضت التراجيديا الإغريقيّة، وأنّ الرواية الفروسيّة عوّضت أساطير الرهابنة، لكنّ ذلك لم يحدث. وكلّما تقدّم الإنسان في الحياة، تلاشت الرواية الّتي سحرتْه في شبابه والأسطورة الرائعة الّتي أغوتْه في طفولته، وانعتمت داخل نفسها. لكنّ تراجيديات الطفولة العميقة، - أيادي الأطفال المنتزَعين من أمّهاتهم إلى الأبد، وشفاه الأطفال المحرومين من تقبيل أخواتهم إلى الأبد – تحيا مختبئة دائمًا تحت أساطير الرَّقِّ الممسوح الأخرى. وليست للعاطفة والمرض ما يكفي من الكيمياء، كي تحرق تلك البصمات الخالدة كلّها."

# II
# ليفانا وسيّدات أحزاننا

"في أكسفورد، لطالما رأيتُ ليفانا في أحلامي. وكنتُ أعرفها من خلال رموزها الرومانيّة"، لكنْ، ما هي ليفانا؟ إنّها الآلهة الرومانيّة الّتي ترأسُ الاحتفال بالخطوات الأولى الّتي يخطوها الطفل، والّتي تمنحهُ، بعبارة أخرى، الكرامة الإنسانيّة. "في لحظة الولادة، عندما يتذوّق الطفلُ لأوّل مرّة الطَّعْم المضجر لكوكبنا، يُوضَع على الأرض. ولكنْ، خوفًا من أن يزحف هذا المخلوق العظيم لحظة واحدة، يأتي مباشرة، أبوه بِعَدِّه مُفوَّضًا من قِبَل الآلهة ليفانا، أو أحد الأقارب، بِعَدِّه مُفوَّضًا من قِبَل الأب، ويرفعهُ في الهواء طالبًا منه أن ينظر إلى السماء، كما لو كان ملكًا لهذا العالم، ويعرض جبهة الطفل إلى النجوم، قائلًا في قلبه هذا ربمّا: "تأمّلْ ما هو أكبر منكَ!". إن هذه الممارسة الرمزيّة تمثّل وظيفة ليفانا. وتستمدُّ هذه الآلهة الّتي لم تكشف عن ملامحها لأحد (غيري، في أحلامي)، والّتي لا تُرى إلا من خلال مَنْ تُفوِّضهم، تستمدّ اسمها من الفعل اللاتيني "ليفار" الّذي يعني، أن ترفع شيئًا في الهواء، وأن تحمله إلى الأعلى."

لقد سمع كثير من الناس، بطبيعة الحال، عن ليفانا، القوّة الأساسيّة الّتي تُشرف على تعليم الأطفال بإحكام. لكنْ، لا تتصوّروا أنّه ثمّة هنا تلك البيداغوجيا الّتي لا يمكن أن تكون دون الأبجديّات والقواعد النحويّة؛ يجب

التفكير خاصّة في "ذاك النظام الكبير من القوى المركزيّة المخفيّة في حضن الحياة الإنسانيّة العميق، والّذي يهتمّ بلا توقّف بالأطفال، ويُعلّمهم واحدًا بعد الآخر: الحُبّ والكفاح والمحاولة وقوّة المقاومة". ترفع ليفانا من شأن الإنسان الّذي تحرسه، ولكنْ، بطُرُق قاسية. إنّها صعبة وقاسية، هذه المُربّية الجيّدة، ومن بين الوسائل الّتي تستعملها، كي تصل بالذات الإنسانيّة إلى الكمال، ذاك الّذي تفضّله على كلّ شيء: الألم. وثمّة ثلاث آلهات تحت إمرتها، تُوظّفهم لأغراضها الغريبة. فمثلما ثمّة ثلاث نِعم وثلاث راعيات وثلاث ربّاتِ جحيم، ومثلما قبلهم ثمّة ثلاث حوريّات؛ ثمّة أيضًا ثلاث آلهات للحزن. إنّهنّ سيّدات أحزاننا.

"رأيتهنّ، في كثير من الأحيان، يتحدّثن مع ليفانا، وحتّى يتحدّثنَ عنّي أحيانًا. هُنّ يتكلّمن، إذنْ؟ أوه! لا. هذه الأشباح القويّة تزدري قصور اللغة. يمكنها أن تنطق بعض الكلمات مستخدمة أعضاء الإنسان عندما تسكن قلب أحدهم؛ لكنْ، فيما بينها لا تستخدم الصوت؛ ولا تصدرُ أصواتًا؛ إنّ صمتًا أبديًّا يخيّم على ممالكهم ... تسمّى أكبر الأخوات الثلاث "ماتر لاكريماروم" أو سيّدة الدّموع. وهي الّتي تهذي وتتأوّه ليل نهار مظهرة وجوهًا متهالكة. هي الّتي كانت في راما عندما سُمع صوت ينتحب، صوت راشيل وهي تبكي أطفالها، ولا تريد من أحد أن يواسيها. كانت أيضًا في بيت لحم في الليلة الّتي حصد فيها سيف هيرود الأبرياء كلّهم خارج ملاجئهم ... تنفتح عيناها الدافئتان والثاقبتان، وغالبًا ما ترتفعان إلى السُّحُب، وتعاتبان السماوات. تضع إكليلاً على رأسها. وأعرف، من خلال ذكريات الطفولة، أنّها تستطيع السفر فوق الريح عندما تسمع تنهّدات الصلوات المقدّسة أو رعد أبواق الكنيسة، أو عندما تتأمّلُ تفتّت غيوم الصيف. إنّ هذه الشقيقة الكبرى تحمل في حزامها المفاتيح الباباويّة،

وتفتح بها الأكواخ والقصور جميعها. هي الّتي جلست، وأعرف ذلك، في الصيف الأخير، قرب سرير المتسوّل الأعمى الّذي طالما أحببت التّحدّث إليه، والّذي قاومت طفلته التّقيّة الّتي تبلغ من العمر ثماني سنوات، والّتي تتميّز بطلعة بهيّة، إغواء البقاء في القرية ومباهجها، كي تتسكّع طوال اليوم في الشوارع المغبرّة مع أبيها البائس. ولذلك أرسل إليه الله تعويضًا كبيرًا. وفي الرّبيع عندما بدأت هي نفسها تزهرُ، استدعاها إليه. بكاها أبوها الأعمى دائمًا، ودائمًا ما كان يحلم منتصف الليل أنّه مازال يمسك يدها الصغيرة الّتي تقودهُ، ودائمًا ما يستيقظُ في الظلام الّذي أصبح الآن أكبر وأعمق ... وبتلك المفاتيح، تتسلّل سيّدة الدّموع شبحًا داكنًا إلى غرف الرجال الّذين لا ينامون أبدًا، وغرف النسّاء اللائي لا ينمنَ أبدًا، وغرف الأطفال الّذين لا ينامون أبدًا، من نهر "الغانج" إلى النيل، ومن النيل إلى الميسيسيبي. وبِعَدِّ أنّها ولدت أوّلًا، وأنّها تملك المملكة الأكبر، كرّمناها باسم "مادون" (السّيّدة العذراء).

"تُسمّى الأختُ الثانية "ماتر سوسبيريوم"، سيّدة التنهّدات. وهي لا تتسلّق السُّحُب ولا تسافر فوق الريح. وعلى رأسها، لا يوجد إكليل. لا تبدو عيناها، إذا استطعنا رؤيتهما، لا وديعَتَيْن ولا حادَّتَيْن؛ لا يمكن أن نفكّك فيهما شفرة أيّ قصّة؛ لا نجدُ سوى كتلة متداخلة من الأحلام شبه الميّتة وبقايا هذيانات مَنسيّة. لا ترفع عينَيْها مطلقًا، يلتفّ رأسها بعمامة من الخرق، ويسقط دائمًا ناظرًا إلى الأرض. كما أنّها لا تبكي ولا تتأوّه. ومن وقت إلى آخر، تتنهّد بطريقة غير مفهومة. وإذا كانت أختها "مادون" تعصف وتهيج في بعض الأحيان هاذية ضدّ السماء، ومدافعة عن أحبّتها، فإنّ سيّدة التنهّدات لا تصرخُ مطلقًا،ا ولا تعاتب قطّ، ولا تحلم بالثورة أبدًا. إنّها خانعة حدّ الدّناءة. دمائتها مِن دمائة مَن ليس له أمل ... وإذا

غمغمت أحيانًا، فلا يحدث ذلك إلا في الأماكن القَصيّة المخرّبة مثلها، أو في المُدُن المدمّرة، وإلا عندما تغرب الشمس إلى راحتها. إنّ هذه الأخت هي زائرة المنبوذ واليهوديّ والعبد المجدّف في أقبية السُّفُن؛ .... والمرأة الجالسة في الظلام بلا حبّ يسند رأسها وبلا أمل في كسر وحدتها؛ .... وكلّ أسير في سجنه؛ وكلّ أولئك الّذين طُعنوا في ظهورهم وأولئك الّذين نُبذوا؛ وأولئك الّذين رُفضوا وفق قانون التقاليد والعادة، وأطفال العار الموروث. ترافق سيّدة التنهّدات هؤلاء كلّهم. وتحمل هي الأخرى مفتاحًا، لكنّها لا تحتاجه. لأنّ مملكتها تقع قبل كلّ شيء بين خيام سام(*)، والمتشرّدين في الأزمنة جميعهم. ومع ذلك، تجدُ في أعلى المراتب البشريّة بعض المذابح، وحتّى في إنجلترا المجيدة، ثمّة رجال يحملون، أمام العالم، رؤوسهم الأكثر شموخًا من رؤوس الأيائل، ويتلقّون في الخفاء علامتها على جباههم.

"وأمّا الأختُ الثالثة الّتي هي أصغرهنّ أيضًا !... صه! لا نتحدّث عنها إلا بصوت خافت. ليس لها مجال كبير، أو بالأحرى لا يمكن لأيّ كائن أن يعيش به. ولكنْ، لها السلطة المطلقة عليه ... رغم حجاب القماش الثلاثيّ الّذي تلفّ به رأسها عاليًا، يمكننا أن نرى تحتهُ الضوء المتوحّش الّذي يخرج من عينَيْها، ضوء اليأس المضيء على الدوام، في الصباحات والمساءات، ظهرًا ومنتصف الليل، وفي ساعة المَدّ، كما في ساعة الجَزْر. تتحدّى هذه الرّبّةُ الإله، هي وأمّ الخرف ومرشدة المنتحرين ... تمشي مادون بخطوة مضطربة، بطيئة أو سريعة، وإنّما بجمال تراجيديّ. تتسلّلُ سيّدة التّنهّدات بخجل وحذر. لكنّ أصغرهنّ تومئ بحركات لا يمكن توقّعها؛ تقفز، ولديها

*) خيام سام: سام من سلالة نوح. تذكرُ النصوص الدينية والأسطوريّة أنّه تشرّد طويلا في كنعان ومنه جاءت الشعوب الساميّة.

وثبة نمر. لا تحمل معها مفتاحًا، لأنها، وإن كان نادرًا ما تزور النّاس، عندما يُسمَح لها بالاقتراب من باب ما، تخلعه. واسمها "ماتر تينيبراروم"، سيّدة الظلمات.

"هكذا كانت ربّاتي الثلاث أو الرّبّات الحليمات (كما يقول الإطراء القديم المُستلهَم من الخوف) اللّائي كنّ تلازمنَ أحلامي في أكسفورد. تتحدّثُ مادون بيدها الغامضة. تلمسُ رأسي؛ تدعو بإصبعها سيّدة التنهّدات، ويمكن لعلاماتها الّتي لا يستطيع أحد قراءتها إلا في الحُلم أن تُترجمَ هكذا: "انظري! ها هو ذاك الّذي هيّأت له في طفولته مذابحي. لقد جعلتُهُ مفضّلاً لديّ. لقد أضللتُهُ، وأغويتُهُ، ومن أعلى السماء، جذبتُ قلبه إلى قلبي. لقد أصبح عبدًا بسببي، وامتلأ بالرغبة والضعف بسببي، وأحبّ دودَ الأرض، ووجّهَ صلواته إلى القبر الممتلئ به. فمقدّسٌ هو قبره، ومستحبٌّ ظلامهُ، وقدسيٌّ تعفّنهُ. لقد أعددتُ هذا العبدَ الشّابّ لأجلكِ، أيّتها العزيزة والحلوة، يا سيّدة التّنهّدات! احمليه الآن فوق قلبكِ، وجهّزيه لأختنا الرّهيبة. وأنتِ – ملتفتة إلى سيّدة الظلمات – تسلّميهِ منها، عندما يحين دوركِ. اِجعلي من صولجانكِ ثقيلاً على رأسه، ولا تتألّمي من امرأة، تأتي بحنانها إليه، وتجلسُ قُربهُ في ليله البائس. طاردي آماله الضعيفة كلّها؛ جفّفي بلسمَ الحُبّ، واحرقي نافورة الدّموع: اِلعنيه، لأنّكِ الوحيدة الّتي تعرف كيف تلعنُ. علّهُ هكذا، يُوضَع جيّدًا في الفرن؛ وعلّه يرى الأشياء الّتي لا يجب أن تُرى من المشاهد الكريهة والأسرار الّتي لا تُوصَف. علّه هكذا يقرأ الحقائق القديمة، الحقائق الحزينة، الكبيرة، الحقائق المروّعة. وعلّه هكذا، ينبعث قبل أن يموت. وننتهي من إنجاز مهمّتنا الّتي أمرنا بها الإله، والمتمثّلة في الاستمرار في تعذيب قلبه، إلى أن تتطوّر ملكاته الروحيّة."

# III

# طيف بروكن(*)

لنصعد إلى بروكن في أحد أعياد الخمسين(**) الجميلة. إنّهُ فجرٌ رائعٌ بلا غيوم! ومع ذلك، يشنّ أفريل غاراته الأخيرة على الموسم الجديد، ويغمرهُ بأمطاره الغزيرة. لنصل إلى قمّة الجبل؛ إنّ صبيحة مماثلة تتيح لنا فرصة أكبر لرؤية طيف بروكن الشهير. لقد عاش هذا الطّيف مع المشعوذين الوثنيّين طويلاً، وشهدَ كثيرًا من السِّحْر الأسود حتّى انفطر، ربمّا، قلبه، وضعف إيمانه. قُم أوّلًا برسم علامة الصليب اختبارًا، وانظر بعناية هل سيوافق على تكرار ذلك. في الواقع، سيُكرّر ذلك؛ لكنّ الأمطار التي تتقدّمُ تُربكُ شكلَ الأشياء الّتي يعكسُها، ولا تجعل منه سوى رجل يؤدّي واجبه بتردّد أو بطريقة مراوغة. أعد الاختبار، إذنْ، "اقطفْ واحدة من شقائق النعمان الّتي تُسمّى سابقًا زهور السّاحر، والّتي ربمّا تلعبُ دورها في طقوس الخوف المروّعة هذه. احملها على ذلك الحجر الّذي يحاكي شكل مذبح وثنيّ؛ اركع على ركبَتَيْكَ، وقُل رافعًا يدكَ اليُمنى: يا أبانا الّذي في السماوات!

---

*) طيف بروكن Spectre du Brocken: هو الظلّ المتضخّم لشيء ما عندما تُبصرهُ من قمّة جبليّة في الاتّجاه المعاكس للشمس فوقَ سحابة نديّة أو وسط الضباب. ويكون أحيانًا محاطًا بدائرة مضيئة، يزدادُ بهاؤها في الحالات الّتي تنضاف فيها ألوان قوس قزح إليها.

Goodrich, Samuel Griswold, Peter Parley's wonders of the sea and sky, Londres, Darton & Co., 1851, 345 p.

**) عيد الخمسين أو عيد العنصرة: عيد مسيحي، يُحتفل به بعد عيد الفصح بخمسين يومًا. ويقصد به حلول الروح القُدُس على تلامذة المسيح بعد صعود يسوع بعشرة أيّام. (المترجم).

... أنا خادمُكَ، وهذا الشبح الّذي صنعتُهُ يومَ عيد الخمسين، وجعلتُهُ خادمًا لي، نقدّم لكَ ولاءَنا المتوحّد في هذا المذبح المخصّص للكدح الحقيقيّ! – انظر! يقطفُ الشبحُ وردة من شقائق النعمان، ويضعها فوق مذبح؛ يركعُ، ثمّ يرفعُ يدهُ اليُمنى إلى الله. صحيحٌ أنّه أبكم؛ لكنْ، بإمكان البُكْم أيضًا أن يخدموا الله بطريقة مقبولة جدًّا."

مع ذلك، قد تعتقد أنّ هذا الطّيف المتعوّد منذ القديم على ولائه الأعمى، يمكن أن يتماشى مع العبادات جميعها، وأنّ فاعليّته الطبيعيّة تجعل من هذا الولاء بلا معنى. لنبحث إذنْ، عن وسيلة أخرى، نتحقّق بها من طبيعة هذا الكائن الفريد. أفترض أنّكَ عانيْتَ في طفولتكَ بعض العذابات أو مررتَ بيأس عضال، بواحدة من تلك الخرابات الصّامتة الّتي تنشجُ من وراء حجاب، مثل يهودا المنقوشة على الميداليّات الرومانيّة، جالسة بحزن تحت نخلتها. لُفَّ رأسكَ بحجاب، وتذكّر هذا الألم الكبير. لقد لفَّ شبح بروكن هو الآخر رأسهُ، كما لو كان له قلب إنسان، وكما لو كان يريد أن يعبّر عن طريق رمز صامت، عن ذكرى ألمٍ أكبر من أن يُعبّر عنه بالكلام. "حاسمٌ هو هذا الاختبار. أنتَ تعرف الآن أنّ الشبح ليس شيئًا آخر غير انعكاسكَ أنتَ، وأنّكَ بينما تُرسلُ إلى الطيف تجسيد مشاعركَ السّرّيّة، تصنعُ مرآتكَ الرمزيّة الّتي ينعكسُ عليها في ضوء النّهار ما كان ليختفي إلى الأبد في سياق آخر."

لدى آكل الأفيون أيضًا مترجم معتمٌ بالقرب منه، وتكون لهذا المترجم في علاقته بعقله، العلاقة نفسها الّتي تربط طيف بروكن بذاك المسافر الّذي أشرنا إليه. وتمامًا مثلما يضطرب الطّيف أحيانًا بالعواصف والضباب والأمطار؛ يخلطُ المترجمُ المُلغزُ أحيانًا طبيعتهُ الانعكاسيّة بعناصر غريبة.

"إنّ ما يقوله عامّة، ليس غير ما قلتهُ عندما كنتُ مستيقظًا في تأمّلات عميقة، إلى درجة تركت فيها بصمتها في قلبي. لكنّ كلماته تضطرب أحيانًا مثل وجهه، ولا تبدو مثل تلك الّتي فكّرتُ بها. لا يمكن لأحد أن يتمثّل كلّ ما يحدث في الأحلام. وأعتقد أنّ هذا الشّبح عمومًا تمثيلٌ وفيّ لي؛ ولكنّه أيضًا، من وقت إلى آخر، موضوع عمل "فانتازوس"(*) الّذي يحكمُ الأحلام." يمكن القول إنّ له علاقة بكورس التراجيديا الإغريقيّة، الّذي غالبًا ما يعبّر عن الأفكار السّرّيّة أو غير الواضحة الّتي تخامر الشخصيّة الرئيسة، ويقدّم لها تعليقات نبويّة أو تاريخيّة، خاصّة بتأكيد العناية الإلهيّة أو التخفيف من حدّة رعبها، مثل تلكَ الّتي كان بإمكان سيِّئ الحظّ أن يصل إليها لو تركَ له قلبهُ الوقت للتّأمّل.

*) فانتازوس: هو ابنُ النّوم حسب أوفيد، وهو الّذي يصنعُ الأشكال كلّها الّتي يمكن أن تظهر للإنسان في أثناء النوم. (المترجم).

# IV

# سافانا لامارْ(*)

في هذا المعرض الكئيب من اللوحات، ومن أليغوريّات الحزن الرحبة والمتحرّكة، أجدُ (ولا أعرف إن كان القارئ الّذي يراها مختزلة يشاركني الشعور نفسه أم لا) بهاءً موسيقيًّا رائعًا، ومقطعًا أخيرًا ينضاف، كما لو كان خاتمة لسمفونيّة طويلة.

"لقد ضربَ الله سافانا لامار، وفي ليلة واحدة أنزلها بمعالمها الرّاسخة كلها، وشعبها النّائم، وجعل أُسُسها الساحليّة صلبة فوق السرير المرجانيّ للمحيط. قال الله: لقد دفنتُ بومباي، وواريتها عن البشر طيلة سبعة عشر قرنًا؛ وسأدفن هذه المدينة، ولكنّني لن أُورايها. ستكون للبشر مَعلمًا من معالم غضبي المُلغز، وستبقى مثبّتة طيلة الأجيال القادمة داخل بهاء ضوءٍ سماويّ؛ لأنني سأضعها في القبّة الكريستاليّة الّتي تتكوّن منها كلّ بحاري الاستوائيّة." وفي كثير من الأحيان، في لحظات الهدوء العميقة، يرى البحّارة من خلال المياه الشفّافة هذه المدينة الصامتة، كما لو كانت تحتَ وقاءٍ بلّوريّ، ويجوبون بأنظارهم ساحاتها وشرفاتها، ويتأمّلون أبوابها وأجراس كنائسها: "مقبرة واسعة تُبهر العين، كما لو كانت وحيًا عجيبًا من الحياة الإنسانيّة، مقبرة ثابتة في غياهب الماء، بعيدًا عن العواصف الّتي

---

*) SAVANNAH-LA-MAR: مدينة ساحليّة من أهمّ مُدُن جامايكا. تُعرفُ بحصنها الكبير الّذي شُيّد في القرن الثامن عشر لحمايتها من خطر القراصنة.

تناكدُ مناخنا." في كثير من الأحيان، صحبة مترجمه الأسود، في كثير من الأحيان، في حلمه، زار عزلة سافانا لامار البِكْر. وكانا يشاهدان معًا الأبراج، حيثُ الأجراس الجامدة تنتظر عبثًا أعراسًا سوف تُعلَنُ؛ وكانا يقتربان من الأراغن الّتي لم تعد تحتفل بأفراح السماء، ولا بأحزان الإنسان قطُّ؛ معًا، زارا المهاجع الصّامتة أينَ ينامُ الأطفال منذ خمس أجيال.

"إنّهُم ينتظرون الفجر السماويّ، - قال المترجم الأسود في نفسه بصوت خافت – وعندما يأتي هذا الفجر، ستصدر الأجراس والأراغنُ ابتهالًا بهيجًا، ستتردّد أصداؤه في الجنّة. – ثمّ قال ملتفتًا إليّ: ها هو ذا الحزينُ البائس؛ لكنّ كارثة أصغر، لم تكن لتكفي لتحقيق أغراض الله. يجبُ أن تفهمَ هذا جيّدًا ... إن الزّمن الحاليّ ينحسرُ في نقطة رياضيّة، وحتّى هذه النقطة الرياضية نفسها تهلك ألف مرّة قبل أن نتمكّن من تأكيد ولادتها. في الحاضر، انتهى كلّ شيء، وحتّى هذا الّذي ينتهي لا نهائيّ في سرعة انفلاته إلى الموت. لكنْ، في اللّه، لا شيء ينتهي، ولا شيء يعبر، ولا شيء ينزعُ إلى الموت. ويترتّب عن ذلك، أنّ الحاضر لا وجود له بالنسبة إلى الله. بالنسبة إلى الله، الحاضر هو المستقبلُ، ومن أجل هذا المُستقبل يضحّي بحاضر الإنسان. لذلك يعملُ بزلزلة الأرض. ولذلك يعملُ بالألم. إيه! عميقة هي حراثة زلزلة الأرض! إيه! عميقة هي (وهنا يتضخّم صوته، كما لو كان يرتفع من كورس إحدى الكاتدرائيّات) حراثة الألم! لكنّ زراعة الله لا تتطلّب أقلّ من هذا. في ليلةِ هرّة أرضيّة، يبني للإنسان مساكن رائعة صالحة لألف عام. ومن ألم طفل، يجني ثمارًا روحيّة مجيدة، لم يكن بالإمكان جَنْيها بطريقة أخرى. لم يكن بالإمكان أن تُحرث الأرض الصلبة بمحاريث أقلّ قسوة. تتطلّب الأرضُ، كوكبنا ومسكن الإنسان، الاهتزاز؛ وغالبًا ما يكون الألم ضروريًّا، بِعَدِّه الأداة الأقوى الّتي يمتلكها الله؛ - نعم (ونظر إليّ بشيء من الهيبة)، إنّه ضروريّ لأطفال الأرض الغامضين!"

# IX
# خلاصة

رغم طابعها الرمزيّ العامّ، تُمثِّلُ هذه الأحلام الطويلة واللوحات الشعريّة، للقارئ الذكيّ، خاصّيّة كاتبنا الذهنيّة الّتي لا يمكن لبعض الحكايات أو الإشارات السيرذاتيّة أن تستوفيها حقّها.

يعود الكاتب في القسم الأخير من "السوسبيريا" إلى سنواته الأبعد، كما لو كان يستمتعُ بذلك، وفي هذا السياق، كما في المواضع الأخرى، ليس المهمُّ ما يسرده من أحداث، بل تعليقه عليها الّذي غالبًا ما تكسوه الظلمة والمرارة والكآبة والعزلة، والّذي يمكّنه من التحليق بعيدًا عن الواقع، وعن مسرح الكفاح البشريّ؛ خفقة جناح كبيرة نحو السّماء؛ ومونولوغ روحٍ دائمًا ما كان من السهل جرحها. هنا، كما هو الحال في بقيّة الأجزاء المدروسة، تُمثِّل هذه الفكرة جذع شجرة أفكاره الّتي تحدّث عنها الكاتب بروعة وبصدق متشرّد يعرف نفسهُ جيّدًا. ليس للموضوع أيّة قيمة، باستثناء كونه جذع جافّ وعار، لكنّ أشرطة الزينة وجذوع الكروم والزهور، يمكنها أن تُشكِّل بفضل تشابكها العَبَثيّ، ثراءً مَرئيًّا ثمينًا. لم يكن تفكير دي كوينسي ملتويًا فحسب؛ هذه الكلمة ليست قويّة بما يكفي؛ بل كان تفكيرًا لولبيًّا. وفعليًّا، سيحتاج تحليل هذه التعليقات والتّأمّلات وقتًا طويلًا، بينما عليّ أن أذكّر نفسي بأنّ هدف هذا العمل كان ولا يزال متعلّقًا بأن أبرز من

خلال مثال تأثير الأفيون على عقل تأمّليّ وميّال إلى الحُلم. وأعتقدُ أنّ هذا الهدف قد تحقّق.

يكفي أن أقول إنّ المفكّر المنعزل يعود بارتياح إلى هذه الحساسيّة المبكّرة الّتي مثّلت بالنسبة إليه مصدر كثير من الرّعب وكثير من النشوة؛ إلى حبّه الكبير للحُرّيّة، وإلى الخوف الّذي يُلهمه المسؤوليّة. "لقد اختلط رعب الحياة، أيّام شبابي الأولى، مع رقّتها السماويّة." ثمّة في هذه الصفحات الأخيرة من "السوسبيريا" شيء من الجنائزيّة والتآكل والنزوع بعيدًا عن أشياء الأرض. هنا وهناك، تظهرُ مرّة أخرى مغامرات الشباب والمرح والمزاج الجيّد والرغبة الكبيرة في السخرية (الّتي أثبتها في أكثر من موضع) من الذّات؛ لكنّ ما يبدو أكثر وضوحًا في هذا السياق هو الانفجارات الغنائيّة لحزنه العُضال. وفيما يتعلّق بالكائنات الّتي تضايق حُرّيّتنا، وتعارض مشاعرنا، وتنتهك حقوق شبابنا الأكثر مشروعيّة مثلاً، يصرخُ الكاتب: "أوه! كيف يمكن لهؤلاء أن يُسمّوا أنفسهم أصدقاء لهذا الرجل أو تلك المرأة، وهم الّذين يودّعون في ساعة الموت الأخيرة هذا الرجل أو تلك المرأة قبل أيّ أحد آخر: "لتصعدْ إلى السّماء حتّى لا نرى وجهكَ أبدًا!" أو يقدّم بسخرية هذا الاعتراف الّذي له بالنسبة إليّ، وأعترف بذلك بالصراحة نفسها، بهاءً شبه أخويّ: "عمومًا، كان الأشخاص الّذين أثاروا اشمئزازي في هذا العالم أشخاصًا جيّدين ومحترمين. وأمّا بالنسبة إلى الأوغاد الّذين عرفتهم، ولم يكن عددهم قليل، فأفكّر بهم، واحدًا واحدًا بلا استثناء، ببهجة وعطف كبيرَيْن." نلاحظ مرورًا، أنّ هذه الفكرة الجميلة تأتي في علاقة بالمحامي الّذي كنّا أشرنا إليه وإلى أعماله الغامضة. أو يؤكّدُ في مواضع أخرى أنّه لو استطاعت الحياة أن تنفتح أمامنا بطريقة سِحْرِيّة، ولو استطاعت أعيننا الفَتيّة أن تتجوّل في الممرّات، وتتفحّص

قاعات هذا الفندق وغرفه ومسارح التراجيديّات القادمة والعقاب الّذي ينتظرنا، لتراجعنا نحن وأصدقاؤنا مرتعدين من الرّعب! وبعد أن رسم برقّة وفخامةِ ألوانًا فذّة، لوحةً للرّفاه والبهاء والنقاء الأليف، والجمال والخير المحاطيْن بثراء كبير، يقدّمُ لنا تباعًا بطلات أسرته الرائعات، كلّهنّ، من الأمّ إلى البنت، مخترقًا، كلٌّ حسب دورها، غيومًا ثقيلة من الحزن؛ وينتهي قائلًا: "يمكننا أن نرى الموتَ وجهًا لوجه، لكنْ، بعد أن نعرف، كما يعرف بعضنا اليوم كُنْهَ الحياة الإنسانيّة، من بإمكانه دون أن يرتعد (بعد افتراض تنبيهه إلى ذلك) أن يرى ساعة ولادته وجهًا لوجه؟"

أجدُ أسفلَ إحدى الصفحات ملاحظة ذات دلالة كئيبة تتعلّق بموت دي كونسي غير البعيد. لا بُدّ من أنّ عناصر "أنفاس الأعماق" قد تشكّلت وكبرت في ذهن الكاتب كلٌّ على حِدَّتها. وتقول الملاحظة إنّ أسطورة شقيقات الحزن الثلاث تمُثّل تقسيمًا طبيعيًّا للمنشورات اللاحقة. وهكذا، مثلما يرتبط القسم الأوّل (موت إليزابيث وندم شقيقها) منطقيًّا بـ "مادون" أو سيّدة الدّموع، ينسجمُ القسم الجديد "عوالم المنبوذين" (المنشور بعد موت دي كوينسي) مع استدعاء سيّدة التّنهّدات؛ وأخيرًا، ستُهيمن سيّدة الظلمات على مملكة الظلمات. لكنّ الموت الّذي لا نستشيره حول مشاريعنا، والّذي لا نستطيع أن نطلب موافقته، الموت الّذي يتركنا نحلم بالسعادة والشهرة دون أن يقول نعم أو لا، يخرج فجأة من كمينه، ويكنس برقّة جناح مخطّطاتنا وأحلامنا والهندسة المثاليّة الّتي فكّرنا من خلالها في مجد أيّامنا الأخيرة!

# فهرس المحتويات


تقديم ..... ٧
تصدير ..... ١٧
إلى (ج. ج. ف.) ..... ١٩

**قصيدة الحشيش ..... ٢٣**
طعمُ اللانهائيّ ..... ٢٥
ما هو الحشيش؟ ..... ٣١
مسرحُ سيرافين ..... ٣٧
الإنسان الإله ..... ٦١
عبرة ..... ٧٧

**آكلُ الأفيون ..... ٨٣**
احتياطاتٌ شفويّة ..... ٨٥
اعترافات أوّليّة ..... ٩١
II ملذّات الأفيون ..... ١١٥
IV عذابات الأفيون ..... ١٢٥
V نهاية كاذبة ..... ١٤٧
VI الطّفل العبقريّ ..... ١٥٣
VII أشجانُ الطفولة ..... ١٥٧

**رؤى أكسفورد..... ١٦٧**
I الرَّقُّ الممسوحُ..... ١٦٩
II ليفانا وسيّدات أحزاننا..... ١٧٣
III طيف بروكن..... ١٧٩
IV سافانا لاماْ..... ١٨٣
IX خلاصة ..... ١٨٥

**شارل بودلير** (١٨٢١-١٨٦٧) شاعر ومترجم وناقد فرنسي. يعتبر من أبرز شعراء القرن التاسع عشر، ورمزاً من أكبر رموز الحداثة في العالم والتي كان بودلير أحد أكبر مؤسسيها.

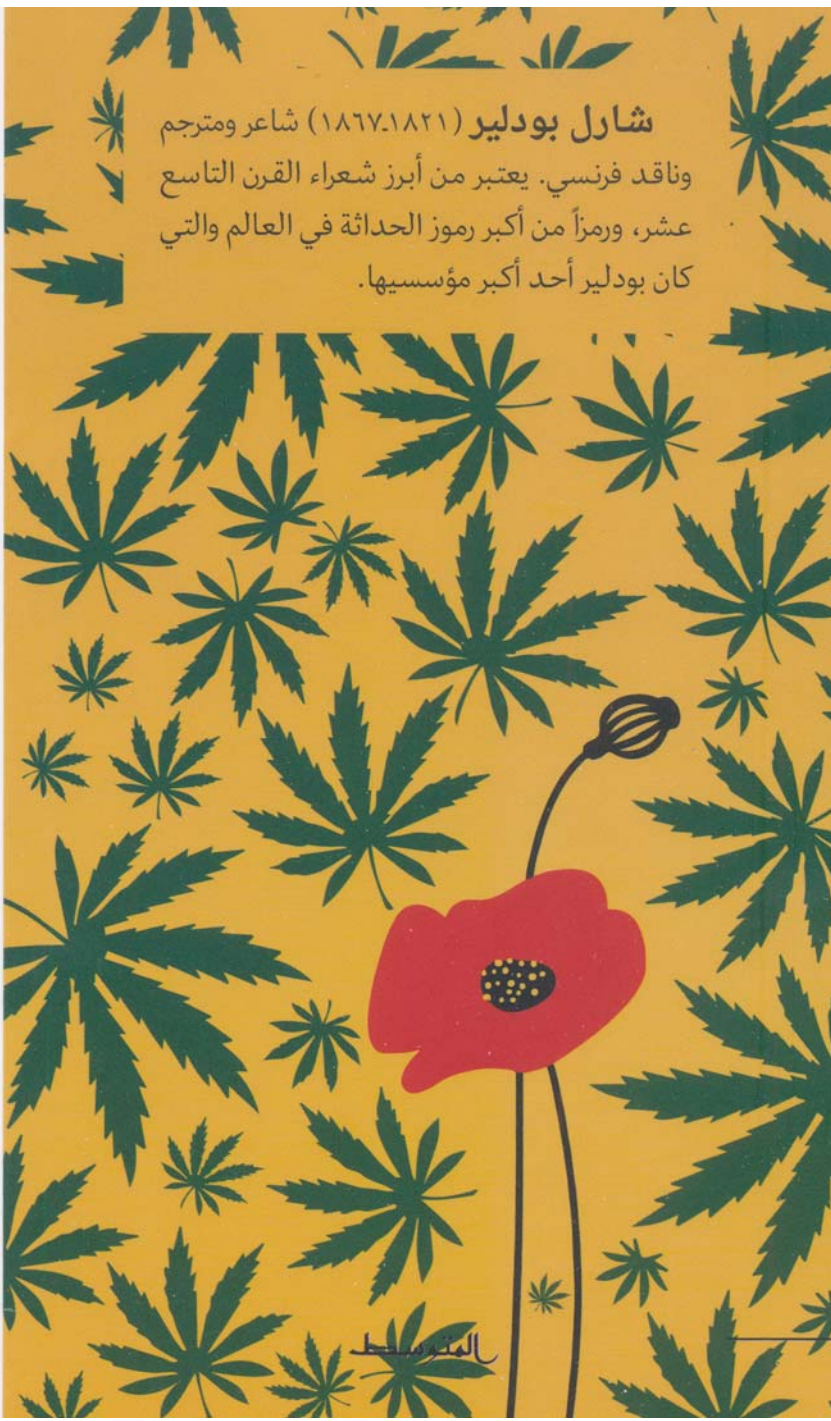



المتوسط

يتناول شارل بودلير في هذا الكتاب العلاقة الممكنة بين استعمال المخدّرات والإبداع الشعريّ متطرّقا إلى تجارب إبداعيّة أوروبيّة عديدة، مرتبطة بشكل أو بآخر بالتوظيفات الإبداعيّة للحشيش والأفيون في الشعر والسرد والموسيقى، مازجاً بين لغة علميّة أساسها البحث التاريخيّ والملاحظة المباشرة؛ وأسلوب شعريّ يخلّصُ هذا الكتاب من طابعه البحثيّ ويجعل منه واحداً من الكتب الّتي يمكن أن نفهم من خلالها الخلفيّات الفكريّة والجماليّة الّتي ستحدّد بعض ملامح الكتابة الشعرية لديه لاحقاً.

جدير بالذكر، أن هذا الكتاب يترجم للمرة الأولى إلى العربية.

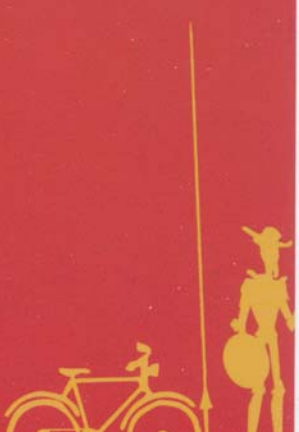

ستجدين في هذه اللوحة مشَّاءً كئيبًا ووحيدًا، مرتميًا في طوفان الجموع المتدفّقة، ومُرسِلًا قلبهُ وتفكيره إلى "إليكترا" بعيدة، جفّفت ذات يوم جبينَهُ المتصبِّب عَرَقًا، وأنعشتْ شَفَتَيْهِ المتجلِّدتَيْنِ بالحُمّى، بينما ستخمّنين أنتِ امتنان "أوريست" آخرَ كثيرًا ما سهرتِ على كوابيسه، وما أبعدتِ عنهُ بيد الأمّ الحليمة رهبةَ النوم.

ISBN 978-88-85771-78-9